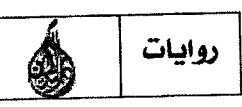


خيري الذهبي
فخ الأسماء
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
التكوين
رواية

فخ الأسماء

روايات



* الكتاب: فخ الأسماء
* الكاتب: خيري الذهبي
* لوحة الغلاف: منمنة إسلامية
* تنفيذ: وليد عبد الخالق



للتأليف والترجمة والنشر

دمشق – حلبوني- الجادة الرئيسية

تلفاكس 2236468 جوال 0944 330989

ص . ب: 11418

WWW.ATTAKWIN.COM
INFO@ATTAKWIN.COM
taakwen@yahoo. com

خيري الذهبي

فخ الأسماء

دار التكوين

تلك الرسالة الكريهة التي بعثت الاضطراب والارتباك ليس في القلعة فقط، بل في المدينة ومحيطها وأرباضها، رؤوس ثمار، وثمار رؤوس، وأشجار تحمل نساء، وأشجار تحمل عابدين وأتقياء لا يكفون، ولا يمتنعون عن ذكر الله، وكلما هبّت نسمة اهتزت الأغصان التي تحملها، فهتفت: واق، واق . سبحان الملك الخلاق..
وتوقف يفكر: ولكن ماذا لو استطاع السلطان الوصول إلى هاته الأشجار وازدرعها ها هنا في المدينة، ازدرعها وتخيّر ثمارها، وأطلق نفثة سخرية: ماذا لو استطاع استنبات شجرة لا تثمر إلا الجنود بلا قلوب لا عمل لهم إلا القتل والذبح بإشارة من السلطان، لو فعلها لحكم العالم، وسخر من الجغتائي ووحوشه، ثم هاجمته الفكرة التي كان يدفعها إلى زاوية من دماغه لا يريدها أن تظهر وماذا لو استنبت أشجاراً لا تحمل إلا النساء! إذن سيختارهن الأجمل، وستكسد سوق النخاسين وسيتزوج الفقراء بلا نفقة.

وصل إلى موقع حراس الحمام، أولئك المكلفين بالدوران حول أسوار المدينة على مدار الساعة، وقد اختيروا من خيرة الرماة، وما إجازة قبولهم في الحرس إلا إصابة سهم في الهواء بسهامهم.

زوّدهم بالتعليمات، وهدّدهم ما استطاع، ثم رجع إلى حيث المرآة المطلة على الضيوف المكروهين.

كانوا هناك متحلقين برؤوسهم القرع وعيونهم الضيقة وملامحهم

الجامدة يتكلمون، وكأنهم لا يتكلمون، فلا شيء يتحرك فيهم غير شفاههم، أما العيون والتي نسميها مغرفة الكلام فقد كانت جامدة، تمنى لو استطاع سماعهم كما يستطيع رؤيتهم، لو استطاع معرفة ما يخطّطون له، ما يفكّرون به، بدأ يكره هذه الوجوه الجامدة القاسية التي لا تفكر إلا في القتل، هه.. ما أعجبهم، كانوا لعنة العالم حين كانوا وثنيين، وظلوا لعنة العالم حتى بعد أن أضاءهم نور الله، وهداهم إلى الدين القويم، ومع ذلك لم يغيِّر الدين القويم فيهم شيئاً، وظلّوا لعنة العالم، إيه، تنهد: هل ننسى ما فعل الجغتائي الثاني المسلم، أو الثالث شديد التقى، بل ما فعل أبناؤهم وأحفادهم، وأخيراً اكتمل سعد الأمة الإسلامية حين اعتقد الجميع أنَّ روح الدمار التي حملوها بردت وانطفأت كما تنطفئ كل جمرة، فظهر هذا الجغتائي اللعين من حيث لا يحتسب أحد.. مسلم منذ عدة أجداد، ويقول: أنا لعنة الله المسلّطة على هذا العالم الفاسد أطهِّره من أدرانه.. عليك اللعنة وأيُّ درن أسوأ من إحراق المساجد على العابدين، أيُّ درن أسوأ من قتل الأطفال، وبقر بطون الأمهات أووف.. اتكأ نوري بظهره إلى الوسادة، فهو يعرف أنَّ جلسته هذه ستطول. كانوا يحركون شفاههم متحلقين في صورة أشبه بتلك المنمنمات الوثنية التي كان التجار يهرِّبونها من الهند، تصويرة أقرب ما تكون إلى الحقيقة، ولكنها ليست الحقيقة، فالحقيقة بيد الله فقط، الله الخالق الناطق المنطق، أما الإنسان هذا الضعيف، فيستطيع تقليد خلق الله، يستطيع نقل هذا التقليد على الورق، وما نقله كما حدثه أحد أولئك التجار الذين قضوا سنين طويلة في الصين إلا شكل من أشكال العبادة. إنه كمن يقول باللسان: اللهم أحمدك على أن أطعمتني، وسقيتني، وشفيتني، فيأتي المصور ليقولها على الورق:

اللهم أحمدك أن سوّيت الإنسان، فأحسنت سواءه، أحسنت جماله، وأحسنت صحته.. أنا أعرف أنّ هذه التصاوير لا يجب أن تصل إلى أيدي العوام، فالعوام هذه المخلوقات التي خلقها الله على هيئة البشر، ولكنهم فضّلوا أن يكونوا شيئاً أدنى من البشر، هؤلاء من لا يجب أن تصل إليهم التصاوير، فلو وصلت إليهم لعبدوها، أو عشقوها وما حكاية ذلك المجنون البغدادي الذي عشق تصويرة- وقضى العمر يبحث عن أصلها حتى وجدها- ولكنها كانت قد شاخت وكان قد شاخ إلا الدليل على وجوب إبعاد ثمار العقل عن العوام.. ولكن.. إنهم لا يتحركون. إنهم يحرِّكون شفاهاً لا تتكلم، ويسمعون بآذان لا تتأثر، وينظرون بعيون لا تنفعل.. ما هؤلاء الناس، ثم.. أين يخفون حمائمهم... تلك الجسور بينهم وبين الجغتائي. ترى هل عرف الجغتائي باضطراب المدينة إثر رسالته تلك. هل عرف بارتباك السلطان وحقٌ له أن يرتبك، فليس يتعثر الإنسان في كل يوم بكيس من رؤوس ليست رؤوساً، وبثمار ليست ثماراً، ولكن الحمائم. أين اختفت، كيف أخفوها، وكيف لم نعثر عليها. أكان ما رأيناه سحراً، أكانوا يعرفون بأنّا نراقبهم؟ هؤلاء الصفر العجيبون لعل لهم عيوناً في أقفيتهم، أو لعلهم يستطيعون الرؤية عبر الجدران، ولكن الحمائم.. الحمائم.. لقد قالتها بلابل بالأمس، قالتها ونشرت الدهشة، ثم الحيرة والرعب، قالت: ستطير وتطير. في قفص تطير، وعلى الجمال تطير، وفي أرض البياض تطير، وستبكي متمنياً أن يشدّك شيء إلى الأرض.

كان الشيخ أحمد رفيق طفولته، وصاحب الحظ المتعثر ينتظر قريباً من باب القلعة، وما إن رآه حتى اندفع إليه، وهمس: الإخوان يريدون السلام عليك!.. فهم نوري بسرعة، فالفضول يقتلهم لمعرفة

سر الرسالة الحقيقي، فقد تسربت حكاية كيس الثمار الرؤوس إلى المدينة، وليس لديهم من يمكن له أن يعرف الخفايا حقيقة إلا نوري. إنه الوحيد من قدامى الفتيان الذي استطاع الوصول قريباً من ينبوع القوة، من القصر، من السلطان.. من مالك الرق، حاول أن يعتذر ولكنّ نظرة الرجاء التي لم يعهدها من هذا المعثر المتكبر جعلته لا يكرر الاعتذار، فوعد بالقدوم..

كان يتمنى لو لم يعد، فالسلطان الريَّاب أصلاً لم يغفر له أبداً حكاية الحمام الزاني، ولكنه كان بحاجة إليه صاحباً للحمام، فاستعمله، وترك حكاية الحمام الزاني معلقة وتهديداً لا يعرف متى يتحول إلى فعل.

كان يتمنى لو لم يعد، فلعل خبراً يتسرب إلى السلطان، فيذكر خطاياه السابقة كلها.. هو يعرف أن السلطان صار يغضي عن الفتيان وزواياهم، ولكنه لم يخف كراهيته لهم أبداً، صحيح أنه أغضى، ولكن لا بد أنه دسَّ على عادته من يكون العين عليهم.. سأل الشيخ أحمد على الطريق إلى الحارة: من سيكون هناك، فقال: حسبنا حساب كل شيء، لن يكون هناك إلا الفتيان القدامى، الفتيان الذين صمدوا على الزمان ليس بينهم مدسوس، ولا عين، لك أن تطمئنَّ. أراد أن يسأل عن الأسماء، ولكنه وجد في ذلك مبالغة، فالفتيان يخافون كما يخاف، وليس من رأس عزيز على القطع في هذا البلد.

دخل إلى البيت يغيِّر ثيابه ويقضي بعض حاجته قبل حلول الموعد، ولكن.. تنهد متمنياً لو لم يدخل إلى البيت. البيت الكبير الذي أنفق من أجل شرائه أجمل سنوات العمر، البيت الذي جعلها تبيع ميراثها من أبيها ليكمل زينته وإعداده لهوايته الشائنة كما كانت تسميها.

دخل البيت فأصدَت خطواته فيه وزوبعت أوراق الشجر مشكلة الأكوام هنا وهناك.. إيه كم تمنى فيما مضى أن تغادره إلى أهلها ليخلو البيت له ولتجاربه على الحمام.. وها هي أمنيته قد تحققت، وتخلّت عنه، وغادرته، ثم تخلّى الحمام عنه... حتى الزوج الزاني صار وجبة للسلطان، أصدت الخطوات وزوبع ورق الشجر، وغنّى السكون بلا هديل.. جلس إلى جانب البحرة يتذكرها تلك التي جعلت الزوج تغادر، والسلطان يأكل الزوج الزاني، فيفرح نوري لأكله، فأكله كان الفداء له، والنجاة من الصلب، بل في أن يصبح صاحب حمام السلطان..

كان يتحرّى ويسأل ليعرف عن أنواع الحمام النادر، الهندية والعجمية والمغولية والرومية والفرنجية، كان يبالغ في أثمانها ليأتوه بها، فيحبسها في محابسها، ويزاوجها، ويصالبها.. إيه.. ذلك الحقير الذي سرق أجمل ما عملت عليه العمر حين أوصل خبره إلى السلطان و.. لتبدأ الكارثة..

كان قد سمع عن حمائم فرنجية مروحية الذيل، مشوهة الخلقة فهي تأكل مائلة برقابها إلى ما خلف ذيلها، ولا تأكل أبداً من قدام، فدفع ما يقارب وزنها ذهباً.. كنت أريدها، أريد أن أزيّن مجموعتي بها.. وكان غضب الزوجة عاتياً: أنت تحرمنا من كل شيء من أجل حمائمك هذه، بثمن هذا الزوج الفرنجي كان يمكن لنا أن نحج يا كافر.

ولم أردّ، فقد كان حجي الحقيقي إلى الطيارة، أخرج الحمائم من أقفاصها، أتأملها يطارد ذكورها إناثها، أنثر الحب لها. لم أكن أحب تلك العادة الذميمة في سباق الحمام، وسرقة الحمام، و.. لا. كانت متعتي أن أخرجها من أقفاصها، وأتأملها تهدل وتنفخ رقابها

الملونة ويطارد الذكور الإناث، والذكور الذكور، والإناث الإناث، مملكة حقيقية لا تختلف كثيراً عن مملكة السلطان، مملكة كنت فيها أنا السلطان، مملكة كان الأهالي فيها من الحمام الأزرق البلدي المنتشر في الجوامع، وكان فيها المولّد، وكان فيها الغريب الأصيل في غربته ولما لم أكن التاجر، ولم أكن أهتم بما يهتم له الدكانيون، فقد أخذت أعابث الله، بمعابثة مخلوقاته، فأزوّج البغدادي إلى الرومية، والفرنجي إلى الهندية، ثم أضحك لما ينتج عنها من ألوان واختلافات.. كنت.. أستغفر الله.. أخلق نوعاً جديداً.. أنا أعرف أنّ في هذه الكلمة عجرفة قد تصل إلى الكفر، ولكني أستغفر الله، لم أكن أقصد الكفر، بل كنت أريد، حسناً، لنخفف من خطأ الكلمات، كنت أريد أن أحسّن.. أف. أستغفر الله، وهل هناك من يحسّن على الله.

حسن، الحق أقول، لم أكن أريد أن أقترب من مملكة الله أصلاً، بل كان هناك دافع مجنون، دافع لا أعرف مبعثه، ولكنّي كنت أريد أن أفعل شيئاً مخالفاً لإرادة السلطان.. أف... ها أنذا قلتها، وليكن ما يكون، كان السلطان الذي طال عمره فينا أطال الله عمره إلى يوم القيامة لا يحب التجديد أو التغيير، فقد عاقب عدداً من الفتيان البلديين حين وضعوا تلك المناطق الحبشية المزيّنة بجلود الأفاعي، قال: هذا كفر، وأمر بجلدهم بجلود الأفاعي التي تمنطقوا بها حتى تفجر الدم منهم.. واختفت تلك المناطق عن الخصور ومن الأسواق، ليس هذا فحسب، فحين جاء ابن الخاقاني معه من بلاد اليمن بتلك الخناجر القصيرة المعوجّة وسماها بالجنبيات، فأحبها فتيان المدينة، واستكثروا منها يتغندرون بها، واعتبرها السلطان ورجاله تحدياً لسيف السلطان الهلالي الطويل. قال: هذه

أول بوادر الفتنة، وأمر بجمعها، فجمعت في الساحة أمام القلعة، وحطمت وتناثرت زينتها من الزجاج الملون والعاج والعقيق والجاد، وتحطمت تلك النصال المعوجة الجميلة، ودار منادي السلطان يعلن أنَّ من تمنطق، أو عثر عنده على جنبية يمنية، فسيكون عقابه القتل لأنه قد فارق الجماعة، ومن فارق الجماعة مات ميتة جاهلية، وما عقوبة العودة إلى الجاهلية إلا القتل بلا استتابة.

كان السلطان قد استطاع وبصبر طويل أن يرتِّب مملكته كما ينسق الجنائني حديقته، فلا غصن ناشز، ولا وريقة صفراء، ولا ثمرة غير تلك التي سميت الشجرة لها. كان قد عرف أنَّ بعض البستانيين يهوى التطعيم، فيجعل شجرة المشمش تحمل خوخاً، والدراق يحمل لوزاً، فأغضبه ذلك كثيراً، وأعلن أن هذا هو الكفر الصراح، فلو أراد الله أن يترك لكل شجرة حرية أن تثمر كما تشاء وتهوى لخلقها كذلك منذ البدء، ولكنه وبحكمته الإلهية العالية خلق المشمش مشمشاً، والتفاح تفاحاً، والدراق دراقاً.. وأمر رجاله ففتشوا البساتين أوان الثمر، ومن عثروا لديه على شجرة زانية واحدة كما سماها، فعقوبته الجلد وقطع اليد التي ارتكبت هذا الحرام.

منع استيلاد أو استيراد البغال والكوادن كما منع الجمال البختية، وقال: هذا كله من فعل المجوس واليهود. أمر المسلمين بلبس لباسهم الموحد، والنصارى بلبس السواد، واليهود بلبس الأصفر ليدل عليهم، وقال: بهذا نجتنب الخطأ، ونبتعد عن اللبس والحرام!

ضحك نوري ضحكته الخفيفة: أيها الزاني الخبيث.

كان ذلك الزوج من الحمام الأبيض مروحي الذيل فتنة حقيقة، كرة من ثلج تتدحرج. كان ينحني إلى الخلف برقبته المعوجَّة فيتحول إلى كرة وعندئذ يتبدى السحر، الذَكَرُ يهدل مغازلاً أنثاه، فينفرد

ويرتد كالنابض، وهي تتأود متراقصة تبتعد وتقترب، تتفرد وتلتوي جمالاً من بياض. كنت قد خففت من ريش أجنحتهما حتى لا يطيران فيضيعان، وكان الحمام من حولهما مختلف الألوان والأشكال، الأبلق، والأسود، والأحمر، والوردي، والمنقط، والمبقع، وكانا في رحلة غزلهما يغيبان لهنيهة بين الحمام، وسرعان ما يعتزلان لرقتهما ونعومتهما، لم يكونا مقاتلين، ولم يكونا شرسين، لم يكونا يريدان من هذا العالم إلا أن يتركهما لمداعباتهما وغزلهما وهديلهما الناعم، فجأة، ومن قلب ذلك العالم من الحمائم المختلفة انبثق الذكر الهندي الأبيض المقبع معكوس ريش العنق. كان جمالاً خالصاً، فريش الصدر مما بعد الجناحين وحتى العينين كان معاكساً لريش الحمام المنساب، كان ينبت باتجاه مخالف للريش فيتحول إلى لفاح، وإلى قبعة، وإلى صدرية وإلى.. جمال. لماذا اختار الأنثى المروحية، لا أعرف، ولماذا أخذ يطاردها لا أعرف، ولكن الصورة اكتملت في ذهني فجأة. ماذا لو زوّجنا هذا الهندي إلى هذه المروحية... لو .. لو استطعت صنع هذا لكنت قد قمت بما لم يقم به أحد من قبل.. الأنثى المروحية ملساء العنق والرأس المعوجّة العنق إلى ما وراء الذيل المروحة، هذه الأنثى نفسها بعوجها هذا وقد تحول صدرها ورقبتها ورأسها إلى هذه الكشاكش من الريش الأجعد الملتوي. أي سحر وأي فتنة أن تجمع الانثناء والذيل المروحي إلى صدر ورقبة الكشاكش.

كان يطاردها نافخاً رقبته، وكانت تتأوّد مبتعدة، والغريب، الغريب حتى الإدهاش أنّ ذكرها منثني العنق كان يقف جانباً يتفرج على هذا العرض، الهندي ذو الكشاكش يرتفع برأسه ورقبته المنفوخة، ثم ينحط مصدراً ذلك الهديل الحاد القوي المتحدي، وهي تلك

الكرة من الثلج الأبيض المتأودة على رؤوس أصابعها كانت تتراجع وتلتف وتدور، وفجأة هجمت عليه، هجمت ببياضها واعوجاجها وتأودها، هجمت وقد تحولت في طلبها له إلى ما يشبه الذكر. إنها تنتفخ وترتفع برأسها وتنحني هادلة وزوجها المتسامح يتفرج، ولا يفعل إلا أن يتأمل ما يجري أمامه في دهشة.. أهناك بين الطيور الديوث أيضاً، أهناك من يعجبه أن يرى أنثاه بين يدي ذكر آخر..

تلك الرسالة اللعينة حملها ذلك الجغتائي القذر لو استطعت معرفتها دون أن أستقبل الرسول، أو لو عرفت بقدومه قبل وصوله إلى حلب، إذن لأمرت أمير البدو بقتله في الصحراء، وحمل رسالته إلينا سراً، ولكن.. أف.. أنا أعرف أنه يتمنى أن اقتل رسوله، يتمنى أن أعطيه المسوِّغ ليجمع عليَّ كما قال في إحدى رسائله إلى قاضي سيواس: رجال طوران، وأبطال إيران، ونمور تركستان، وفهود بلخشان، وصقور الدشت والخطا، ونسور المغول، وكواسر الجتا، وأفاعي خجند وثعابين أبدكان، وهوام خوارزم وجوارح جرجان، وعقبان صغانيان وضواري حصار شادهان، وفوارس فارس، وأسود خراسان، وضباع الجبل، وليوث مازندران، وسباع الجبال، وتماسيح رستمدار وطالقان، وأهل قبائل خوزوكرمان، وطلس أرباب طيالس اصفهان، وذئاب الريِّ، وغزنة وهمذان، وأفيال الهند والسند وملتان، وكباش ولايات اللور وتيران، وشواهق الغور، وعقارب شهرزور، وحشرات عسكر مكرم وجندي سابور، مع ما أضيف إليهم من أعيار الخدم وفواعل التراكمة والأوباش والحشم، وكلاب النهاب من رعاع العرب، وهمج العجم، وحثالة عباد الإنسان، وأنجاس مجوس الأمم.

أنا أعرف أنه يريد المسوِّغ أمام شيوخه ومؤرخيه، المسوِّغ يجعل هذه الوحوش تستقتل في حربها ضدنا دون أن تخاف فتاوى الشيوخ ورجال الدين، والأفظع من هذا كله فتاوى المؤرخين..

عرفت منذ فترة مبكرة ضعفه أمام التاريخ وكتاب التاريخ، فجمعتهم عندي كلّهم، كلُّ المؤرخين الأحياء، ومن مات جئت براويته وتلميذه فجعلته في بلاطي، هؤلاء هم جندي الذين يخاف ويرهب. كان ابن الخوارزمي المؤرخ قد أوصل إليّ قولته: التاريخ هو العدو الذي لا تستطيع قهره، فحين تدبُّ فيه الحياة تكون قد أصبحت تحت التراب، حيث لا رهبة لك ولا رغبة فيك، ثم يتنهد ويقول: اللهم اجعل التاريخ صديقي، ولا تجعله عدوي!

الشيخ زين الدين والشيخ علاء الدين ثبّطاه طويلاً عن تكرار ما فعله الجغتائي الأول في بغداد. قالوا: للإسلام في الغرب حصن أخير إن دمرتموه كما دمّرتم بغداد فسيغضب الله عليكم إلى الأبد. إيه.. لسنين طويلة كان يرسل إليّ بالهدايا، فأرسل إليه بالهدايا، كان يعوي فأعوي، وينبح فأزيده نباحاً، يقتل متطرفين تائهين لي، فأقتل متطرفين تائهين له، يتذوّق طعم دم الشام من بعيد، فأتذوق طعم دم عراق العجم من بعيد.. أعرف أنه يخافني، ولكني أعوذ بالله أخافه أيضاً، فجواسيسي لا ينقطعون عن إرسال الرسائل عن هذا الجغتائي الذي ولد ويداه تقبضان على فلذة من دم، فقال المنجمون: إنّه سيكون لعنة الدم المسلطة على هذا العالم، وطلبوا من أبيه قتله طفلاً، فقال أبوه بفخر: إن كان هذا قدره، فلا رادَّ لقضاء الله... دعوه يستنزف دم العالم الفاسد ليصبح العالم من بعده أكثر نظافة وطهارة، ولكن.. اللعنة.. ليستنزف دم العالم هناك في الطرف الآخر من العالم، عند أولئك الوثنيين من الصينيين، أو الهنود، أو الصقالبة. ما الذي يجعله يترك كل أولئك الأقوام ويتحرش بنا..

قال لي أحد جواسيسي: إنّه يحلم بأن يضمن الجنة والغفران حين يدخل مكة خادماً لها، إنّه يريد أن يضيف إلى أسمائه الكثيرة،

سيد العالم، وخاقان البرور السبعة، وسلطان البحور السبعة، باعث الخوف في العناصر الأربعة، مركع الإنس والجن والطير والحن، سليمان الزمان، وداوود الأوان، قطب الأرض ووتد الأوتاد.. إلى آخره.. كان يريد أن يضيف....، وخادم الحرمين الشريفين.. عرض عليَّ منذ عقود أن يعيد إلينا الموصل والجزيرة، ثم الموصل والجزيرة وأرمينيا وكرجستان على أن نترك له هذا الجزء الصغير من العالم من مكة والمدينة وهو لا يريد إلا أن يترك تابعاً من أتباعه فيها، وأن يضيف إلى ألقابه: وخادم الحرمين الشريفين، وسوف يضخُّ المال إليهما ضخاً لتصبحا جنتي العالم، سيرسل مهندسي الصين يجرون إليهما الماء ولو من بلاد واق الواق، سيرسل فناني الهند ليجعلا منهما تحفة معمار العالم، سيرسل إليهما أروع أشجار العالم مما سمعنا به وما لم نسمع، وسيزرعها خبراؤه في تلك الصحارى، سيرسل أروع حيوانات العالم وطيوره لتقيم بين تلك الأشجار التي ستزرع، وحول تلك العيون التي ستتفجر، وهو لا يطلب هذه النعمة لعقبه، لا، فهو ليس أحمق فيعتقد أنَّ معزولين كرجاله أولئك يستطيعون البقاء دون رضا الحكام المحيطين بهم. هو يريد هذه النعمة له فقط، يريد أن يدخل التاريخ خادم الحرمين الشريفين.

إن قلت نعم فستمتنع جيوش العالم عن التحرش بنا أو التقرب من أرض أرفع عليها بيرقي.. إن قلت نعم فستمتنع العواصف والزوابع والقحوط والجراد والطواعين عن الاقتراب من مملكتي.. إن قلت نعم..

عرضت الرسالة والهدايا، وكان بينها تمثال لبوذا بحجم طفل من ذهب وعينين من ياقوتتين كان قد غنمه من بلاد الهند، فارتاعوا، وأفتوا بتحطيم الصنم وتوزيع ذهبه على الفقراء....، وعلى رفض

العرض، وكانت الفتوى بحضور رسله وسفراء بلاد ابن عثمان وبلاد ابن القرماني، وبلاد ابن الجلايري، و... سفراء بيزا والبندقية. كانت الفتوى كما عرف الجميع بمن فيهم سفيره فتوى كلّفوا بكتابتها، وأعلنتها أمام السفراء ليعرف أنه ردٌّ لا رجعة عنه، فابتلع خيبته وعاد إلى الضبع يحوم ويحوم حول من يظنه الضحية، يحوم بالليل، ويشخر، ويبول، ويرشُّ بوله على من يظنه الضحية، وأنا أحوم وأحوم، أشخر، وأبول، وأرشُّ بولي عليه ليعرف أنه الضحية. مبارزة استمرت لسنين يستولي فيها على بلاد إثر بلاد يستقوي بأموال أهلها وجندهم ويخّرب ديارهم مفتخراً بالقول: حيث يمر جندي لا ينبت العشب.

مبارزة كنت أستولي فيها على القلاع والحصون متظاهراً بأني لا أعرف صاحبها راداً له جواب الرسالة، كان يتضبّع فأتضبّع، ويتنمّر فأتنمّر، ويتأسّد فأتأسّد، ولكنه أبداً لم يجرؤ على العبور شبراً في أرضي، كما لم أجرؤ والشهادة لله على العبور شبراً في أرضه، كنت أخاف الطعن من خلاف. ثورة غير محسوبة، تمرداً غير متوقع، هيجاناً لأغنام تظنها الأغنام، فإذا بها تكشّر لتصبح الذئاب. كان علي الحرب ليس أمام الضبع المترصد، بل أمام الذئب المتغنّم، خلعت عنهم جميعاً جلود الشاة ليتضّح الذئب الكسير يعرف أنه الكسير، ولن يخدعني، طاردتهم في جبالهم وكهوفهم ومستنقعاتهم، طاردتهم بدعاتي، ومؤرخيَّ، وشعرائي لأضمن ألا أطعن من خلاف، ولكن.. ها هو رسوله يظهر فجأة أمام باب المدينة. من سمح له بالعبور عبر كل هذه البلاد ليظهر أمامي على هذا الشكل.. مَنْ مِنْ أمرائي تآمر علي، فدلّه على مسارب الصحراء، ومعابر المستنقعات فلا يعرف جواسيسي به، من الذئب المتغنم من رجالي، أعوذ بالله، لم أستطع

النوم منذ عرفت بوقوفه أمام باب المدينة، فلقد عرفت أنّي فقدت الأمان، فها الضبع يكشف أنَّ له ذئاباً متغنّمة في بلاطي.. من يكون.. من يكون..

إنَّ مجرد وصول الرسول إلى باب المدينة وطلب لقائي هو النصر. إنها الإشارة المتعجرفة منه تقول: لقد غلبتك في قصرك. انتصرت عليك في حراس صحرائك، وعيون مستقعاتك، وصقور جبالك، لقد حيَّدتهم جميعاً، وها أنذا عند بابك.

قال لي القلم دار بأني لا يجوز أن أتركه أمام الباب طويلاً، فيراه الناس ويخافون أذى سيده.. يجب إدخاله وأخذ الرسالة منه مباشرة، ولكن.. هه. هذا القلم دار الساذج. ليست الرسالة المكتوبة المهمة، فأنا أعرف ما سيقول فيها، سيطلب خدمة الحرمين الشريفين مرة أخرى، أو يطلب التحالف معي على ابن عثمان في بلاد الروم، أو إرسال قريبه اللاجئ إلينا، ولكن كلُّ هذا غير مهم، فهذا ليس الرسالة. الرسالة هي: لا حراس، ولا رقباء، ولا نسور لديك. الكل محيَّد، ولا قيمة له أمام ما أريد.. من... من... من... حامل الرسالة الحقيقي بين رجالي، من قاده في مسارب الصحراء ومعابر المستقعات، من...

نقر الباب ودخل الشراب دار: مولاي. البلاط معقود. صبَّ كأساً من إبريق شراب يحمله، شرب منه شربة أبقاها طويلاً في فمه وهو ينظر في عينيَّ مباشرة، ثم ابتلعها، فهذا هو التقليد ليعرف السلطان أنَّ الشراب غير مسموم. أخذت الكأس فتذوقته على مهل أستكشف الغريب في طعمه. لا. إنّه المعتاد، شربته، وقمت، كان يجب أن أستحم وكان الحمام جاهزاً. دخلت الحمام، الأجران مليئة بالماء، قامت جارية بسكب طاس من ماء الحمام على جسدها،

طاس من كل جرن، ثم تمضمضت الثانية بالماء من كل جرن، وكنت أراقب، قالت: الحمام جاهز يا مولاي، وجلست. جاريتان حبيبتان إلى قلبي قامتا بحمامي، ولكن. من الذئب المتغنِّم بين رجالي، من؟ انتهى الحمام، جاءت الجارية الأرمنية العملاقة تلبس ملابسي الداخلية، وقفت أمامي، فقامت الجاريتان بحكّ الثياب الملبوسة بجسدها، حكّوها وحكّوها بينما كانت جاريتاي تجفّفانني. وهكذا تأكدت أنَّ الملابس غير مسمومة، إيه، على الإنسان أن يكون حذراً، لبست القمصان اللحمية بعد خلع الأرمنية لها، أثداؤها مرتخية. هه، الجمال لا يدوم، والكمال لله وحده، ولكن من حامل الرسالة الحقيقي بين رجالي، من الذئب المتغنِّم. دخلت القهرمانة: الإفطار جاهز يا مولاي.

أحنيت رأسي موافقاً، فدخل الغلمة الصغار يحملون صواني الإفطار ومعهم الجاشنكير الذي بدأ بتذوق الطعام لوناً لوناً وخبزة خبزة. إيه. ما أشهى أن يأكل الإنسان من رغيف صحيح، ومن طبق لم يمسه الجاشنكير بفمه القذر.. آه... إنها السلطنة وعليك دفع الثمن و... بدأت آكل.

سكب الطاس الأول على رأسه، ونظر إلى الماء الملتاث بالصابون ينزلق على الرخام الأبلق، وقال: عجيبة هذه المدينة، أقدارها مشطورة كمياهها، مدينة يحكمها نهران، نهر البياض الرائق يحمل الريَّ والنظافة إليها، ونهر السواد يمشي تحتها يحمل أقذارها وتلوثها وفسادها.

سكب الطاس البارد على رأسه، ونظر إلى النور في الباحة عبر باب الحمام المفتوح، فليس من أحد غيره في البيت، ليس... من... أحد،.. لا زوجة.. لا أطفال.. ولا حتى حمام..

قبل أن يصبح زوج الحمام طبقاً على مائدة السلطان، وقبل أن يصاب بإسهال الرعب حين عرف أنَّه قد صار عند السلطان دليل لا يدحض على شهوة التمرد. ومنذ أن غادرته الزوجة تبحث عن قدر جديد وزوج جديد قادر على أن يهبها طفلاً، كان قد تملكته عادة يعرف الآن أنها العادة الشريرة، فمنذ أن رأى الفرخين الكاملين وقد اكتسيا بالريش، الفرخين كاملي الاعوجاج، كاملي ريش الرقبة والرأس والصدر المكشكش، امتلكه الفرح، امتلكه حتى لم يعد البيت يسعه، فخرج.. كان الزمن تموز، وكان الريف والبساتين خالية من الفلاحين فماذا يفعلون في بستان خلت أشجار مشمشه من الثمر، ماذا يفعلون في بستان نامت عصافيره وأزَّت زيزانه.. مرَّ بين أشجار المشمش، تأمل الورق الداكن أضاع الحر نضرته، مشى فوق تراب فتته الجفاف ودوس الأقدام.. وفجأة وجد لسانه يسرقه ويهتف: خدعت السلطان.

وكمن تلقى صفعة بقبضة عملاق انحنى متكوماً حول نفسه، وانتظر سقوط الصاعقة، انهيار الشجر فوقه، انشقاق الأرض وابتلاعه، ولكنَّ شيئاً من هذا لم يحدث، نظر من حوله بعينين نصف مغمضتين مرعوباً، يتساءل: كيف تجرأ لسانه، وأفلت هذه المقولة. أصاخ، أصغى، مطّ أذنيه إلى أقصاهما، ولكنَّ صوت جندي لم يسمع، ونحنحة جلاد لم تقترب.

استرخى وأسند ظهره إلى جذع مشمشة عجوز، وأخذ يتأمل ما فعل. حين رأى الذكر الهندي يعتلي الأنثى المروحية، أحسَّ بنشوة غريبة، نشوة لم يعرفها لديه منذ طفولة الرضاعة ربما، نشوة جعلت كل شعرة، وكل مسامَّة من مساماته ترتعش، وهو يذكر أنَّ جملته تلك تسربت منه أول مرة بعد رؤية الذكر الهندي يعتلي الأنثى المروحية، قال: خدعت السلطان.

انتظر البيض فباضت، وانتظر الفقس وفقست، وكان الانتظار لذيذاً، كان تحدياً واستفزازاً وإحساساً بالتساوي مع السلطان، فأن تخالف وتصرَّ على المخالفة، وتصمِّم على مخالفة ستستمر عشر سنين ولا تعاقب، أمر رائع، كان يعرف من تجاربه السابقة أنَّ الفرخين لن يكونا كأبويهما، بل سيكونان على بعض العوج، وعلى بعض الكشاكش وعليه أن يصالب ويعيد المصالبة ويحسِّن العوج، ثم يحسِّن الكشاكش لعشرين أو لثلاثين جيلاً، ولكنه كان على استعداد لهذا الانتظار، وهل هناك من تحدٍّ للسلطان أكبر من هذا، الإصرار على الزنا، والإصرار على رعاية الزنيمين، والإصرار على إنشاء جيل من الحمام الزنيم متحدي السلطان، آه، تنهد وتمتم وهو يراقب الفرخين فقس عنهما البيض: لقد قهرت السلطان.

وكان ما توقع. عشر سنين انقضت انقطع فيها عن العالم إلا رعاية هذا التزاني بين الفرنجي والهندية، والهندي والفرنجية، ثم بين الأبناء والأمهات ثم الآباء والبنات، وكان العوج يتقدم والكشكشة تزهو من جيل إلى جيل.

عشر سنين هجرته فيها الزوجة، وهجر كل حمام لديه إلا هذه الأزواج المتزانية في انتظار المعجزة، الحمامة الكاملة. وفقس البيض أخيراً عنها، زوج من حمام كامل العوج الأبيض كامل الكشكشة تجعل الرأس والرقبة والصدر قطعة فاتنة من الزخرفة والتطريز.

تخلّص من كل حمام، ولم يستبق إلا هذا الزوج المعجزة خلاصة الزنا والتحدي، ولكن... وبعد شهر من تدليله والعناية به والاستيقاظ لمراقبة أول هدلة له وأول معالم ذكورة أو أنوثة فيه، بعد شهر انقطع فيه إلا للمعجزة كما سمّاها، وهو يذكر أنّه بعد الغداء المتقشف مباشرة وحين أخرجهما من قفصهما يتأملهما، أحسّ فجأة بالخواء. ماذا بعد.. ها أنذا أحصل على الحمامة الكاملة، وماذا بعد، ها هي عشرة أعوام تنقضي ولا هدف لي إلا الحصول على هذا الزوج من التزاني النادر، وماذا بعد، ما الفائدة من إنجاز كهذا إن لم أكن أستطيع إظهاره للعالم والتباهي به. إظهاره؟ وكان الرعب والخوف وانتظار اللطمة القادمة من القوة الكبرى في هذا العالم، من السلطان، في المقهى كاد لسانه ينزلق ليحدّث أصدقاءه أكثر من مرة، ولكنه بصعوبة كان يفلح في ضبط نفسه والامتناع عن البوح، ولكنّ الإغراء كان ملحاً فقد كانوا يتباهون في صيد حمامة كانت تخترق سماء الحارة حين أطلق سربه وأنزلها، ولم يرض بإرجاعها إلى صاحبها إلا لقاء فدية كبيرة، وكانوا يتباهون بأنثى حمام كانت تبيض ثلاث بيضات تفقسها جميعاً، وكانوا.. وكان

ينظر إليهم في سخرية صامتة. هه، أنتم وتباهيكم، لو تعرفون.. ثم يكظم نفسه، فما الفائدة من إنجاز هو عدوي، فبمجرد أن أعلن أني قضيت السنوات العشر الأخيرة أزاني الحمام فسأصبح طريد السلطان.. ولكن.. هل.. هل يغفر لي الجمال الذي أنجزت لدى السلطان.. هل يغفر لي الإبداع الذي وصلت إليه لدى السلطان، أف.. لا أظنه يفعل.. سيقول بكل برود: أطعموه لحم قواريطه نيئاً، أو ربما كان في حالة مرح، فقال: دسوها في استه حية، أو ربما أمر بصلبي. فأن أصرّ على العصيان لعشرة أعوام لا يشي إلا بمدى الفساد والسواد المختفي في القلب.. زوج من الحرام.. هل قلت الحرام؟.. ربما، وربما كان الحرام فعلاً، فالسلطان الذي حرّم الزنا واختلاط الأجناس لم يكن مخطئاً، نعم.. لا بد أنّه زوج من الحرام، فالفوضى والاضطراب والقلق الذي أعيشه لا يمكن أن يكون نتيجة زوج من الحمام.. صحيح أنّه كان شيئاً بهيجاً ممتعاً رائعاً و.. ماذا بعد.. صحيح أني تخلصت من كل حمام آخر لئلا يشغلني أي جمال منقوص آخر عن هذا الجمال. الكتلة الكروية المعوجّة مروحية الذيل مكشكشة العنق و.. ماذا بعد.. في البدء كنت أشهق عند رؤيته، ثم.. بدأ هذا الإنجاز يفقد غرابته، أخذ يفقد طرافته، وتحول إلى.. إلى هل أقول عادي.. نعم.. ففي النهاية ليس إلا زوج حمام.. وبدأت دودة السؤال تنغل في قلبي، أهو جميل فعلاً، وما يعني أن يكون لديك زوج من حمام مروحي الذيل مكشكش العنق، أهو فعلاً أجمل من الأبلق المتفاخر بريش جناحه الأبيض، وزرقة جسمه، أهو أجمل من الزاجل الأسود لامع الرقبة متدرن الأنف، أهو أجمل من المكاوي المتغنّج بجواريه الطويلة.

كانت الزوجة قد غادرتني سعياً وراء زوج يهبها طفلاً يسلي

كهولتها، وها أنذا مع طفليَّ هل أقول الجميلين، إنهما جميلان ولكن.. كان عليَّ أن أسميهما. ونفثت نفثة تهكم صغيرة، صحيح، لكل نوع من الحمام اسم، فماذا ستسمي هذا النوع.. ماذا أسميه، من حقي أن أسميه، أفلست من أوجده من حيث لم يكن من قبل؟

هل عرف الناس في مشرق الأرض ومغربها حمامة كهذه الحمامة..

هل عرف عالمنا الفاني حمامة كهذه الحمامة من قبل.. إذن، فأنا.. لا.. لا.. لا... أستغفر الله.. أستغفر الله، لن أقولها. نعم.. أنا ساعدت في تقريب هذين النوعين لأصنع هذا النوع، ولكن لا.. لن أقولها. عليك اللعنة أيها الشيطان، عليك اللعنة. لا.. ليس أنا. الله هو الخالق الصانع الناطق المُنْطِق، وما نحن إلا أدوات صغيرة بين يديه العظيمتين.. أنا أعرف أن هناك حمائم تسمى بالبغدادي، والاسكندراني، والحلبي، ولكن ليس هناك من حمائم باسم شخص لسبب بسيط هو أنَّ الحمائم تسمى بأسماء المدن التي جلبت منها، حمائم موجودة، ولا فضل لإنسان في اصطناعها أو توليدها، أما هذه، فأنا، أنا وحدي وبتكريس ومجهود استمرَ سنين صنعتها، أفلا أستحق أن تسمى باسمي، سأسميها النورية، .. النوردينية، لا، ولكن.. يجب أن تسمَّى باسمي، ولكن أعوذ بالله، إنه ليس اسماً جميلاً لحمامة، لا.. سأختار لها اسماً آخر، ثم.. ما فائدة تسميتها إن كنت لا أستطيع أن أعلن أنها لي وأني من استولدتها، أنا من فكرت في الكيفية التي ستكون عليها حين تظهر إلى الوجود، أنا من أوجدتها في عقلي قبل أن توجد على الأرض، و.. هل وجدت أصلاً في العالم قبل أن توجد في عقلي، أنا تصورتها، أنا أوجدتها، أنا صنعتها في عقلي، ثم سعيت حتى نقلت الصورة إلى الخارج.. ولكن..

هه، أي خروج هذا، ما الفارق بين وجودها صورة في الذهن، وبين وجودها حمامة في قفص، في بيت لا يعرف بوجودها مخلوق.. حسن.. إن لم يعرف الناس بوجودها فهل هي موجودة..

أعاد تأمل المتشاجرين في المقهى ساخراً من صغر عقولهم، حمامة تبيض ثلاث بيضات.. هه.. طيب.. وما أهمية هذا.. وتنهد... لو تعرفون.. وعادت الفكرة تلح: شرط الوجود معرفة الناس بالوجود.. ثم اشتطّت الفكرة، فلنفرض كما يقول الرحالة، أنَّ هناك أناساً وجوهها في صدورها، أو أنَّ هناك أناساً بساق واحدة، وأنَّ هناك أناساً من الشق بنصف رأس ونصف صدر ونصف بطن.. و... ولنفرض أن الغول والسعلاة موجودة، ولكن، أهي موجودة فعلاً هل حملها أحدهم يوماً وقدمها للرائين، أم أنَّها مجرد حكاية، فكرة، شيء يدور في الذهن فقط، ولكن.. توقف مغضباً.

أنا أنجزت زوج الحمام... فهل رآه أحد سواك.. لا.. شرط الوجود معرفة الناس بالوجود، كيف تعرف أنَّ الغول موجودة ولم ترها، ولم يرها أبناء جيلك كلهم، وانفجر على غير توقع سؤال: ولكن الله موجود، ولم تره. هل رأيته؟

احمرَّ وجهه من المفاجأة بهذا السؤال غير البريء، احمرَّ حتى لاحظ المتشاجرون حالته، فتوقفوا ينظرون إليه مشدوهين مما اضطره إلى الاستئذان والمغادرة منزعجاً من هذه الأسئلة التي لا يعرف كيف تنبثق دون طلب أو رغبة، ولكنه وهو يبتعد أجاب بسرعة: ولكن الله موجود، فأنا أرى آثاره، آثار صنعه في كل مكان.. قالها منتصراً مخرساً ذلك الجزء الريَّاب في عقله.

لم أستطع كتمان السر الذي اقتضاني السنين لأنجزه، الجنة من غير ناس ما تنداس، صحيح. الإنجاز إن لم يعرف به الناس ليس

بالإنجاز، الشعر الذي لا يسمعه الناس، أهو شعر؟.. بدأ المكان يضيق بي وبحمائمي التي صنعت ولست أدري كيف حدثت أبو القاسم في إحدى السهرات عما صنعت، حدثت فيه الشاعر أتوقع انبهاره بقصيدتي الريشية، ولم يبد اهتماماً، بل التفت إلى جاري يكمل حديثه، فسقطت في بئر الخيبة، إذن، فليس مهماً ما صنعت، ليس إنجازاً ما لا يلفت الأنظار إليه، وأخذ الأمر يتحول إلى تحد.. و.. دعوت الشيخ أحمد إلى غداء، وأطلقت الزوج الأعجوبة أمامه، وأغمضت عيني أتوقع آهة الدهشة، ولكنه نظر إليه بلا اكتراث، وقال وهو يلوك بقوة: لماذا يعرج هذا الطير؟.. يعرج؟.. أيسمي هذا الدلال وانثناء الرقبة وإبراز الصدر والأكل من بين ريش الذيل المروحة عرجاً؟

صدَّت نفسي عن الطعام، ولم أستطع المزيد من الأكل فتركته ينظف آخر ما في الصحون، كانت شهيته طيبة، قوَّاه الله، وأخذت أنظر إلى ثمرة الصبر والشغل الطويل والانتقاء الطويل والتعاون الطويل مع هذه العجماوات حتى أنجز هذه التحفة التي لم ينجزها ابن امرأة آخر، ثم يأتي منظف الصحون هذا ليقول بفم مليء بالطعام يتناثر منه: لماذا يعرج هذا الطير.

انقضت بضعة أيام كانت العزلة والخيبة فيهما تفعلان بي فعل الحمى، تصحَّر العمر فجأة أمامي، فما الذي فعلت بهذا العمر المجاني إذن.. الزوج هجرتني، وفي المرة الأخيرة رأيتها فيها كانت تجر صبياً، وتحمل صبياً، وتتمايل تحت ثقل حملها الجديد، نظرت إليَّ في تعال، ومصمصت شفاهها ساخرة ممَّن فضل الحمام على الحمَّام.

لم يطل أمر عزلة وانكسار نوري، فما أسرع ما وصل الخبر إلى السلطان، وعرف نوري صدق المثل القائل: كل سر جاوز الاثنين

شـاع، وهـكـذا صـودر زوج الحمـام، وأمـر نـوري بإعـداده لغـداء السلطان، وكانت المنَّة الكبرى أن نوري لم تقطع يده ولا جرُّس، بل استجاب السلطان لإلحاح برهان الدين والقلم دار وأصبح نوري صاحب حمام السلطان، وكان عليه أن يغيِّر الكثير، وأن يحبَّ السلطان، و.. غيَّر الكثير.. وأحبَّ السلطان.

سمع نوري الباب ينقر، وكان يجفف شعره، أصاخ جيداً، إنها النقرة القديمة نقرة الفتيان، وتنهد: لا بد أنه الشيخ أحمد جاء يذكرني بأن موعد الفتيان في الزاوية قد حان، وعلى نوري أن يفي بوعده ويحدثهم عن رسالة الجغتائي.

نظر إلى الوزير، ثم إلى القلم دار، نظر إلى قاضي القضاة، ثم إلى السلاح دار، نظر إلى البيرقدار، ثم إلى الأمير آخور، نظر إلى الحرس المزدانين بريش النعام وفراء السمور، كان يتمنى لو استطاع جعلهم ينسون فراء السمور، فطقس البلاد الدافئ لا يحيجهم إلى الفراء، ولكنَّ الفراء كان علامة الرفعة هناك وراء جبال قاف فكيف يتنازلون عنه الآن. نظر إلى الحاجب هازاً برأسه، فانفتحت الستارة، ودخل الرسول ذلك الذي كان السلطان يتمنى أن يخسر مدينتي سروج وعين تاب، ولا يراه في بلاطه، ولكنه.. وصل.. وها هو يراه.

دخل الرسول ومعه عدد من الرجال يحملون كيساً أشار الكبير فيهم إليهم، فانفتح الكيس واندفق عدد من الكرات البنية السود، الكرات ذات الشعر البني، وحين أعاد السلطان النظر رأى أنَّ لها عينين وفماً، فصرخ: اقبضوا على الكلب، وتدافع الحراس يقبضون على حامل الكيس، ويحملونه إلى النطع، ولم يبق إلا أن يأمر السلطان السيَّاف فينضاف رأس الرسول إلى الرؤوس التي نثرها أمام السلطان، ولكنَّ الرسول كان يزعق بصوت ذئب علقت ساقه في الفخ، وفهم الجميع من زعقاته كلمات: أمان، أمان، مسلمان، سلطان زمان.

أغمض السلطان عينيه يتنفس، ويهدئ نفسه، فقد عرف في لحظة أنَّه الفخ أعِدَّ بمهارة، وأنَّه لو أمر بقتل الرسول فلن يكون

أمره إلا إعطاء الضبع الحائم على الحدود المسوّغ، هدأ. فتح عينيه، فرأى مَنْ حوله وكأنّهم في واحدة من تلك الصور التي كانت تحمل إليه من الهند. كانت اللوحة غائمة قليلاً، عمائم ونظرات مذعورة ولحى آسيوية خفيفة، ولحى بلدية تصل إلى ما قبل السرة. تحوّل قليلاً، فرأى الجفتائي اللعين حليق الرأس منزوع الخوذة يمسكه الحراس يلوون ذراعيه إلى الخلف، وقد مدّت رقبته استعداداً لضربة السياف الذي كان ينتظر الإشارة.

لم يكن يسمع نداءات طلب الأمان، ولم يكن يسمع صرخات الاستغاثة، كان يرى فقط النظرات الحذرة والمترقبة، ولكن ما لفت نظره أنّ واحداً من الرسل، لا، لم يكن كبير الرسل، كان ينظر إليه نظرة مواربة، نظرة فيها الرجاء والأمل والسخرية؛ اقتل الرسول، إكراماً لله، اقتله!

وفهم السلطان الرسالة بسرعة، فرفع كفّه، وارتفع السحر عن القاعة، ودبّت الأصوات والعويل والتمتمات، وأشار إلى الحاجب بكفه، فأطلق سراح الرسول الذي سيق قريباً من السلطان، وانقض ازدمر ذلك المملوك الكرجي الجميل الذي لا يفارقه، ففتّش الجفتائي، فتّش ما تحت الإبطين وما تحت الخصيتين، وما تحت واقية الساقين، ونظر إلى السلطان، فرأى الشكّ ما يزال في العينين، فقام بحركات سريعة بتجريد الرسول إلا من قميص اللحم، وعندئذ وثق الجميع ألا سلاح مخبوءاً ولا غدر معد.

نظر السلطان إلى الوزير، فتقدم من الجفتائي، وسأله بلسانه: لماذا فعل ذلك؟. ولكن الجفتائي سأل في براءة: ولكن. ماذا فعلت.

فقال الوزير: تأتي برؤوس قتلى وتطرحها أمام السلطان، أبهذا يهددنا سيدكم؟ ونظر الجفتائي إلى الرؤوس المندلقة من الكيس،

وكأنه فهم ما يقصد الوزير، فأطلق قهقهة لعينة جعلت وجه السلطان يحمرُّ، وينظر بسرعة إلى كبير الجغتائيين المصاحبين للرسول، فرأى نظرة السخرية تمرق في عينيه الضيقتين كومضة، ثم اختفت لتحل محلها نظرة فرح حين رأى الحرس ينقضون ثانية على الرسول فيوثقونه، وبحدس أشبه بالحدس الحيواني لا علاقة له بالمنطق، أو بالمحاكمة فهم السلطان أنَّ هناك خديعة ما، فخاً ما قد نصب له ليبطش بالرسول، وحدس أنَّ عليه ألا يفعل، فإن فعل فلن يكون فعله إلا تنفيذاً لأمر معّد سابقاً، فرفع كفه يأمرهم بالتوقف، فتوقفوا، ثم أشار ثانية، فحمل الجغتائي، وقذف به عند أقدام السلطان.

قال السلطان بالمغولية: تكلم، وكان السلطان يعرف المغولية، ولكنَّ الرسول لم يكن يتكلمها، بل كان يتكلم الجغتائية، وهي ليست بالبعيدة، ولكنها لم تكن اللغة نفسها.

قال الرسول: سيدي أرسل إليكم هذه الهدية التي رآها في بلاد الهند، وقد اعتقد أنَّها ستعجبكم، فقال السلطان محتداً: ولم يجد في هدايا العالم إلا رؤوس هؤلاء المساكين... رؤوس؟ وأطلق الرسول ضحكة أخرى، ولما رأى نظرة الغضب في عيني السلطان كمَّ فاه واستأذن السلطان في المضيِّ إليها.. حمل واحداً من الرؤوس البنية، ثم نظر إلى السلطان، واستأذنه في استعارة خنجر من الحرس، فأشار بالموافقة. أمسك الرسول بالخنجر، وطعن الرأس، ثم رفعه إلى الأعلى، فانسكب منه دم أبيض أخذ الرسول يشربه بتلذذ تحت أنظار البلاط المندهشة، وصرخ الأمير آخور: ما الذي تفعله أيها الكافر! ولكنَّ الرسول لم يرتدع إذ قام بطعن الرأس ثانية ثم ضربه بالأرض، فانفلق لينجلي عن دماغ أبيض رقيق اقتطع الرسول منه

قطعة فأكلها بتلذذ، ثم حمله إلى السلطان تحت أنظار الحرس المترقبة.

حمل السلطان الرأس المفلوق، وأدهشه أنَّ الدماغ كان ملتصقاً بالجمجمة، ولا حشو في الداخل، فنظر إلى الرسول متسائلاً، فأعلن أن ما حمله إلى السلطان لم يكن رؤوس بشر، بل هي ثمار تنبت في بلاد الهند، قلب السلطان الرأس بين يديه، قلب الشعر والفم والعينين المنطفئتين، ثم أعطاها إلى الوزير الذي تأملها مندهشاً، ثم ناولها إلى القلم دار، وهكذا دار الرأس المنفلق على الجميع يتأملونه، نظر السلطان خلسة إلى الجغتائي المرافق للرسول، فرأى نظرة سخرية نائمة وخيبة لم تكن على عينيه عند دخوله بلاط السلطان، فعرف أنه قد نجا بإحجامه عن القتل من سخرية كبيرة.

أمر بالرسول وجماعته، فنقلوا إلى بيت من بيوت الضيافة ليس إلا سجناً مهذباً، وما إن غابوا حتى أمر بفلق بعض الرؤوس أو الثمار الموسوقة بالكيس، ففلقت ليندلق منها الدم الأبيض، نظر إلى الدم الأبيض في ريبة، فلا بد أنَّ فخاً ما، سخرية ما على الطريق. أمر بجمع ذلك الدم في دورق، ثم أمر بإحضار سجين محكوم بالإعدام، فطلب إليه شرب ذلك الدم الذي سمّوه له شراباً، تذوقه المحكوم بحذر ثم بقبول، ثم انقض على الدورق فشربه في متعة. أمره أن يأكل بعض ذلك اللحم الأبيض الذي سموه في البدء دماغاً، فأكل منه بحذر، ثم في شهوة.

استدعى السلطان سجناء آخرين فاستجابوا الاستجابة نفسها فعرف السلطان أنه قد سخر منه. أمر الوزير باستدعاء الرحالة والغرائبيين، والدراويش، والصوفيين لسؤالهم عن هذه الثمرة الإنسان، وانتشرت الإشاعة في المدينة عن رؤوس بشرية جيء بها إلى

السلطان، وقد حوَّلها السحر إلى رؤوس سرق عقلها ومخها. وكأنها الرسالة تقول للسلطان: أنت مثل هذه الثمار علبة خشبية فارغة ولا مخ.

دارت الإشاعة دورتها ثم وصلت إلى السلطان مملّحة مفلفلة مبهرة، فعرف أنَّ طعنة الجغتائي كانت مسمومة ولا يجوز تركها دون جواب.

حين أخذ نوري يقدّم تقريره للأخيّة التي قضى فيها أحلى سنوات شبابه قبل أن يسرقه الحمام، وحسن الحمام، وتحدي السلطان بالحمام، لم يكن ينظر إلى برهان الدين، ولا إلى الشيخ أحمد، ولا إلى لطفو الطنبوري إذ كان يخاف دائماً من مواجهة العيون تسأل وتتفحص وتستصدق وتستكذب. نظر إلى ما فوق الرؤوس، وأخذ يتحدث عن الجغتائي وعداوته القديمة للسلطان، عن طمعه بأراضي السلطان، عن حلمه بالإطباق على مشرق الأرض ومغربها، عن ألمه العميق أنّه لن يستطيع أبداً أن يكون الخاقان أي السلطان الأكبر، فهو ليس من أحفاد المؤسس الأكبر تيموجين، عن اضطراره لاستخدام لقب الكوركان أي صهر العائلة المالكة التي تهاوت وشاخت كما تشيخ كل الأسر ولكنها ما تزال تحمل الشرف والشرعية التي لم تعطه منها إلا لقب الصهر أو الكوركان، تحدث عن إلحاحه وأمله في حكم مصر والشام فمن حكمهما صار خادم الحرمين الشريفين، ولا حلم له منذ أيس من لقب الخاقان الذي كان وثنياً من أن يحصل على لقب خادم الحرمين الشريفين المسلم، فيشرف بهما على الخاقان الوثني. ولكن العقبة بينه وبين خادم الحرمين الشريفين كان السلطان، حدّثهم عن الرسالة العجيبة الكريهة التبست فيها الرؤوس بالثمار، والثمار بالرؤوس، كان يتحدث كمن يقرأ نصّاً حفظه منذ الطفولة، نصّاً مثل ربع ياسين أو متن البخاري، نصّاً لا تطلب من مخك أن يساعدك على صياغته، بل

على إخراجه من هناك، من الداخل، من القلب، ولكنه انتبه أنه وهو يتحدث مشيحاً ببصره عن الحاضرين كانت عيناه تقرآن ما كتب على الرايات الخضر غير فاهمتين: أنا داخل عليك يا عبد القادر، أنا في عرضك يا كيلاني، خلّك معنا يا قطب الزمان، انظر إلينا يا غوث الزمان.

وفجأة توقف عن الحديث مرعوباً، فلقد أثارته هذه اللوحات وهمس لنفسه في رعب: أعوذ بالله، أفقد عادوا إذن إلى ما كنا عليه قبل قدوم هذا السلطان، عادوا إلى الصوفية التي حرّمها السلطان.

كان السلطان الذي اكتسب كل معارفه عن الناس من صداقته لبرهان الدين، ومن إصغائه للقلم دار، قد عرف أن عدوه الأكبر هو القطيع ومن القطيع الكبش، لذلك حرص ومنذ اليوم الذي نبّهه فيه القلم دار إلى أن ينكب الأمير آخور، ووزير السلطان السابق، وسلاح داره، وصاحب بيت ماله، للإطباق على خزائنهم التي جمعوها طيلة فترة تسلطنهم بالسلطان السابق فنكبهم، كان قد عرف أنّ عدوه وعدوهم المخيف ليسوا هؤلاء الذين نكبهم فقط، ولا أولئك الذين جاء بهم من الغبار، فصاروا السلاطين الصغار، بل الأغنام التي إذا تجمّعت، صارت القطيع له الكبش، وله المرياع، فقال: أضرب الكبش! وضربه، ولكن القطيع ظلّ القطيع! كان يخاف الضياع وينتظر الكبش، فقال اضرب المرياع وضربه، ولكن القطيع ظل القطيع لذلك وحين استشار القلم دار الجديد أشار بتفتيت القطيع. قال: عدو السلطان والسلطنة ما كنت ترعاه، وبه صرت السلطان، قال: تعني الأخيّات، فأطرق إيجاباً في احترام.

في اليوم التالي صدر المرسوم السلطاني، وصودرت الزوايا، ومنعت الأخيّات، ولكن الكباش الكامنة مدّت قرونها وأمرت

بالاعتصام في الجوامع، فاعتصم الناس جميعاً، وتعطّلت المدينة وأشار الوزير الجديد، والقلم دار بالحل الوسط: تعاد الأخيّات، ولكن لما أنشئت من أجله، ضيافة الضيفان وسماع الألحان، وحين احتج البعض بتاريخ الجهاد للوقوف أمام الكفار استجاب لمطلبهم، وأمر بنقلهم إلى الثغور، وإلى السفن ليحاربوا الكفار، ومضوا لحرب الكفار، ولم يعودوا.. وكان للسلطان ما أراد؛ أخيّات للضيفان وسماع الألحان، وحرفيون منحنون على محترفاتهم لا يسألون ولا يجادلون، فحكمتهم هي: هو أعرف بالمصلحة.

ولكن.. تمتم نوري وهو يجيل النظر ثانية في لوحات: مدد يا عبد القادر: هل أطمعتهم رسالة الجغتائي بأن الأيام قد تغيّرت وأن الأوان آن.

وقال برهان الدين ساخراً: إذن فقد اختفت حمائم الجغتائي.

وأطرق نوري برأسه حائراً شاعراً بأن اختفاء حمائمهم كان ذنبه الخاص. وقال لطفو الطنبوري: كأن هؤلاء الناس ليسوا بشراً، هل تعتقدون أنهم بشر. أنا شخصياً أشك في أنهم سَحَرَة، بل ربما جان، أو.. ربما كما يحدث عجائز المدينة من أبناء يأجوج ومأجوج.

واضطرّ نوري إلى أن يعترف لهم بأن هذا بالضبط ما قاله للسلطان مرعوباً مهزوزاً غير قادر على الفهم، فسأله السلطان بلهجته التي تصدي كأنما تعبر جرة أو حقاً مستقراً: ماذا تعني بأنهم ليسوا بالبشر.

وقال نوري: فحدثته عن الطريقة التي جعلت رجالي يراقبونهم فيها على مدار الساعة، راقبوهم من الثقوب المزيَّفة ومن المرايا الشافة تريك مايجري أمامها دون أن يعرف المراقَبُ، راقبوهم عبر الخدم والجواري. قال: لم يكن معهم شيء يا جماعة، لم يكن معهم حمامة واحدة، ولكن ها هي القهرمانة تخبرني بأنّها رأت معهم

حمامتين يغذونهما، وصدمت، وأسرعت أتوثق مما قالت، وكان ما تقول الصدق، فأمرت بمصادرة الحمامتين وإعادة تفتيشهم ثوباً ثوباً وكيساً كيساً، ولكنَّ الحمامتين اختفتا. وحين عدت لمراقبتهم من خلف المرآة رأيت الحمامتين وكبيرهم يطعمهما والحمامتان مستسلمتان كأحسن ما يستسلم الحمام المدرَّب لمدربه.

وقال لطفو: ولكن كيف.

وأطرق نوري محزوناً: وهذا هو اللغز رسالة من رؤوس ثمار، أو ثمار رؤوس، وحمائم تختفي وتظهر كما يحلو لها.

وقال برهان: ولكن معنى هذا أن الرسل ما يزالون على اتصال بالجفتائي ولا بد أنهم أخبروه باضطراب السلطان والبلاط برسالته الكريهة.

فقال نوري: وهذا بالضبط ما أريك السلطان.

وقال الشيخ أحمد: ولكن أين رجالك المكلفون بمطاردة الحمام.

فقال نوري: ليس من حمامة واحدة حملت رسالة إلى الجفتائي، وهذا ما أنا على ثقة منه، فرجالي وصيادو الحمام منتشرون حول المدينة وضواحيها لا يسمحون لحمامة واحدة بالخروج من المدينة.

وتمتم برهان الدين يفكر: ألم تفكروا في أن الحمائم التي ترونها وتختفي ما إن تهاجموها... ليست إلا جزءاً من الأحجية التحدي.

واضطرَّ نوري إلى الإقرار بعجزه، ولكن برهان أكمل: ألم تفكروا في رجال القصر، أما فكرتم أبداً في أن بينهم من يتعاون مع رجال الجفتائي.

وصدم نوري، صدم حتى اضطر للإقرار بعجزه وقلة حيلته، فهاهم رجال الجفتائي يغلبونه مرتين.

وقال الشيخ أحمد: وما تزال الرؤوس الثمار اللغز الحقيقي.

حين تفحص رجال السلطان تلك الثمار الرؤوس البنية المسوَّدة أصيبوا بالذهول، فهي تشبه الرؤوس حقيقة، ولكنها رؤوس بله ليست واضحة الملامح، فهناك شعر وفم وعينان، ولكن... أين الأنوف.. قال ابن السلاخ: أذكر يا مولاي حين كنا نسلخ جلود بعض الأعداء أو المحكومين، ونملؤه تبناً لنعرضه على الناس، أذكر كيف كان يتحول مع الأيام، ويتبدل ليصبح أشبه بالظرف الحيواني منه إلى جلد الإنسان، وقال السلطان ملحاً: ولكن.. أين الأنف.. وفهم أن عليه أن يجد تفسيراً لهذه المعضلة، وفكّر السلطان طويلاً ثم أعطاه بعض الرؤوس ليتفحصها جيداً، وقضى ابن السلاخ ليله يتفحصها، ولما كان الصباح أعلن للوزير متهيجاً أن هناك عبثاً بالثمار، وسأله الوزير مرعوباً: الثمار؟.. أليست رؤوساً بشرية إذن، فقال ابن السلاخ: لا يا سيدي، وأشار إلى ما اعتبروه شعراً ليريه كيف أنهم بخبث مقصود وصلوا الشعر الأصلي بشعر بشري جديد ليبدو أقرب إلى ما اعتادته العيون، ثم أراه الفم والعينين، وأراه آثار الحرق والتحبير: لقد عبثوا بها يا سيدي لتعطي الوهم المبالغ فيه بالفم والعينين، ووافقه الوزير، فلقد اتضّح له صدق ما قال ابن السلاخ؛ ولكن هل اخترعوا هذه الثمار كلها إذن؟.. لا يا سيدي، بل هي طبيعية، وبعضها لم يعبث به فكان الشعر والفم والعينان قريبة إلى الشكل البشري، ولكنها ليست بالبشرية.

لم يقنع السلطان بجواب الوزير ولا بملاحظات ابن السلاخ،

وأصرَّ على الاستماع إلى الرحالة، والغرائبيين، والفقراء من السواح بين أركان العالم. وأخذت الأسئلة تقلق بال النائمين في بيوتهم، أخذت تقلق المطمئنين والراضين والساكنين، والمعجبين بالأمن والسلام لم يحصل عليه آباؤهم. وأخيراً وقف أمام باب القلعة راهب عجوز، جاء محروساً بعدد من الجند، وحين عرف السلطان بوجوده قال للوزير: ولكن لماذا تقلقون راحة عجوز مثله، فقال: مولاي إنَّ لديه قصة يريد أن يقصَّها عليكم، فأمر بإدخاله، وعرفت المدينة كلها أنَّ الراهب العجوز قرياقوس من دير الشيروبيم قد عرف الجواب و.. استعدَّت الآذان في البلاط، وفي المدينة تنتظر ما يتسرب من البلاط، فلا شيء يظل مكتوماً في البلاط كما يعرف الجميع. قال: مولاي، أعتقد والله أعلم أنَّ هذه الرؤوس حقيقية، فأجاب ابن السلاخ بنزق، ولكنَّ نظرة السلطان الساخطة منعته من إتمام كلامه: أهي رؤوس بشر إذن؟

نظر الراهب العجوز من خلال أهدابه البيض وعينيه الكليلتين، وقال: أنا لم أقل إنها رؤوس بشر، ولكن الله بعظمته كان يخلق لنا دائماً ما يريكنا، فهو يحبُّ امتحاننا. فشجر النخيل، هل تعتقد يا مولاي أنه نبات كامل، لا، فهو كالبشر لقد جعل الله منه الذكر والأنثى، ليس هذا فحسب، فنحن إن قطعنا رأس النخلة ماتت ككل حيوان على عكس بقية الشجر الذي يزكو إن قطعت رأسه. وإذن، هل النخل حيوان؟ لا يا مولاي. إنه مخلوق بين الحيوان وبين النبات. الخفاش يا سيدي. أهو طير، ولكن الطيور تبيض والخفاش يلد ويرضع، ولكن أهو حيوان، لا، فالحيوان يمشي والخفاش يطير.

قال السلطان: ليتك أيها الراهب تختصر لتصل بنا إلى هذه

الـرؤوس. قـال الراهـب: ولـكـني أريـد المكافـأة يـا مـولاي.. فقـال السلطان بملل: سنكافئك سنكافئك، قل ما لـديك. قـال: مـولاي، ليست المكافـأة لـي، فأنـا رجل عجوز لم أعـد أستطيع الإفـادة مـن شيء، طعامي خبز وزيتون، ولباسي ما ترون من شعر الماعز، ومنامي ما بين الصلاة والصلاة مسطبة في الدير!

قـال الـسلطان: حيَّـرتني، فمـا تريـد إذن. قـال في حـرج: وضـع متسلمكم يده على طاحون للدير، ومعصرة كان الدير يرتـزق منهـا ويرتفق، فلو أمرتم برفع يده عنها.

نظـر السلطان إلى الـوزير، وقـال: ترفـع يـد المتسلم عـن الطـاحون والمعصرة.. هه.. قل ما لديك.

قال الراهب: في الدير يا مولاي مكتبة فيها كتب عتيقة، كتب مكتوبة بلسان السرياني، وكتب مكتوبة بلسان اللاطيني، وكتب مكتوبـة بلـسان اليونـاني، كتـب لم يعـد هنـاك الـكـثيرون ممـن يستطيعون قراءتها، ولكـني كنـت واحـداً مـن هـؤلاء القليلين. قـال السلطان: وهل وجدت في هذه الكتب مـا يتحـدث عـن هـذه الـرؤوس. أغمـض الراهـب عينيـه المتعبـتين، فلقـد ضـايقه كـل هـذا الـضوء في المكان. قال: مولاي، لم يكن النـاس حمقى والـشهادة لله قبـل قيـام الديانات. قال السلطان بحدة: ماذا تعني. قال الراهب: كانت رومية، وقبل رومية كانت إنطاكية والإسكندرية وبابل وممفيس، وكـان العلم والعلماء، والرحالة والـرحلات، ومـن بـين هـؤلاء جميعـاً كـان هنالك كاتب اسمه لوقا، واحد مـن هـؤلاء الـسوريين الـذين كتبـوا، وسـاحوا، وقرأوا، ورأوا العالم، وكتبوا عن هذه الرحلات.

كـان الجميـع ينـصتون إلى العجـوز في الـسواد واللحيـة البيـضاء واللمَّـة البيـضاء لم يمـسهما مقـص لعقـود. كـانوا ينظـرون إلى الوجـه

الذي جعله بياض البشرة واللحية واللمة المناقضتين لسواد مسوح شعر المعزى ذا تـأثير منـوم. أراد القلم دار الاحتجـاج، الممانعـة، اسـتعادة الانتباه إليه، ولكنه لاحظ انسحار السلطان، فصمت، وقال: حكاية وتنتهي. وكأن الراهب لم يسمع اعتراض القلم دار، فتابع: يحدثنا لوقا وهو بالمناسبة من مدينة سميساط التي اغتصبها ابن عثمان منكم، ثم استعدتموها، فهزَّ السلطان رأسه أنَّه قد عرفها. قال الراهب وقد أعاد إغماض العينين لتختفي الكرتان السوداوان في البقعة البيضاء ويتحدث بتلك اللهجة الرتيبة المنوِّمة. كان المشهد كله، البياض في السواد، والصوت الرتيب الهادئ توحي بشيء واحد، الدعوة إلى الدخول إلى تلك المملكة الجميلة، مملكة النوم البهيجة. ولكنَّ السلطان كان متلهفاً إلى سماع حكاية الراهب، فلربما فهم منها السر الخفي الكامن في رسالة ذلك الجغتائي اللعين. انتبه فجأة إلى أنَّ الراهب كان قد بدأ حكايته عن رحلة لوقا البحرية منذ زمن طويل: نزلوا على الساحل المهجور لتلك الجزيرة النائية، ولكن ما حيَّرهم كانت رائحة النبيذ الفائحة تعوم في المكان، فتساءلوا إن كانوا على مقربة من معصرة نبيذ، فإن كانوا، فهذا يعني أنَّهم قريبون من البشر، وهذا يعني أنَّ عليهم أن يستعدوا، فالبشر كانوا دائماً ينزعون إلى قتل البشر، ومنذ قتل ذلك المغضوب قابيل أخاه هابيل، وأبناء آدم ينقسمون يومياً إلى قابيل وهابيل. وكأنَّ الراهب كان في طريقه إلى الاسترسال، فتنحنح قاضي القضاة سئماً يريد إسكات الراهب لولا الخوف من السلطان الذي ثابر على التحديق في البقعة البيضاء في الإطار الأسود. وتابع الراهب، فقد فهم النحنحة كما يجب أن تفهم: انقسموا إلى مجموعتين، مجموعة تحمي بالسلاح السفينة التي ستكون ملجأهم

إن أراد السكان حريهم، ومجموعة تستكشف المعاصر وأصحابها، فلعلهم يسالمونهم ويبيعونهم بعض الزاد، ويحمّلونهم بعض الماء والنبيذ. ومضى لوقا مع المجموعة المستكشفة، ولكنهم كما يحدثنا كانوا كلّما أوغلوا في الجزيرة ازدادت رائحة النبيذ حلاوة مشوبة ببعض حموضة، وكلما قاربوا الغيضة ازدادت سرعة إقدامهم على ما يعتقدونه المعصرة، فلقد كان نبيذهم قد نفد منذ زمان، والرؤوس متعطشة إلى الثمل. أراد القاضي الاحتجاج، ولكنه تأمل وجوه الحاضرين، فوجدها منجذبة في انسحار إلى ذلك الوجه الأبيض يتلو نصاً من ذاكرة عجوز: .... وفجأة وعند منحنى في الغيضة رأوا ما كانوا لا يصدّقون أن يروه، رأوا نهراً من نبيذ أحمر يتدحرج هابطاً، وعلى الزوايا وسواكن الجدول ركدت تلك الرغوة الشقراء الموحية. وابتسم السلطان، فالراهبَ العجوز خبير في الخمرة، ولكنه كتم بسمته، وترك الراهب يكمل. وما إن رأى البحارة والرحالة هذا الجدول حتى انقضُّوا عليه يكرعون، حاول لوقا صدَّهم، ولكنّه كان كمن يصدُّ العاصفة بجناحي فراشة، فالرجال عطاش والرحلة في السفينة قد طالت حتى قاربوا الموت جوعاً وعطشاً، تقلّب بعضهم في النهر، تلوَّنت ثيابهم بالنبيذ الأحمر، كرعوا منه حتى قاؤوا، وأخيراً ارتموا على ضفة الجدول سكارى مسرعين إلى السكر، فلقد شربوا ما شربوا جوعى، والوحيد لم يشاركهم الشرب كان لوقا الذي تذوَّقه فأطفأ ظمأه، وانتحى جانباً يخاف هجمة عدو. وحين مرَّ ظبي قريب يريد الشرب رماه بسهم ولم يكن بالرامي الماهر، ولكنّه قتله، وأخذ يعدُّ النار فرحاً، ثم سلخ الحيوان في انتظار أن يستيقظوا، وحين استيقظوا وجدوا الوليمة تنتظر، ولكنه لم يسمح لهم بالاقتراب منها قبل أن يحملوا نصيب

أصدقائهم في السفينة إليهم، و.. حين سمع الحراس بنبأ الوليمة تركوا السفينة، وطاروا إلى ما لم يصدقوا بوجوده، نهر من خمر، وظباء لا تهرب من راميها.

طلب الراهب طاس ماء، فقد نشف ريقه، فأمر له السلطان بكأس ماء... وانحنى أحد المماليك الصغار يهمس مازحاً لجاره: لعله يتحدث عن الجنة، وردَّ الآخر هامساً: ولكنَّ الجنة ليست على الأرض.. ردَّ الراهب الكأس شاكراً الله على نعمته، وحمل الخادم الكأس مبتعداً، وأعاد الراهب إغماض عينيه، وكأنَّه في إغماضهما كان ينعش الذاكرة العجوز. وتابع: كانت وليمة غير منتظرة، وحفلة غير معدٌّ لها، وهذه دائماً تكون الأفضل.. وأخيراً ناموا مطمئنين، فلو كان هنالك عدو لأظهره عربدتهم ودخان شوائهم. ناموا وعينا لوقا تراقبان في خوف، فالرحلة رحلته، والبحارة بحارته، والوصول غايته، كان يرفض النوم. ولكنه قبل انبلاج الفجر كان قد انسلَّ إلى مملكة النوم منضمًّاً إلى رفاقه، وحين ربتت الشمس بأناملها على خديه ليستيقظ اكتشف أنهم كانوا قد استيقظوا، وعادوا إلى عربدتهم وتقلبهم في نهر نبيذهم، فصرخ، وهدَّد، وشتم، ولكنهم كانوا منصرفين عنه إلى متعة لم يعرفوها من قبل. أشار لوقا إلى من استجاب لرجائه، وخرج من النهر وقرَّر اكتشاف منبع النهر.. أحنى الراهب رأسه في استسلام. وصمت، واحترم السلطان صمته لهنيهة، ثم تنحنح، فرفع الراهب العجوز رأسه، وأكمل وما يزال مغمض العينين، وكأنه يقرأ ويرى .. هناك داخل الكتلة البيضاء المغطاة بالقبعة من شعر الماعز، وتابع: مضى لوقا وجماعته يخترقون الغابة لاحقين بمجرى نهر النبيذ، وفجأة سمعوا غناء، غناء بشرياً باللغة الليدية، غناءً عذباً يغنيه نسوة شابات

يدعين إلى الفتنة. وجرى البحارة، أولئك الرجال الذين قضوا شهوراً على ظهر سفينة كل شيء عليها مقنّن، الطعام مقنَّن، والشراب مقنَّن، والراحة مقنَّنة، وفجأة يجدون أنفسهم يسعون بين نهر من نبيذ ونساء يغنين في مرح.. تنهد الراهب.. كانت أحبولة الفتنة قد أحسن تدبيرها لهم.. تنهّد ثانية.. ركضوا غير مصغين إلى لوقا الذي لم يستطع صبراً، فلحق بهم.. فجأة وفي فرجة من الغابة رآهن.. صمت الراهب، وصمت الحاضرون في توتر. ولما طال، أو ظنوا أن صمته قد طال تنحنحوا، فرفع رأسه كمن يستيقظ من سبات. قال: كنَّ هناك، كأجمل أدوات الشيطان، النساء، الرأس والصدر والجذع، أما الركبتان فما دون فكانتا جذع كرمة فقط. كانت أصابعهن النحيلة الحمر تحمل خصلاً من أعناب، وكانت شعورهن وأذرعهن تحمل تلك الذؤابات المتطاولة تبحث عن متكأ للجذع الجميل المترنح مع النسمات.

وقف لوقا عند أول الفرجة متجمداً، ولكنَّ رجاله لم يتوقفوا، فقد كانت النسوة الكرمات ينشرن أذرعهن ويغنين داعيات بالإغريقية، وبعضهن بالليدية وأخريات بالآرامية. كن يدعين البحارة المتعبين إلى الراحة في أحضانهن. تردد الرجال قليلاً، ولكنَّ الثلاثة الأجرأ بينهم انقضوا على تلك النساء الكرمات الفاتنات لم يعرفوا نساء مثلهن من قبل، انقضُّوا عليهن معانقين، فأطبقت النساء عليهم بأذرعهن وذؤاباتهن ودلّاياتهن، وفي لحظة تحول أولئك البحارة الخشنون المتلهفون إلى.... شجيرات كرمة.، تحولت السوق فيهن إلى جذوع ما لبثت أن ضربت جذورها في الأرض، كانوا يتحولون أمام عيون لوقا ورجاله إلى نساء كرمات، الوجوه البضة كحبة عنب، والأذرع الطرية كغصينات الكرمة النضرة، والأصابع إلى ذؤابات

ودلّايات، هجم بعض الرجال يريدون استنقاذ زملائهم، ولكن لوقا انقض مشهراً سيفه، حائلاً بينهم وبين تنفيذ رغباتهم. قال: من مسَّهم فسيصبح مثلهم شجرة كرمة إلى الأبد. هل تريدون ذلك، وأحنى الرجال رؤوسهم مستسلمين، وتراجعوا عائدين إلى زملائهم الذين نجوا من قدر نساء الكرمة يحدثونهم عن تلك الأعجوبة من النساء الكرمات الجميلات اللواتي ما إن تمسَّهن حتى تصبح امرأة كرمة مثلهن.

أحنى الراهب العجوز رأسه متعباً، فلقد شعر انه قد قال كل ما لديه، وأجاب على كل الأسئلة، ولكن ابن السلاخ لم يصبر على الصمت. فقال مولاي: ولكنه لم يحدثنا عن هذه الثمار الرؤوس، ما أصلها. أهي رؤوس بشرية، أم ثمار.

نظر السلطان، ونظر الوزير، ونظر القلم دار، والشراب دار، والسلاح دار إلى الراهب ينتظرون إجابته، فقال: مولاي، لعل ذلك الجغتائي الذي قهر بلاداً كثيرة قد وصل إلى تلك الجزيرة، وما هذه الرؤوس الثمار إلا رؤوس تلك النسوة الكرمات إذا قطعت وجففت.

أحنى الحاضرون رؤوسهم غير مقتنعين، فليس هذا هو الجواب الذي ينتظرون. وفجأة رفع الراهب رأسه كمن لدغه دبور، وقال: للحكاية بقية يا مولاي. فهمهم السلطان يحثه على الإكمال. قال: يحدثنا لوقا أنه وقبل أن يستطيع النجاة برجاله إلى السفينة اكتشف أنَّه فقد نصفهم، فقد كانوا جميعاً رغم معرفتهم بأنهم سيتحولون إلى كرمات مغروسة في الطين مستعدين لهذا النصيب في سبيل أن يحظوا بعناقة واحدة مع تلك النسوة الرهيبات، الكرمات.

كانت واحدة من أقسى الليالي على القلم دار، كان يتمنى لو أنه مات ولم يعش يوماً كهذا اليوم. راهب نصراني، كافر عجوز يستقطب رضا السلطان، ويحدثه عن كفريّات مثل نهر من خمر، ونساء كرمات، ولا يعرف الحديث عنها إلى السلطان،كانت ليلة كئيبة تقلّب فيها من فراش إلى فراش، ومن الباحة إلى السطح، ومن السطح إلى الحديقة.

حاولت زوجه التسرية عنه، فطردها، حاولت جواريه بأمر سيدتهن تسليته، ولكنه طردهن. كان يحس أن عالمه، عالم المعرفة غير المحدودة، عالم دار الإسلام الذي لم يترك رحالة ولا غرائبياً إلا استمع إليه فيها قد فقد الكمال، فكيف لم يحدّثه واحد منهم عن هذه الجزيرة اللعينة، كيف سيقابل السلطان في الغد وليس لديه جواب عن أحجية ذلك الجغتائي الذي لم يرسل رسالة من ورق وكلمات، بل رسالة من كرات بنية ملتبسة.. لقد رآها أول مرة رؤوساً بشرية كما رآها الجميع، ولكنه رآها بعد فلقها وتذوق نخاعها الأبيض ثماراً كما أعلن ابن السلاخ. ولكن... أهي كما ادعى الراهب رؤوس تلك الجواري الحسان، فإن كانت كذلك، فأين الأنف، وأين الدماغ. أتراها سقطت في التيبيس كما رأى رؤوساً كثيرة تتحول بعد تعليقها بشهر أو شهرين على أبواب المدينة إلى كرات سود حيث لا أنف ولا شفاه، بل فتحتان للعينين، وفتحة لفم تقلصت عنه الشفاه ونتأت الأسنان.. يجب أن أسترجع قرب

السلطان، يجب أن أجد له الجواب الذي يصفع ذلك الراهب العجوز ويظهر علمه جهلاً.

كان يخبط في الحديقة المنارة بلمسات خفيفة من نور قمر بعيد، كان يخبط، وكان له أن يقع ويتعثر، ولكنها لم تكن المرة الأولى، ولا المئة فقد كان ذلك ديدنه كلما أزقه مأزق، وما أكثر مآزق صاحب السلطان، كان يذكر كلما أحس بأحبولة السخط تقارب خنقه كلمة ابن المقفع التي خطها على لوحة، زيّنها، وحسّنها، ولوّنها حتى طبعها في ذاكرته، ثم أحرقها، فلقد كان مجرد الاحتفاظ بها مقدمة لكارثة، كانت قولة ابن المقفع نبراسه ودستوره (صاحب السلطان كراكب السبع يخيف الناس به، وهو اشد الناس خوفاً منه) كان يخافه، رغم هداياه وأعطياته وملاطفاته إلا أنك إن سألته عن عاطفته الحقيقية، فلن تجد إلا الخوف، فهو لا يعرف متى يدير رأسه إليه وينشب أنيابه، فإذا به الفريسة بعد أن كان الحميم والصديق والمشير.

هو لا ينسى نظرة السلطان بعد حكاية الراهب العجيبة، كان في النظرة شيء من لوم، لا. شيء من شماتة، لا... أف... كانت خليطاً من عتب ولوم وشماتة وسخرية.. أووف.. فإذا ما استخلصت خلاصة هذا كله وصلت إلى أن أيامه في القصر صارت قليلة، فإذا لم تكن القليلة، فهي.. القاضية..

تجمد الدم في عروقه تحت شجرة التوت الكبيرة.. القاضية؟.. وهل في هذا من جديد؟.. إنه يذكرهم جميعاً كل أولئك الذين مضوا وبقي السلطان.. الحلم دار.. والفكر دار.. والعشق دار، وتنهد: مضوا جميعاً وبقي الشراب دار، والجاشنكير، والطشت دار، إنّه يذكرهم جميعاً، وكيف اختفوا فجأة بعد رمقة غضب، رمقة؟..

هل رمقه بعد حديث الراهب بالغضب؟... لا.. لا.. لا.. لم يصل الأمر إلى الغضب.

كانت نظرة عتب، ربما.. كان فيها شيء من سخرية، هه، يحقُّ له هذا ولم لا.. أليس السلطان، ولكن، لا.. لا.. ليس الغضب.

ضرب جبينه فجأة في غيظ، ولماذا أصل إلى الغضب، يجب أن يتوقف هذا الانهيار، يجب أن أكون في الرضا، أنا القلم دار، مشير السلطان، ومؤرخه، وأمير ورقه، وذاكرته، ولسانه، وحلم مستقبله في أن يدخل التاريخ عمر ثالثاً أو معاوية ثانياً، عَلَماً جديداً في النزاهة والحكمة والدهاء، ولكن كيف لم أسمع بهذه الجزيرة، كرومها نساء، وعناقهن تكرُّم وعناقيد وذؤابات.

ضاقت الحديقة بممراتها وسواقيها وبحرتها وأشجارها وصقالات دواليها، ضاقت بأكواخ حبِّها الخفيَّة وأكمات ورودها الجورية. ضاقت بأعشاش حمائمها وقماريها وشحاريرها، ضاقت حتى قارب الاختناق، ففتح الباب السري الصغير ذلك الذي شقَّه يوم كان الفتى وكان أبوه القلم دار التقي، وكان لا بد للشاب العابث من باب سري يتسلل منه إلى بيوت الحبيبات، ثم ينسل عبره إلى البيت وما يزال القلم دار الكبير يصلي قيام الليل. فتَح الباب السري لا يعرفه إلا هو وقهرمانته التي ما تزال بيت سره. انسلَّ إلى الحارات يخبط فيها وليس عليه إلا قباء حرير وخفٌّ من جلد النعام.

خبط بين الحارات المضاءة بفوانيس أمر بها السلطان حتى لا ينسلَّ اللصوص تحت جنح الظلام، خبط في الحارات مطمئناً إلى أنَّ أحداً لن يعترض قلم دار السلطان. كان ينتقل بين الحارات والجادَّات والخطط لا يعرف متجهاً ولا هدفاً، ولكن اللوحة المخطوطة المزيَّنة المزخرفة المحفورة هناك في الدماغ كانت تردد: يخيف الناس به وهو

اشدُّ الناس خوفاً منه. كانت نظرته مزيجاً من سخرية وشماتة، وهل يشمت السلطان بقلم داره؟ هل يشمت السلطان بخادمه؟..

هزَّ رأسه في حيرة، وجاءه صوت أبيه القلم دار العجوز: لديهم القوة، ولديهم المال، ولديهم السلطان، ولكنَّ شيئاً واحداً ينقصهم ويحسُّون بالأسف لفقده، يتظاهرون بأنهم غير مهتمين، ولكنَّهم مهتمون.. إنَّه الشيء الوحيد نملكه ويحتاجون إليه، العلم، المعرفة، ذاكرة الماضي المسمَّاة بالتاريخ، وحقنة ذاكرة المستقبل المسمَّاة أيضاً بالتاريخ.. هل يشمت السلطان بقلم داره؟.. هه.. طبعاً إن اكتشف عجزه وتساويه معه في الجهل ونقصه عنه في القوة والمال والسلطان.. هل كان السلطان شامتاً بي بالأمس، لا.. لم تكن الشماتة فقط، بل كان العتب والسخرية.

كان قرع طبل وحيد خافت يقترب منه، أصاخ، تأمَّل موضعه، يريد معرفة مكانه.. تأمَّل الدكاكين المغلقة والفوانيس المضاءة، وتذكَّر.. إنه سوق الحريريين.. ما أبعد الفارق بين نهار هذا السوق وليله، كان قرع الطبل الوحيد يتعالى ويمتزج بدويٍّ خبطات إيقاعية. ما الذي يجري.. أحدَّ النظر إلى الأمام، فوانيس وأسرجة كثيرة.. ولكن. هذا هو الجامع النوري. ما الذي يجري هناك كان الخبط على الأرض وضربات الطبل تشدُّه إليها كما النور للفراش و.. رآهم. حلقة من بضعة عشر رجلاً يرقصون على إيقاع الطبل، يرقصون وليس لهم من صوت إلا حمحمة خافتة.. أحدَّ السمع فاستطاع أن يميِّز فيها كلمتي هو.. هو.. هو الله، هو، والتي تغيب أحياناً لتصبح هه. ولكن الله كانت واضحة، واضحة جلية مفصصة كفصوص الأترجِّ. اقترب منهم، وكان باب الجامع موارباً، فما الذي منعهم من دخول الجامع، وما الذي أسهرهم حتى هذا الوقت. هو.. يعرف عن

نفسه، خائف مهموم لا يعرف متى يبطش به السبع ويأكله، ولكن.. هم، هؤلاء الفقراء الذين غادروا العالم ليجعلوا من الغربة وطناً، ومن الرحيل إقامة، ما الذي طردهم عن جامع لا يمنع من دخوله أحد، وأسهرهم حتى يذكروا الله هنا في الطريق وعلى إيقاع مزهر وحيد؟

امتدَّت يد فجذبته، ولم يقاوم ليجد أصابعه تشتبك بأصابع لا يعرفها، وتشدُّ على أصابعه فيستسلم لدفئها، وجد ذراعه تتشدُّ فينشدُّ معها، وبهدوء أخذ ينزلق معهم إلى عالم هه هُه هوه الله، الله، الله، الله.

كانت الفوانيس قليلة، وكان الظلام أقوى، وكانت الأشباح تقفز برتابة، ولم يستطع أن يرى الوجوه، أو يتأمل العيون، وكانت عادته تأملُّ العيون مفتاح الروح. صحيح أنَّها خدعته بعض الأحيان، ولكنَّه كان يغلبهم ويدخل إلى سر أسرارهم عبر مفاتيح العيون. ولكن، هه، هه، الله، الله، الكتل السود تركع واقفة ثم تنتصب، ولكن لا وجوه، ولا أفواه، ولا عيون، كتل يتوزعها النور الشحيح، والظل الشحيح والظلمة تأبى الرحيل. وبهدوء اختلط النور بالظلال، بالأشباح المنحنية، اختلط كلُّ شيء بكلِّ شيء، أكان هو التعب، أكان الإرهاق، أكان الخوف، هو لا يدري وكلُّ ما يعرفه أنه فتح عينيه ليجد وجهاً بعين واحدة وأسنان دُرْد يحدِّق فيه في حنان، وحين لاحظ فتحه عينيه همس بصوت بدا خافتاً، ثم أخذ يعلو ويعلو حتى يسمع الحلقة المحيطة وكان يقول: الله.. ممطوطة طويلة وكأنها النداء، طويلة جعلت الرجال في الأقبية المهترئة وعمائم الخرقة المطوية تعلو وجوهاً ليس فيها إلا عين واحدة وأنف مجدوع وأسنان درد. كانوا مخيفين، وكان النور يجلو خفاءهم، وتساءل في سره: أهؤلاء ذاكرو الله في الليل لا يدخلون الجامع. نظر من حوله،

كان ممدداً على سجادة، تحرك في مجلسه قليلاً، فرأى الصقالات الخشبية تحمل الدوالي وتنشر الظلال على ما حول البحرة الكبيرة. رأى الراكعين، ورأى الساجدين، وأخيراً أدرك أنَّه في الجامع النوري فأحسَّ ببرد الصداقة يتسلل إليه ولكنه كرَّر النظرة إلى المجموعة من العور، الهُتْم، الجُدْع، وتساءل من هؤلاء.. وقبل أن تطرف عينه، عرف أنهم القلندرية.

قبل أن يصير السلطانُ السلطانَ، كان محتقناً بأحلام السلطان، ولكن مَنْ مِنَ المماليك من لم يكن محتقناً بأحلام السلطان!
ولكنه كان الوحيد يعرف بأنّه سيصبح السلطان، فلقد بشّره بذلك المنجمون، وبشّره الرمّالون، وبشّره قارئو الأصداف وكعاب العظم. ولكن، مَنْ مِنَ المماليك من لم يبشره بذلك المنجّمون والرمّالون وقارئو الأصداف وكعاب العظم!

كان هناك في القلب شيء سري يقول له: ستكون السلطان، وما عليك لتكون السلطان إلا أن تنتظر وتجعل السلطان يأمن لك، فقد كانت لدى السلطان العجوز عادة تعلمها ممّا وراء جبال قاف وهي عادة خصاء الديوك، فلا يبقى في السرب إلا ديك واحد هو الديك الأب الكبير. كان يراقب من حوله بعيني صقر، وربما بعيني عقاب، وكان حالما يرى فيهم من تضخمت خصيتاه، أو اخشوشن صوته، أو نفحت رائحة نزوه حتى يقوم بالتخلص منه. ولكن من سيكون السلطان والذي ماكَرَ السلطان فَمَكَرَهَ أمعن في الإغراق في الحواري والجواري والمطارب والمغاني، وكان حريصاً طيلة الوقت على أن يشيع هذا وأكثر عنه. كان يعرف أن العاسّين وأصحاب الخبر يوصلون خبره إلى السلطان أولاً بأول.

فيما بعد وحين سيصبح السلطان سيحدث القلم دار عن تجربته تلك، فيقول: ما أصعب التماجن لمن لم يكن الماجن، وما أصعب التصابي لمن كان في قلبه شيء غير الصبوة، ولكنها كانت طاقية الإخفاء يختفي المرء وراءها زمن الخصاء.

في زمن الخصاء وحين نزل من سيصبح السلطان إلى الحارات والجادّات والخطط، حين خالط من سيصبحون رعيته فتعرف على برهان، وتعرف على الأخيّات ولكن ليس من الخارج، ليس الأخيات التي يعرفها السلطان وصاحب الخبر وصاحب الشرطة، بل الأخيّات التي كانت تضم الفتيان، وتهيئ الثغوريين الذين كانوا على استعداد، أو هذا ما ينوونه للدفاع عن الملّة، عرف الطرق الصوفية، وعرف أنّها شكل من أشكال طموح الناس للخروج من ربقة الرعية للدخول في أخيّة الدين الموحِّد، والمساوي للجميع بالجميع، و.. عرف بهدوء أن الأمر أمر زمن حتى يستعيد هؤلاء الناس مقاديرهم، وينفضون عن ظهورهم أولئك الذين اشتراهم السلطان من أقاصي الأرض ليكونوا الذادة، فصاروا السلاطين والقادة، عرف وإن لم يخبر السلطان بذلك. بأنّ الخطر على سلاطين: لقد حزت العرش بسيفك، فتفضل يا ملك الزمان. تفضل يا خوند. هو من هؤلاء المتذكرين مرة بالغناء والطرب، ومرة بالدعاء والرقص، وهه هه، هو الله.

أكل من طعام برهان وشرب من شرابه، واستمع إلى طموحاته وأحلامه، ووعده إن أمكنه الزمان أن يعيد الأمر إلى نصابه، ولكن ما لم يحلم به برهان ولا مشايخ الأخيّات هو أنّ ما فعله من عملوا على أن يكون السلطان حالما استولى على العرش الذي لم يحزه بسيفه، بل بصبره ولبس طاقية الإخفاء. ووعد الأخيّات بأنّه سيكون رجلهم. كان أولّ ما فعله هو البطش بالأخيّات، وما إن مات السلطان العجوز بسمٍّ نفسه حتى هبّت الأخيات والحرافيش وسكان الحارات يدعون للسلطان الذي طالما خالطهم في أخيّاتهم بالنصر. كانوا ينادون: يا منصور، يا منصور، وحاول الأقوياء والباطشون من رجال

السلطان العجوز الوثوب على العرش حسب العادة، ولكنَّهم فوجئوا بالحرافيش ورجال الأخيّات وصغار المماليك يدعون لمن سيكون السلطان بالنصر. ولما كان الطامعون كثيرين، وكان موت السلطان مفاجئاً، فلم يستعدوا، ولم يصفُّوا نزاعاتهم بعد، وافقوا على مضض على أن يكون الماجن صاحب الكرسي. قالوا: شهور ويهدأ الحماس فنتخلص منه، ويحوز العرش صاحبه الحقيقي، ولكن ما لم يقدِّروه، ولم يعرفوه، ولم يحسبوا له حسابه هو أن الماجن العربيد رفيق الحرافيش وخريج الحارات سينضو ثوب المجون عن نفسه ويبدأ رحلة الاغتيالات والسجون سعيداً بتظاهرات فرح الحرافيش أنّه يخلصهم من عدوهم السلاح دار، ومن القاسي الأمير آخور، ومن البيرقدار، ومن الطشت دار. وحين وصل السيف إلى العشق دار وإلى الحلم دار بدأوا بالقلق، ولكنَّ قلقهم لم يطل فسرعان ما انتقل السيف إلى الأخيَّات؟ وحين مضى برهان الدين إليه يعاتبه ويذكِّره قام السلطان بتذكيره بأن للأخيَّات هدفاً واحداً هو الغناء، أو الدعاء للسلطان، ولما كانت الأخيات قد خالفت الشرط فليس أمامها إلا الانفراط أو الرحيل و.. حلّت الأخيات التي جاءت بالسلطان وأغلقت الزوايا، ومنعت الطرق الصوفية المنادية بالجهاد ومن ألحَّ على الجهاد سمح له بالانضمام إلى مدن الثغور يحارب ويجاهد ويستشهد بعيداً عن السلطان ورجال السلطان.

في زمن التخفي اعتاد من سيصبح السلطان أن يراقب السلطان العجوز بعيني بومة فاجأها النهار، وطال الأمر بالسلطان العجوز، طال حتى ظنَّ الناس أنه لا يموت، طال الأمر حتى ظنَّ السلطان نفسه بأنه لن يموت، وحتى لا يموت استدعى الفلاسفة والخيميائيين يسألهم ويستفتيهم عن سر الخلود، فحدَّثه أحدهم عن رحالة عثر

على عشبة الحياة، ولكنه أضاعها، فاهتمَّ بالأمر، وسألهم عن شكلها وأرضها ومنبتها، فعجزوا. وحين ألحَّ دلوه على زهر الماء الذي لا يزهر إلا في الأعماق فجرَّبه، ولم يطمئن. فدلُّوه على زهرة الصحراء التي لا تزهر إلا كل عشر سنين مرة، فجربها ولم يطمئن. فدلُّوه على نبات يعيش كالخلد تحت الأرض ولا يبدي للشمس إلا زهرة تتفتح لليلة واحدة ثم تنطفئ مع نور الصباح وتعود لعتمة العالم السفلي حيث الخلود.. فجربها، وجرب أعشاب البحر وزهور البراكين، جرَّب ثمار الريح، وعش السمندل الذي يستحم بالنار. وأخيراً جاء الراهب المجوسي فحدثه عن مخلوقات تسكن الأجواء العليا حيث تتزاوج وتبيض وتفقس دون أن تلمس الأرض وقالوا: من ذاق لحمها لم يعرف الموت، استدعى الصقَّارين والباشقيين والشاهينيين والعقابيين، استدعى أشد صقورهم وشواهينهم وبواشقهم وعقبانهم، فأطلقوها إلى السماء وأزعجوها بالطبول والصنوج، فعلت، وعلت، وحين قدَّروا أنها كلَّت أصمتوا طبولهم وصنوجهم فعادت، ولكن خالية البراثن.. لم ييأسوا فالجائزة مغرية، .. رضا السلطان، ورضا السلطان فرح الزمان، أطلقوها في اليوم التالي، وأزعجوها حتى اختفت في طبقات السماء، ولكنها حين عادت كان نصفها قد ضاع، أمَّا من عادت، فقد عادت خالية البراثن، وكادوا ييأسون إلا أن صقَّاراً عجوزاً فيهم ألحَّ، وأطلق طيوره بعد تجويعها، فَعَلَت، وَعَلَت حتى اختفت وطال عليها الغياب حتى ظنَّ المنتظرون أنها ضاعت أو هلكت، ولكن حين كان الغروب عاد ثلاثة منها وفي براثن واحد منها سمكة لها جناحان، وطار عقل الصقَّار من السعادة، وحملوها إلى السلطان الذي تأكَّد الآن أنَّ الحياة ليست مقصورة على الماء والتراب، بل هي أيضاً في

الأجواء، وأمر أن تكتب الواقعة في الكتب.

شووا السمكة، وأكلها السلطان بعد جوع يوم وليلة كما وصفوا له واقتنع السلطان أخيراً بأنَّ الخلود ممكن. قضى يومه سعيداً، فلقد صدقت نبوءة الراهب المجوسي الذي قال: من أكل فاكهة السماء صار من أبناء السماء، وأنا الوحيد أكل من فاكهة السماء.

ولكن حين كان اليوم التالي واستدعى السلطان شيخ المنجمين يستفتيه في قدره الجديد، ونشر المنجم بساط رمله، وضرب ونكت، وحسب، واكفهر وجهه، فجمع رمله ونشره ثانية وخططه، وضرب ونكت وحسب، واكفهرَّ وجهه ثانية، فاكفهرَّ وجه السلطان. ولكنَّ الصمت المطبق ورهبة لسان القدر الذي حطَّ على بساط الرمل جعلت الجميع يصمتون مرعوبين متوترين، وأخيراً لم يستطع السلطان امتلاك نفسه، فصرخ متهدجاً: تكلم، قل شيئاً.

وتمتم شيخ المنجمين منهكاً: أحاول يا مولاي.

ماذا؟.. تحاول؟.. وهدر: أنطق رملك أو تخرس للأبد.

فجمع المنجم رمله ونشره وضرب، ونكت، وخطَّط، وحسب، وأخيراً رفع رأسه مستسلماً لقدره.

فحَّ السلطان: تكلم.. هل حزت الخلود؟

وقال المنجم: ربما يا مولاي..

- وما معنى ربما هذه.

- مولاي هناك ثلاثة أيام مريخية إن اجتزتها حزْت الخلود.

- ما معنى هذا.

- في هذه الأيام الثلاثة التي بدأت ليلة أمس سيموت ملك.

- ماذا؟

صرخ السلطان، فصرخت الحاشية وصرخ المماليك وكاد يغمى على المنجم الذي جمع صرة رمله، ولملم أصدافه، وجمع ما تبقى في ساقيه من قوة وتركهم يتجادلون ويتناقشون، وما كاد يصل إلى باب المدينة حتى ركب حماره وهاجر قائلاً: نجوت هذه المرة والله وحده يعرف إن كنت سأنجو الثانية.

انقلب فرح السلطان غمّاً، فمن كان يسعى إلى الخلود صار يخاف الموت السريع، فالرمّالون والمنجمون وقارئو الأصداف الذين استدَعوا بعد اختفاء شيخ المنجمين أجمعوا على أن نحساً كبيراً سيحلُّ على المدينة وأنَّ نجماً كبيراً سيسقط، وأن دوحة عملاقة ستحترق، وأنَّ جملاً بسنام قبة سينكسر و.. عرف السلطان أنَّ شيخ المنجمين صادق.

انتصف الليل ولم يذق السلطان العجوز لقمة ولا نهل نهلة، بل كان يحدق في الجدار المقابل في رعب والنبوءة تلاحقه، سيموت ملك. سيموت ملك.

عند منتصف الليل تقدم الماجن الذي سيكون السلطان، تقدم محاذراً، وقال: مولاي.. أولاً كذب المنجمون ولو صدقوا. فالتفت إليه محمرٌ العينين متسخٌ الموق بالقذى، فلقد آذاه السهر:

- وماذا إن صدقوا.. هل يكذب الجميع؟

- مولاي.. المنجم قال: سيموت ملك، ولكنه لم يعيِّن أي ملك. ونظر إليه في اشمئزاز.. وهناك ملك غيري؟

قال: نعم.

فنظر إليه هذه المرة في غضب: ماذا تعني.

قال: مولاي، أنسيت أسرة الأيوبي، السلطان الذي سبق المماليك جميعاً، ونظر إليه السلطان العجوز بعينين واسعتين غير مصدق: أو

بقي منهم من يدعي الملك؟

قال: نعم.. وأجره الشهري يقبضه ليصمت عن المطالبة بالعرش.

قال: وتظن النبوءة تحيق به؟!..

ففحَّ من سيصبح السلطان: ولم ننتظر حتى تختار النجوم ضحيتها.

حملق السلطان العجوز بعينين زال عن موقهما القذى فلقد أرضته الفكرة، وعاد إليه النشاط، فطلب الطعام وتعشى مع نائب السلطان رجل المجون القديم.

في الصباح التالي فوجئ الأيوبي العجوز آخر الملوك ولا ملك بدعوة السلطان العجوز له إلى الغداء.. أربكته الدعوة، فقد كانت مفاجئة، أربكته، فلم يكن لديه من الثياب ما يقوم بالمناسبة، ولكنَّ زوجه وبناته اللواتي ضاق بهن الفقر والهجر والعزلة ألححن عليه فلعلّه يعود بهدية أو مكافأة تعيد الفرح إلى البيت طال عليه الهجر. مضى الملك الأيوبي الذي لم يعرف ملكاً، ولم يعلُ عرشاً يظنُّ أنَّ الزمان يبتسم له، وما يعرف أن السلطان العجوز قرر افتداء النبوءة به.

كان الغداء أشهى وأثمن مما اعتادته معدة الفقر الذي ألجئ إليه الأيوبي العجوز، ولكنه جارى السلطان، وأكل، وحين آن أوان الشراب قام السلطان العجوز بصبِّ الكأس لضيفه الأيوبي. ولكن، أنت تريد وأنا أريد، والله يفعل ما يريد. فما إن أمسك الأيوبي بالكأس وكان قد أكل حتى تخم حتى أغمي عليه، وضجَّ الخدم والحرس والمماليك، وابتهج السلطان: فها هو ملك يموت، ونسي الكأس على الخوان وأقبل الخدم وطبيب السلطان والحاشية يحملون الأيوبي العجوز، ونسي السلطان سرَّ الكأس! وهناك من يزعم أن من سيصبح السلطان ماجن الحارات والأخيّات قام بتبديل

كأس السلطان بكأس الأيوبي في ساعة الهرج والمرج.. وحين مضى الخدم بالأيوبي محمولاً إلى بيته رفع السلطان كأسه في مرح، فلقد استطاع تحويل سهم القدر عن رأسه.

شرب السلطان الكأس، مات السلطان العجوز، صار الماجنُ السلطانَ في انتظار أن يبت السلاح دار والأمير آخور وشاد الطبلخاناه في أمر مركز القوة بينهم ناسين أنَّ سيف صاحب العرش هو دائماً أمضى السيوف.

والله لو رأينا فيك عوجاً لقوَّمناه بسيوفنا.

كان الشيخ أحمد يخطب سعيداً وهو يفصِّل عن أمير المؤمنين ذلك الذي بادهه الأعرابي معلناً أنَّهم لن يتركوه يعوَّج، فلو رأوا فيه انحرافاً عن الدين لقاموا إليه بسيوفهم يعيدونه إلى الصواب.

كان الشيخ أحمد يفصل ويطنب ويرغي سعيداً، وكان الفتيان ينصتون إليه في لذة واستمتاع ونشوة، وتمتم من سيصبح السلطان: الحمقى. هل يؤمنون فعلاً أنَّ رجلاً جلس يوماً على العرش يسمح لعامي بدوي مبتذل بمخاطبة السلطان بهذا الكلام.

كان من سيصبح السلطان قد مضى إلى زاوية الأخيَّة على عادته ليفاجأ بخلوها، وكاد يعود إلى بيته لولا أن قرر التجول في البساتين القريبة قبل العودة، وهكذا ساقته قدماه وأنفه الفضولي إلى الزاوية السرية يجتمعون فيها حيث لا غناء ولا رقص ولا هه هه هو الله.

أنصت جيداً إلى برهان وأدهشه هذا الدمث الرحالة محبُّ الناس وهو يتحدث عن عمر مكملاً حديث الشيخ أحمد ليقول لقد قال لها: أخطأ عمر وأصابت امرأة.

وتنهد المتماجن الذي سيصبح السلطان، فما حكاية هؤلاء الناس. هل نسوا السياسة. هل نسوا السي ياسه دستور الجغتائي والجغتائيين بكافة تسمياتهم، هل نسوا من السلطان، وهيبة السلطان وجلال السلطان، ولكن قولة الشيخ أحمد رنَّت ثانية. والله لو رأينا فيك عوَجاً لقومناه بسيوفنا، وهمهم من سيصبح السلطان في

سخرية: ولهذا قتله عبد لا يساوي قرشين.

على طريق العودة إلى بيته دون أن يرى الفتيان ودون أن يجعلهم يعرفون أنّه عرف أحلامهم الحقيقية، تمتم: هؤلاء الناس حمقى والأتابك كان على حق حينما قال: هؤلاء البدو والفلاحون لا يصلحون للحكم، هه.. وأكمل المتماجن: ولهذا فلم يطل بهم حكم أبداً، فالأمراء الذين يتغنّون بهم لم يعمروا لأكثر من ثلاثين عاماً وانتهى ثلاثة من أربعة منهم بالقتل، ولو طال الأمر بأولّهم قليلاً فلربما وجد من يقتله، أمّا من يسمونهم بالأمويين، هه، فلم يطل بهم الأمر ليصل إلى مئة عام.. أهناك أسرة حكمت في العالم لأقلّ من مئة عام.. هه معك حق أيها الأتابك، هؤلاء البدو والفلاحون لا يصلحون للحكم. إيه.. تتهد: أين هذا كله من السه ياسه شريعة الجغتائي الأول العظيم تيموجين.

وزع كبير القلندرية عليهم كسرة خبز كسرة خبز، وقام آخر يحمل إليهم جرة الماء الصغيرة منها يشربون. نظر القلم دار إلى المائدة المترفة لم يقربوها وسأل: ـ ولكن لماذا.. والطعام وفير.

قال كبيرهم الأجلح مقلوع العين مجدوع الأنف محطم الأسنان يشير إلى جسده: هذا هو العدو، فهل تقوي عدوك عليك.

وضحك القلم دار: الجسد عدو؟ فمن الصديق إذن؟ وهزَّ الكبير رأسه: أنت اثنان وتظنُّ نفسك واحداً. هذا، وأشار إلى الجسد، وهو ما سيفارقك يوماً، وأكمل: أما الآخر فهو السجين في هذا الجسد، ذلك الذي سيصحبك إلى حيث الحق متبوعاً ومعاقباً بذنوب هذا.

وفهم القلم دار أنّه لن يفيد من حوار هؤلاء الصوفيين إلا إفساد متع الحياة التي يعيش، فقال: ولكنَّ الإنسان في حاجة إلى إطعام هذا ـ وضحك ـ العدو ـ وأشار إلى جسده- حتى لا يخون فنذل مرضى مهانين. قال: ونحن نطعمه ما يمكّنه من القيام بواجبه، انظر يا أخي فأنت أخونا منذ ساقك قدرك إلينا في منتصف الليل. أنت تظنُّ نفسك جئت برغبتك وما تعرف أنّه قدرك ما أيقظك، وأرّقك، وأخرجك من سرير راحتك تاركاً جواري خدمتك وحريم متعتك لتصل إلينا نحن من عرفنا العدو، وأدرنا له الظهر.

لم يكن القلم دار في مزاج المجادل، ولم يكن في حال القبول باختيار هؤلاء الذين رأوا في الجسد العدو، فأخذ يتشاغل بمزج كأس من الحليب بالعسل، كان يتمنى لو أفطروا معه، فلقد رأى

مكافأتهم على العناية به حين أغمي عليه، ولم يجد خيراً من دعوتهم إلى بيته، فإذا بهم يختارون الكسرة من الخبز والشربة من الماء.

تركهم في الحديقة ومعهم تلك المائدة المترفة بأجبانها، ولحومها المقددة، وزيتونها، ومربَّياتها، وقشدتها، وأنواع بيضها، تركهم ومن حولهم الجواري الحسان، والغلمان المشرقون. تركهم والشحارير تطير من حولهم وتحط بينهم تخطف كسرة خبز ورقاقة لحم بين الحين والآخر. تركهم والعنادل والقماري تحطُّ قريباً لدى كل خشخشة من علبة طعامهم.

غمز القيِّم فأطلق الطواويس والإوز العراقي، ثم بادر القيِّم مبالغاً فأطلق من الحمائم أندرها وأكثرها اختيالاً وأرقَّها هديلاً.

أطلَّ عليهم من شرفته المغطاة بمخرمات الخشب، فرآهم وقد أداروا ظهورهم لكل هذه الفتنة وشكَّلوا دائرة يتحصَّنون بها، وأخرج كبيرهم مزهره وعادوا إلى ما كانوا عليه في ليل أمس يرقصون تلك الرقصة الرتيبة ويفحُّون: هو الله، هه، هه، الله، هو الله، هه، هه، هو الله.

للحظة خطر على باله أن يعابثهم، يمتحنهم، يرى قدرة صمودهم. رأى كيف تحلقوا في حلقة كانت الدرع لهم، فها هم في حلقتهم لا يرون إلا هم، لقد قلبوا المرآة التي نصبها لهم، وفيها كل ما يغري الفاضل ويوقظ العدو، قلبوها على قفاها فذكَّروه بثيران التيبت التي حدثوه عنها، والتي حين يهاجمها عدو ولا تستطيع صده تشكل حلقة باطنها أقفيتها وذيولها، وظاهرها قرونها المستعدة لنطح العدو، أما هؤلاء، فقد شكلوا حلقتهم، ولكنهم جعلوا باطنها وجوههم وظاهرها أقفيتهم، فهم يعلنون أن هم المركز، أن هم الجوهر،

وهذا ما يجب مواجهته المواجهة الدائمة، وأنَّ ما عداه لا يستحق إلا القفا. نظر إلى الأشجار المثقلة بحملها والبحرات المترقرقة بمائها الأزرق ومن حولها جواري الهند والسند والصين والصقالبة والفرنجة. نظر إلى الغلمان لم يخشن صوتهم، ولم يطرَّ شاربهم. نظر إلى الطواويس والأوز العراقي تتطاول برقابها إلى الموائد. نظر إلى الببغاوات بألوانها وإلى الشحارير بلمعانها وكهرمان مناقيرها وهمس: ولا يستحق إلا الأقفية يستقبل بها. قال كبيرهم وقد خلا إليه في القاعة: في عينيك حزن وسؤال كبير، وأنا أعرف أنَّه ما أخرجك من فراش نومك ولذيذ حيوانك، أنا أعرف أنك ماتزال خاضعاً لـ هو، ولا ألومك، فالدعوة تأتي من هنا، وضرب على قلبه بكفه، فإذا لم تأت كان ذلك حكمة من رب يريد إدارة العالم ببياضه وسواده، بجوهره وخبثه، بملائكته وشياطينه.

صمت القلم دار فقد كان أبعد ما يكون عن الإصغاء إلى دعوة هؤلاء الناس وهجر المتع الأرضية سعياً وراء متعة يعرف أنَّها خالدة، ولكنْ ما يزال في العمر متسعٌ لها.

قال المولى يضع الكسرة في فمه ثم يشرب عليها الماء لتذوب فلم يكن قد استبقى في الفم سناً ولا ضرساً: تكلم يا أخي. أخرج وحش السؤال من القلب!. ولم يجد القلم دار بداً من إخراج كل الأسئلة التي تتغل في القلب، فحدثه عن رسالة الجفتائي، عن كيس الرؤوس تشبه الثمار، وليست بالثمار، وتشبه الرؤوس وليست بالرؤوس، حدَّثه عن جزيرة ونساء كرمات من عانقهن صار كرمة وسأل في سذاجة: هل تسعد الدالية بكونها كرمة؟ هل يسعد النبات إن كان في جنته كما يسعد الحيوان والإنسان؟

ابتلع المولى تلك اللقمة المنحلّة بالماء واللعاب، ثم شرب شربة

وراءها، ثم قال: في جزء من قلبي كنت أعرف أنَّ هذا سيكون السؤال. وقال القلم دار: كيف؟. قال: المدينة كلها لا تلغو. إلا بهذا الحديث، النساء الكرمات والرؤوس الثمار. قال القلم دار في انكسار: أنت يا من رحلت من عمق الشرق ووصلت إلى بطن الغرب. أنت يا من أذللت الجسد لتوقظ الروح. ألديك جواب؟

أحنى المولى رأسه في حزن، وقال: كان لديَّ جواب ولا أعرف إن كان كل الجواب، ولكن شيخي العجوز علّمني منذ البدء مردداً مقولة حكيم سبقه: لا تطرح جواهرك بين أقدام الخنازير. لا تجب على ما لم تسأل عنه، فليس لكل سؤال في هذا العالم جواب وإلا لكان هذا العالم جنة.

لم يعلّق القلم دار، وترك على الوجه السؤال يردد نفسه ويلحُّ، لم يجادل، فقد خاف انصراف القلندري إلى الإطناب، وأخيراً أكمل المولى بعد طول صمت: بدأ الأمر حين شاخ ملك الهند، شاخ حتى صار يحمل في قفة، ويرضع من ثدي حفيدته، وتضاءل حتى صار يمكن لجواريه أن يحملنه على صدورهن إلى العرش. انهار الجسد والسنون تهير كل متين، ولكن العقل ظلَّ القوي القادر على إعطاء الأحكام الصائبة، والفصل بين المشتبهات. ولكنه هو الملك نفسه سئم طعم حليب الحفيدات وصدور الجواري التي لا تهبه إلا دفء القفا. تمنى الموت في جزء منه، ولكنَّ الجزء الآخر كان يريه شروق الشمس في بهائه وضباب النهر في انسيابه، وغناء العصافير في أصابيحها، واحمرار الخدود في وجوه الصبايا، فكان يقول: ولمن أترك كل هذا الجمال!

كان مقدَّراً له أن يعيش الكثير، وقد قدَّر بعض الحكماء أنَّه ربما عاش لخمس مئة عام ولكن.. أعوذ بالله.. ثلاث مئة وخمسون

عاماً أخرى أرضع حليب الحفيدات وحفيدات الحفيدات، وأحمل على صدور لا أنال منها إلا دفء القفا.. وتقدم الوزير: مولاي، في كتب حكمة الغرب يتحدثون عن طائر عظيم كان سيد العالم، كان القوي والحكيم والعاقل، طبعاً كان هذا قبل أن ينزل آدم إلى الأرض. هذا الطائر يسميه أهل الغرب العنقاء! ورمش الملك بأهدابه فقد كان تحريك الرأس العظيم فوق تلك الرقبة النحيلة عذاباً. رمش يطلب الاستزادة، فقال الوزير: وكان هذا الطائر الوحيد يحكم العالم وحيداً، لا أنثى ولا ذكر، لا فراخ ولا شيوخ.

فتمتم الملك: وكيف بقي على الفناء.. قال الوزير فرحاً بأنَّ الملك قد بذل جهد الكلام: كان إذا ما أدركته الشيخوخة وتساقط ريشه وتصلبت مخالبه عمد إلى جبل عال فانتزع ريشتين من رياشه فحكهما لتشتعل منهما نار تحرق كل ما حولها، فرمى نفسه في النار فاحترق، ومن رماد حريقه تتشكل دودة ما تلبث أن تنمو وتكبر حتى يصبح عنقاء شاباً قوياً حكيماً كما كان.

تمتم الملك: ولكن ما لي ولهذا. أتريدني أن أحرق نفسي لأستعيد الشباب!

قال الوزير: وأسفاه يا مولاي، فتلك حكاية ماتت مع قائلها حين نزل آدم إلى الأرض يحمل معه الموت والولادة!.. فتمتم الملك: فلم حدَّثت بها إذن. قال: لأنهم حدثوني أنَّ هناك في أقاصي الشرق صنعوا شيئاً شبيهاً بما كان يصنع العنقاء. قال: كيف؟. قال: كانوا إذا ما شاخ شيخهم قطعوا رأسه ثم زرعوا في الرأس في قلب الدماغ بذرة ما تلبث أن تنتش شجرة، هذه الشجرة ثمارها الأناسي والبشر، يظهرون على شكل حبة التين تكبر لتصبح بحجم البطيخة المربوطة إلى أمها الشجرة من شعورها، وحين يكتمل نضجها تنبت الذراعان والجذع

والساقان لتصبح بشراً سوياً!

الملك العجوز الذي شبع من حليب الحفيدات لم تخدعه الحكاية، فقال: يبدو أنك أيها الوزير قد سئمت من الشيخوخة وتريد شباباً جديداً، لا باس. سنحقق لك أمنيتك، وهكذا أمر برأس الوزير، فقطع في احترام، ثم قام الوزير الجديد وما يزال الجسد يختبط بدمه بزرع نواة تمر فيه ودفنه قريباً من سطح الأرض، وكلف الخدم بسقاية النبتة الجديدة ورعايتها ومراقبتها، وما إن حال الحول عليها حتى كانت البذرة شجيرة، وما اكتملت السنوات الخمس حتى صارت الشجيرة نخلة وسخر الجميع من الوزير أضاع عمره بحكاية ارتدت عليه موتاً، ولكن حين قدم الربيع وأزهرت الشجرة الجديدة، ثم حملت فوجئ الجميع بثمارها التي لم تكن تمراً.

قال المولى جملته الأخيرة متنهداً وصمت، ولم يستطع القلم دار صبراً فسأل: فما كانت إذن. قال المولى متنهداً: كانت رؤوس بشر حمل الجغتائي إليكم بعضها، فلقد تكاثرت هذه الشجر، وتكاثرت حتى صارت سيدة الشجر وملكة البلاد.

قال القلم دار يكاد يرتجف من الإثارة: وهل رأيتها في منابتها؟.

فهزَّ كبير القلندرية رأسه، وقال: رأيتها. وتابع القلم دار: وكانت نساء أو رجالاً؟ تنهد المولى يقول: بل كانت رؤوساً فقط، فما زرعت البذرة فيه لم يكن إلا رأساً، قال القلم دار: وهل تكلمت؟ فقال: لم اسمعها، ولكنهم حدثوا أنها في الصباح الباكر، وهناك في أقاصي الشرق، وحين تداعبها شمس الصباح تفتح أفواهها وتقول: واق، واق، سبحان الملك الخلاق.

وحمل القلم دار الحكاية إلى السلطان.

قالت دوغوز خاتون كبيرة الجواري والمقربة حتى الالتصاق إلى السلطان وهي ترى شروده وحيرته ونظرته إلى رفوف الحمام البعيدة ترفُّ قبل أن تصهدها الشمس. قالت تهمس: مولاي، إنهم ينتظرون. وتنهد يقول: دعيهم ينتظرون! قالت مع الدلِّ الذي أكسبها إياه طول العشرة: ولكنَّ كلَّ طول انتظار مدعاة لمزيد من القلق.. الناس في الأسواق ينتظرون، وأمام القصر ينتظرون. وأهل الحلِّ والعقد في البهو ينتظرون.. ورسول الجغتائي مع جماعته ينتظرون، والجغتائي هناك في أقاصي الشرق ينتظر، لا تستطيع ترك كل هؤلاء الناس ينتظرون إلى الأبد.

تحول بنظره إليها يتأملها تلقي بخطبتها، تأملها وتنهد في أعماقه: أعوذ بالله، كم كبرتِ وكبرتُ إذن.. وكان هذا صحيحاً، فهي لم تعد الجميلة ولا الشابة، ولكنها استطاعت بحنكة نسائية عالية بعد أن رأت سواقي الإغواء والشهوة تجفُّ عنها أن تتحوَّل إلى الصديقة. حدست ذلك، دون معلم، حدسته مسوقة بغريزة حقيقية. فالسلطان يستطيع أن يحصل دائماً على الحسناوات، ولكل حسناء من هي أحسن منها، ولكل عذراء من هي أكثر نضارة منها. كانت تعرف أنَّ من يملك الحياة والموت يستطيع الحصول على كل شيء، إلا ذلك الشيء النادر الصغير الذي لا يشتريه المال أو الرعب، إنه الصداقة. فقرَّرت ومنذ أن رأته يتحول عنها أول مرة إلى تلك الشقراء الصقلبية ألا تلاحقه بحبها، ولا إغرائها، ألّا تلاحقه بطلباتها

وبكائها، بل تجلس جانباً، وتنتظر فسيأتي الوقت الذي يعرف فيه أنَّ للصداقة مساحة لا يملؤها الحسن ولا الصبا، ولا .. الشهوة..

وكانت على حق، فقد كان يتزوج، ويتسرى، ويؤتى له بالجواري المعلمات والجواري الساذجات، ولكنه كان حين يسأم الجميع يأتي إليها فتحدثه وتنشر برد الصداقة فوقه. وكانت أحياناً تعنف به وقد لامت نفسها في البدء، ولكنها لاحظت استمتاعه بتأنيبها، فأمعنت في ذلك. فكانت تعنف وتصرخ في وجهه، بل إنها تذكر أنَّها في إحدى المرات غضبت عليه، ولطمته، ولكنهما كانا على خلوة فهي تعرف الحدود والواجبات، وتعرف أنَّها لو رفعت إليه بصرها أمام الناس لأمر بصلبها وقلبه ينزف، وهي تعرف أنَّ من حقه أن يفعل ذلك. أفليس هو السلطان؟

قالت تضغط على ركبته في دلال: مولاي، فُكَّه.

نظر إليها مبتسماً، فقد كانت هذه الجملة مفتاح الصداقة بينهما، ونظرت تهزُّ رأسها موحية بالثقة: هيا. هيا، فكَّه.

كان فكُّ الرباط يعني فكَّ قيود القلب، وحلَّ قيود السرية والتكتم القائم بينه وبين الجميع. كان فكّ الرباط يعني التحلل من الخارج، من العيب والحرام والتاريخ والسياسة والرعب، كان فكّ الرباط يعني: دعنا نعد الصديقين قدما في قافلة واحدة معًا وراء جبل قاف. كان فك الرباط يعني: أنت الرجل الأول في حياتي والذي من اجل نظرته القاسية تخليت عن حلم الخاتون، حلم كل حسناء تولد في بلاد الجبال البيض تحمل جارية نضرة، وتتقل بين النخاسين العذراء النضرة لتصل بجمالها الخارق النضر إلى السلطان، فإن استطاعت إغواءه كما يجب صارت الخاتون. ولكنها من أجل نظرته القاسية يرمقها على المحمل بين الوقفة والأخرى تخلّت عن أمنيات

الأم ومباركات الأب، تخلّت عن نظرات الأمل في عيون الإخوة والأخوات الصغار: سترحلين إلى الجنوب، إلى مصر لتصيري كما الوعد امرأة العزيز فلا تنسَيْ أولئك المساكين الذين لم يحظوا بحظك، وظلوا في بلاد الجليد والبرد ينتظرون منك الرسالة: تعالوا إلى أرض النيل والنخيل. تخلّت عن كل أولئك المنتظرين، واستجابت في غفلة من اللالا والياسرجي والحراس، استجابت لنظرته الجارحة، واتفقا على أن يصبح السلطان وتصبح الخاتون حين يصير.

قالت: مولاي.. فكّ رباط القلب، وحدثني ما الذي يشغلك، وما كانت مثل هذه الرسالة لتشغلك فيما مضى. همهم قليلاً كمن يزّيت حلقه، قال: ما أحلى تلك الأيام حين كان كل شيء جلياً، لا التواءات ولا أقنعة. وصمتت زامّة شفتيها في رسالة يفهمها جيداً: أكمل، فلم أفهم.

قال: منذ سنين وسنين طويلة ربما لم تعد الذاكرة تستطيع استدعاءها بسهولة، ولكنها تفيق الآن نضرة.

حين حمل النخاس معه من سيصبح السلطان، ذلك الفتى ابن الرابعة عشرة الممتلئ عضلات لرجل في العشرين، حين حمل النخاس معه ذلك الفتى لم يكن في حاجة إلى قيود ولا أقفاص كما يشيع بين الناس، بل كان هو من طرح نفسه على النخاس: خذني إلى حيث الوعد!

وحتى الأب حين قبض ثمنه دراهم معدودات لم ينفقها على بيته، ولم يدّخرها لليوم الأسود، بل فرّقها على الفقراء صدقة وأجراً وأملاً في أن رحلة الولد ستكون رحلة السلطان، فالكل يعرف أنهم هناك في أقصى الجنوب، هناك حيث الشمس لا تغيب والنهر لا ينقطع، هناك كان الأمل الكبير. طفل يقدم من بلاد الجبال والثلج يحمل

مسكيناً مشترى بدراهم معدودات كما حملوا يوسف فيما مضى ليجدهم على أبواب المدينة يستقبلونه ليصبح في قابل الأيام السلطان، فإن صار وتغيَّر الحظ كتب إلى الأب والأم والإخوة والأقارب أنْ تعالوا إلى أرض الوعد!

قال: أدرك الياسرجي إخلاصي، وتطلعي إلى الوصول إلى أرض الوعد التي كتبوا على بابها: أدخلوها بسلام آمنين، فجعلني مساعده. وهكذا كنّا نمرُّ على المدن والقرى تسبقنا الطبول والرسل: قافلة مصر في طريقها إليكم! فكانت الأمهات تزين بناتهن والآباء يدربون أبناءهم على فنون القتال انتظاراً لمثل هذا اليوم.

زمَّت شفاهها ثانية، فهي لم تفهم، فأكمل: ما ذكرني بتلك الأيام البعيدة هو أنَّ أسوأ ما كان يصادفنا في رحلتنا تلك هي الجارية أو الغلام لا يحمل لافتة بسعره الذي يريده له الأبوان. فالجارية التي يعلق أهلها إلى صدرها لافتة الألف دينار والذي يبدو رقماً هائلاً كان أمرها سهلاً، فالسعر واضح. ادفع واحمل، أو أدرْ ظهرك وامض ودعنا نعدِّل السعر حتى دورتك التالية. كان الأمر سهلاً، وكنّا ندفع ونحمل. فالأموال المرسلة مع الياسرجي كانت أكثر من كافية، ولكنَّ ما كان يزعجني، ويزعج الياسرجي، ويزعج القافلة كلها كان الغلام أو الجارية تقف في السوق ولا سعر على صدرها، كان أمراً محيراً. فماذا يريد هؤلاء الناس ثمناً لهذا الغلام أو الجارية؟ هل يعرفون قيمته الحقّة. هل يريدون خداعنا، أم يطلبون خداعهم، هل يريدون البيع أصلاً، أم أنهم لا يريدون إلا التدلل على الجيران؟ انظروا. دفعت قافلة السلطان في فتاتنا ألف دينار ولم نبعها، بل احتفظنا بها من أجل ابن عمها الفقير راعي الماعز، نحن قوم شامخو الأنف.

كنت أتشاءم، وكان الياسرجي يتشاءم، بل حدث أنّا أهملنا قرية بأكملها لم نشترِ منها جارية ولا غلاماً بسبب جارية لم تكن الخارقة الجمال ولم تكن الدميمة، ولكنها لم تكن تحمل سعراً، فعدنا أدراجنا، وتركنا أهل القرية يعاقبون البنت وأهلها على حرمانهم من فرصة قافلة لن تعود قبل خمس سنين.

و.. أخيراً نطقت. قالت: لم أفهم.. فتنهد محروقاً وقال: هذا الجغتائي اللعين... ما الذي يريد... ما الثمن الذي يطلبه... ما القلعة التي يريدها... ما المدينة التي يريد فتحها... ما الحرب التي يريد شنّها... هذه كلها جوار أعرف ثمنها، ولكن... يا إلهي.. كيس ورؤوس بشر من نبات، أو نبات من بشر، ورسل خرس لا يقرّون بما يريد، أو.. وهذا هو الأرجح لا يعرفون ما يريد... لقد أرّقني اللعين، أرّقني برسالته اللعينة هذه.

قالت وهي تنتصب: مولاي. الأرق هو الرسالة.

فنظر إليها طويلاً، وعرف أنها قالت الحق، فقال: ولكن. ما الجواب على هذه الرسالة؟

هذا هو الجواب، وليست تلك الحكاية السخيفة عن النساء الكرمات لا يعرف إلا الله سبب وجودهن، ولا كيف وجدن، ولا الام سينتهي بنو آدم معهن لو ظللن في تلك الجزيرة يعتصرن الخمر من أناملهن وينشرن أذرعهن البضة يدعين الرجال من البحارة والرحالة الضائعين إلى أحضانهن.

كان القلم دار في واحدة من حالات نشوته النادرة. فها هو يحمل الجواب الحقيقي إلى السلطان، ها هو يحمل جواب كبير القلندرية المتصوفين الوحيدين الذين استبقاهم السلطان، وكأنه كان يعرف أنَّ مشكلة عويصة ستجابه الأمة، ولن يعرف جوابها إلا هؤلاء القرْع العوْر الهتْم. ولكن، فجأة توقف القلم دار في نهاية الحارة فتوقف الموكب جميعاً ينتظرون كيف يتحرك ليتبعوه. توقف إذ دهمه سؤال يبدو مضحكاً، ولكنك إن تمعنت فيه لم تجده مضحكاً: هؤلاء النساء الكرمات كما وصفهن لوقا وقرأ عنهن الراهب كنَّ بمعظمهن رجالاً عانقوا نسوة، فتحولوا في لحظات إلى نساء كرمات. حسن، نحن نقبل بفكرة أن يمسخوا إلى أشجار كرمة، فالله قادر على كل شيء، ولكن ماذا عن عقولهم؟. ماذا عن ذاكرتهم؟ هل مسخت أيضاً ليأخذوا في التفكير والشهوة كالنساء؟..

ضحك القلم دار وهو يفكر في هذا: هل يمكن لهم أن ينسوا دورهم الذكري ليصبحوا النساء المتقبلات للذكور.. لا.. لا. في قصة

الراهب شيء من الاختلاط، ثم سأسأ: ولكن... ما للراهب العجوز وهذا؟ إنَّه ينقل رواية الرجل الذي سماه لوقا.. مضى القلم دار في اتجاه القلعة: لا. حكاية كبير القلندرية أكثر معقولية، وأكثر منطقية، بل إنَّ الراهب نفسه يؤيدها، أفلم يحدثنا عن الخفاش ذلك المخلوق الواقف بين مملكتي الحيوان والطير؟ ثم ما يدريك لعل الخفاش أصلاً نتيجة زواج غامض في زمن غامض بين مملكتي الحيوان والطير.. أف.. رأس بشري وبذرة تمر، والنتيجة هذه الثمرة العجيبة المتقلبة بين رأس النبات وبين الثمرة الإنسان.. حسن.. إذا كان الجفتائي قد عثر على هذه الثمرة، وأرسلها للسلطان، فلماذا؟. أهي لمجرد المداعبة. تسؤ... تسؤ... لا... الجفتائي أخبث من هذا.. هل هي الأحجية يباري بها عقول رجال السلطان؟. لا.. لا.. الجفتائي رجل الدم، ولا يمكن له أن يهبط إلى هذا النوع من المباريات يقوم بها الملوك المتبطلون والسلاطين المرتاحون حيث لا غزو ولا خوف ولا دماء، أما الجفتائي؟... ما الذي أراد؟ ما الذي يريد؟ ما الذي يخطط لفعله؟

انحرف الموكب الصغير فجأة، فملأت القلعة العين والنظر وحجبت الجبل بعظمتها، حجبته بأبراجها المتحدية، وطلاقاتها الكثيرة، وشراريبها ذات اللمسة الأنثوية في تثنياتها وتقرنصاتها.. ولكن.. ما الذي أراد الجفتائي إذن بهذه الرسالة المسمومة لم تترك راحة لمرتاح في المدينة منذ انفتح الكيس، واندلقت الكرات البنية.

اقترب الموكب من القلعة والقلم دار موزع بين الفرح للحصول على الجواب وبين القلق من أنَّ المطلوب ليس الجواب على السؤال، بل المطلوب.. ربما .. ربما كان القلق، ولم لا، أليس القلق غرضاً ومكسباً للعدو، كان الحمار القبرصي المسمَّن ليريح راكبه يتقدم

حين أحسَّ القلم دار بفوضى قليلة مفاجئة وهمسات، وتوقف بعض رجال موكبه، فتوقف: ما الأمر؟ نظر إلى حيث كانوا ينظرون، فرأى البيرق الأحمر يرفرف عالياً فوق القلعة، فانصدم.. ما معنى هذا. هل قرر السلطان إعدام الرسول.. لا.. لا يا رب لا تمكنه من هذا، فنحن في غنى عن المآسي التي سيسببها إعدام الرسول. لا.. اللهم... أَعِدْ بعض الرشاد إلى عقل السلطان، فلا يغرق في هذه الحماقة ويغرقنا معه، قتل رسول أعزل؟ قتل سيستدرج قتل المئات والآلاف وربما عشرات الآلاف، تدمير المدن، وإحراق البساتين، واستباء الرجال والغلمان، واغتصاب النساء والعذارى. ليس المهم المنتصر، فكلا الجانبين المتحاربين سيصنع الشيء نفسه. سيحاصر المدن ويحرقها إن تمكن، سيدمر البساتين، ويردم الآبار إن تمكن. أية سخرية تحكم هذا العالم، آلاف، مئات الآلاف، ملايين من البشر تشقى وتتعب في بناء البيوت وعمارة المدن، وحفر الآبار وشق مجاري الأنهار، في زراعة الأشجار وتربية الأطفال وإعمار الأرض. ما الذي يحرك فجأة واحداً من هؤلاء الأطفال فيصبح الظمأ الأبدي إلى الدم، حدثونا كيف فعل هذا الجغتائي بأصفهان، المدينة المسلمة، فلا عذر في اختلاف الدين أو اختلاف الرب، حدثونا كيف أمر بعد فتحها الثاني بقتل سكانها جميعاً.. أعوذ بالله، أي عذاب قاسى جنود هذا الجغتائي لتنفيذ أمره. ألف ألف من السكان عليك أن تذبحهم بيدك المجردة، بسكين ربما كانت مثلومة أو ستنثلم أثناء اصطدامها بالرغامى وعظام الرقبة. ألف ألف من رجال ونساء وأطفال، تعب الآلاف من الرجال والنساء، حتى أنجبوهم، ثم يأتي هذا الجغتائي. ولمجرد الكبرياء والغرور في أنَّ أمره لم يطع فيأمر بذبحهم جميعاً. حتى لجأوا إلى كبراء الجغتائي يرجونهم التوسط

لديه، فلعله يعفو عمن بقي، فيشيرون عليهم بنشرالرضع من الأطفال عراة ممددين في طريق موكبه، فلعلّ الأب فيه يرقّ. فلما كان الصباح التالي، وكان في موكبه سمع تضاغيهم وبكاءهم، فسأل عن حكايتهم، فقالوا:

عتقاء سيفك، وأيتام رحمتك يرجونك أن تعفو عن آبائهم وأمهاتهم.

نظر الجغتائي إلى الكتل الطفلية تتقلب وتبكي، تلك الكتل التي حملتها أمهاتها تسعة أشهر من عذاب وأمل، سمع تضاغيهم وكانوا يأملون أن يتحرك الأب فيه، فيرقّ، ولكنه لم يتردد، بل أشار برأسه، فمضى الموكب بخيله وبغاله وفيلته يمشي فوق ذلك البساط من الأطفال الذين كانوا قبل قليل يتضاغون.

نظر إلى البيرق الأحمر، ورفس حماره يزيد من سرعته، فلعلي أستطيع التدخل لدى السلطان فلا يعدم الرسول ويجرّ الويلات. سيقول: سننتصر، وسأقول: بل الحرب من سينتصر، الحريق والموت والقتل والخراب والاغتصاب من سينتصر. سأقول إن هؤلاء الجنود المزيّنين بريش النعام، وحرير حلب، وسمّور الشاشان، هؤلاء الجنود الذين يرتعدون لرمقة عين منك، ويحمرّون لنظرة جارية تعبر، فترفع البرقع وتبدي عيناً وتخفي أخرى في مكر، هؤلاء الجند أنفسهم ولا تدري كيف يتحولون، فهم من سيقتل الطفل، ويبقر بطن الحامل، ويغتصب الفتاة ذات الأعوام الثمانية. وتتهد في أسى: أعوذ بالله، ما الذي يغيّرهم من حال إلى حال. ثم ألحّ السؤال: هل الجند كالخفاش نتاج زواج غامض في زمن غامض بين البشر وحيوان ما، ربما كان الضبع.

انفتح باب القلعة الكبير، فسرى الهمس والتمتمة والتهيج بينهم، فالراية المغولية المعلقة أسفل راية السلطان كانت كافية لجعل الحدادين والسيوفيين والرخّامين والدلالين يتركون معايشهم ساعين وراء فضولهم والإجابة عن الأسئلة التي تؤرق المدينة.

انفتح باب القلعة الكبير، ودوت الدبادب والطبول، فانشقّ الناس صفّين يتوقعون خروج السلطان، وقد آن له أن يخرج، فمنذ شهور لم يغادر القلعة، ولم يسافر إلى مصر، فسرت الشائعات عن مرضه، وسرت عن سفره سراً إلى مصر، وسرت عن تحضيره لحرب كبيرة ضد الجغتائي. ولكنّ كل شائعة كانت سرعان ما تموت حين يدحضها دليل صغير أو شائعة أخرى وأخيراً قضى على الشائعات كلها رسالة الجغتائي.

قال لطفو للشيخ أحمد مفخِّماً مخارجه حين يتحدث إلى الشيخ أحمد: أتظنُّ أنه سيخرج إلينا ليزيل عنا الغمّة.

ونظر إليه الشيخ أحمد في سخرية اعتادها حين يتحدث إلى لطفو وتمتم: لنرج الله، لنرج الله.

وقبل أن يتطور الحوار بينهما خرج شاد الطبلخاناه برياشه، وحريره، وفراء سموره، ونطاق سيفه المذهب، وحصانه المسرج بالحرير والفضة. خرج يتبعه فرسانه، وتوتر الناس يقفون على رؤوس أصابع أقدامهم، فما لرؤية شاد الطبلخاناه، ولا لرؤية الألفي، ولا لرؤية أمير الآخور، ولا لرؤية السلاح دار تركوا معايشهم وجاءووا.

لم يكن الفضول ما دفعهم إلى التحلق حول باب القلعة فقط، بل كان الرعب والوجل والترقب، فذكرى الجفتائيين كانت دائماً ذكرى الجماجم المكوّمة والرعب المقيم، كانت ذكرى الموت المجاني، والاغتصاب المجاني، والحريق المجاني، والخراب المجاني.. كانوا يعرفون أنَّ الجفتائيين أنفسهم لا يعرفون لماذا كانوا يقومون بكلِّ هذا القتل والحرق والغصب، كانوا وكأنما مسَّهم سحر فاسقط عنهم قشرة الإنسان من الشفقة والرحمة والتعاطف وكلّ ما استطاع الإنسان أن ينميه خلال قرون اللغة والمحراث.

كانوا. والبعض أعلنها بقسوة أيام قدوم ذلك الوحش المسمى هلاوون، كانوا يقولون إنهم يأجوج ومأجوج وقد خرجوا من وراء السدِّ الذي بناه عليهم ذو القرنين. كانت الأخبار تتسلل وتتذكر أن الاسكندر حين مضى إلى الشرق البعيد يحاول توحيد العالم وجد الكثير من المشتركات بين أرسطو وبوذا، وارسطو وحمورابي، وارسطو وموسى، وارسطو وأخناتون، وأرسطو وعلماء الفلك العظام من بابل ومصر وآرام، فقال: دعونا ننهي الحروب بين أبناء البشر ونصنع الجنة على الأرض.

لم يجد مقاومة كبيرة، بل يقال إنه لم يجد مقاومة أصلاً في الشام ومصر وبابل، ولكنَّ المقاومة التي لم يستطع فهمها كانت من أولئك الناس العجيبين الذين يقال إنهم كانوا ذوي آذان ضخمة واحدة منها وطا، والأخرى غطا، ويقال إنهم كانوا أقزاماً، ولكن كثرتهم بلا نهاية كانت كافية لدرء كل هجوم ضدهم، ويقال إنهم كانوا العماليق فلا تدركهم الأبصار، ولما عجز الاسكندر عن إدخالهم جنة وحدته العالمية قرر إقامة سور يفصل بينهم وبين أبناء البشر، وصرخ الناس مع قدوم الجغتائي الأول: من كسر السور،

وأخرج يأجوج ومأجوج من محبسهم ليدمروا أرض البشر؟

خرج الألفي وريشة عقاب فوق خوذته، ثم خرج الطبلخانات، ثم خرج أمراء المئات، ولكنَّ السلطان لم يخرج، فأهملت العيون الأمراء وتشبثت بالباب تنتظر المفرج الأكبر، السلطان. أهملت العيون الأمراء والفرسان، فلم تلحظ حركة الالتفاف العريضة يقوم بها الفرسان، فإذا بالواقفين أمام القلعة وقد صاروا ضمن أنشوطة الفرسان الذين أشهروا رماحهم، وأخذوا يسوقونهم إلى القلعة.

توتروا قليلاً، وارتبكوا قليلاً، وذعروا قليلاً، فمالهم وللقلعة وسراديبها ودهاليزها وليالي رعبها، مالهم وللسلطان والأمراء والألفيين، ورؤساء المئين، بل ما لهم وللجفتائي ويأجوج ومأجوج، فما يطلبون أقل من هذا بكثير، إنهم لا يطلبون إلا عشاء يومهم وسقف ليلهم و.. بعض الفضول لمعرفة ما يجري، ولكنَّ رؤوس الرماح أخذت تنخسهم، وأخذوا ينساقون إلى الباحة الكبيرة للقلعة.

علا صراخهم وولولاتهم وحزنهم وخوفهم، فدخول قلعة السلطان كان دائماً مخيفاً. ما الذي يريدونه منهم، ما الذي تريدونه منا، أخذوا يصرخون: نحن أبرياء، والله العظيم أبرياء. لم نؤذ أحداً، لم نسرق أحداً، لم نقتل أحداً، ولم.. لم.. ولم.. حتى نشتم السلطان ولكن النخسات توالت، وإذا بهم جميعاً في مواجهة السلطان.

ارتعب الجمعان حين اصطدما علىغير توقع، جمع القلم دار، وقاضي القضاة، والسلاح دار، والشراب دار، وخواص السلطان، وجمع العامة، والسوقة، والدهماء، والحرافيش الذين انتهى بهم النخس ليجدوا أنفسهم في مواجهة من لم يكونوا يجرؤون، ولا يجوز أن يجرؤوا على النظر في عيونهم. رأوا السلطان فأصيبوا بالرعب، فرؤيته كانت دائماً نذيراً بكارثة. عرفوه، فالحرس من حوله

كانوا كافين للتعريف به، عرفوا القلم دار، وعرفوا السلاح دار وعرفوا الشراب دار، وعرفوا الطشت دار، وعرفوا الألفيين، فقد كان لسياطهم ونخسات رماح مرافقيهم علامات لا تترك مجالاً لنسيانهم.

انطلقت الدبادب تزن في تواتر جعل الجميع يتوترون، فهم يعرفون أن تواتر الدبادب لا يمكن إلا أن يتلوه حدث عظيم، ترى ما الذي يعدُّه لهم السلطان. وهمس لطفو للشيخ أحمد: سيصلبونه، سيصلبونه، وتمتم الشيخ أحمد اخرس، لا سمع الله منك. وأراد لطفو أن يؤكد أنَّ هذا الجمع لا يمكن أن يتمَّ إلا إذا أراد السلطان صلب رسول الجغتائي، فهذا هو الأمر الوحيد يسمح لهم فيه بدخول القلعة، ورؤية السلطان، وحاشية السلطان رأي العين. وفجأة انتصب واحد من هؤلاء الذين يحلو للقلم دار أن يسميهم العامة، فركع على ركبته أمام السدة السلطانية، لم يأمره أحد، ولم يطلب إليه فعل ذلك أحد، ولكنه فعلها، وحين فعلها صار فرضاً على الجميع أن يفعلوها، وإلا اعتبر امتناعهم ازدراء للسلطان، ومن يجرؤ على ازدراء السلطان، و.. ركعوا.

انشقَّ باب صغير واندفع يتهادى رجال في ثياب لم يألفها الناس، ولكنَّ العيون الضيقة والشوارب المتهدلة جعلت لطفو الذي لا يستطيع الصبر يهمس للشيخ أحمد: إنهم رسل الجغتائي، سيصلبهم، سيصلبهم. وانتبه الشيخ أحمد إلى رائحة اللذة الفائحة من كلمات لطفو، وتمتم لنفسه: الأحمق. إنه سعيد بصلبهم، ولا يعرف أي باب لجهنم سينفتح بصلبهم، ثم تمتم بصوت مسموع: رب امنع السلطان من ارتكاب مثل هذه الفعلة.

اصطفَّ رسل الجغتائي كما أشار إليهم الحاجب في مكان بين

رجال هيبة السلطان، وبين رجال مبتذل السلطان، اصطفُّوا ليصلوا بين جمعين لم يكونا ليجتمعا أبداً. اصطفُّوا، وكان الجغتائيون الجسر بين الدهماء وسادة الأرض. ورغم أن واحداً من الجمعين لم ينظر إلى الآخر فقد تركزت أنظارهم جميعاً على رسل الجغتائي الذين كانوا ينظرون إلى الأمام في صلف. لم يجثوا كما فعل الحرافيش، ولم تظلِّلهم المظلات كما فعل الأمراء، بل اكتفوا بالنظر إلى الشرق البعيد، وكأنهم كانوا يلتمسون من هناك الفخر والعزة.

أشار السلطان بكفه المثقلة بالحناء والخواتم إشارة خفيفة لم يكن لأي منهم أن يلحظها لولا أنَّ عين الحاجب كانت على يده تنتظر الإشارة، فالتفت بكامل جسمه إلى الوراء وصرخ: هدايا السلطان، وسرعان ما اندفع أحد الحجاب يحمل كيساً نثره أمام أقدام السلطان، وانصبت أنظار العوام على الكتل البنية ذات العيون المنطفئة والشفاه المسودة، وهمهموا متراجعين إلى الوراء في رعب، وقال لطفو: إنها هي. إنها هي، وقال الشيخ أحمد يرمقها في تشف: إنها الثمار الرؤوس.

فجأة اخترق الصمت المريع الذي أناخ على الجميع ينتظرون ردَّ السلطان، فالقاضي صمت، والقلم دار صمت، والألفي صمت، وشاد الطبلخاناه صمت، والسلاح دار صمت و.. العوام أيضاً صمتوا. اخترق هذا الصمتَ الذي كان من الممكن لمسه باليد، فلقد تحول إلى شيء شبيه بالزجاج، صحيح أنه لا يرى، ولكنه قاس حتى الإدماء، هذا الصمت اخترقه واحد من الحرافيش حين شقَّ الصفوف يقفز في حمية حتى وصل إلى المساحة الخالية بين الحرافيش وبين الأمراء وبين رسل الجغتائي، ونظر إليه الجميع يتساءلون في ترقب:

ماذا سيفعل؟ وتمتم البعض متوجساً: أية عقوبة سينال على هذه الجرأة، وبسرعة وقبل أن يتحرك الحراس والعسّاس كان قد استلّ سكيناً لم يعرف مبلغ حدتها حتى رأوا الرأس ينفصل عن الجسد، ويرتمي تحت أقدام السلطان.

كان الموقف سريعاً، أسرع من قدرة المراقبين على التفكير والتفسير والتساؤل. ثم كان الدم، الدم الغزير اندفق من الجسد بلا رأس، فشغلهم عن التفكير فيما قاله قبل أن يضع السكين في رقبته وهو يصرخ: روحي فداؤك أيها السلطان، روحي وروح أبنائي فداء نعلك أيها السلطان.

استقرّ الرأس عند أقدام السلطان وبقية من دماء ما تزال تنزّ منه فقد مشى الجسد خطوتين في اتجاه رسل الجغتائي قبل أن يسقط وهو يرشّ عليهم دمه، فالتفت السلطان في ارتياح إلى رسل الجغتائي وقال: أيفعل هذا أحد عندكم؟

وقبل أن يترجم المترجم للرسل ما قال السلطان، تابع السلطان في فخر: هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم في محبتنا.

بدا الفخر على وجوه القلم دار، وقاضي القضاة، والأمير آخور، والسلاح دار، فلقد شعروا أن السلطان قد أفحم الجغتائي؛ فإن أرسلت إلينا رؤوساً ثماراً، أو ثماراً رؤوساً، لئن ظننت أنك تخدعنا بلعبتك السخيفة تلك فلدينا الجواب المفحم.

فهم رسول الجغتائي ما قال السلطان، وفهم رجال الجغتائي ما قال السلطان، وعندئذ التفت الرسول بوجهه الأصم إليهم، وهمس همسة واحدة، فإذا بأحد رجال الجغتائي يتحرك إلى الأمام تحت الأنظار المترقبة والمتحفزة لسحقه فوراً لو تحرك باتجاه السلطان أو الحاشية. ولكنه لم يكترث بالسلطان ولا بحاشية السلطان، بل

صرخ موجهاً الكلام إلى رسول الجغتائي، وأخذ المترجم يترجم: ليتصور الكوركان العظيم، سلطان الجغتاي الكبير، سيد البرور السبعة، وملك البحور السبعة، ليتصور أنَّ أمي لم تحمل لعام واحد.

وقبل أن يدركوا ما سيفعل كان الرسول قد وضع السكين في رقبته، وقبل أن ينقضوا عليه ليمنعوه كان الرأس قد صار عند قدمي السلطان. هذه المرة بدا الذعر على وجوه العوام والقلق على وجوه الحاشية، فما الذي يجري، وكيف سيردُّ السلطان على هذه الإهانة، وهمس لطفو: يجب أن يصلبه يجب أن يصلبه.

ولكنَّ السلطان أشار بخنصره، فإذا بواحد من الحرافيش يقفز فوق رؤوس الناس حتى يصل إلى الساحة الخالية بين الجمعين وجسرهما الجغتائي الطارئ فينقض على السكين التي ما تزال فارهة، ويهتف: روحي فداؤك أيها السلطان، روحي وروح أبنائي كلهم فداء نعلك أيها السلطان العظيم.

انتفض الرأس ساقطاً تحت قدمي السلطان، فتنفس السلطان في ارتياح، فلقد كان ردُّ رسول الجغتائي لئيماً جارحاً ما كان السلطان ليتوقعه، وتهيأ السلطان للقيام، فلقد وصل الجواب إلى رسول الجغتائي، وما عليه إلا أن يوصله. ولكن الرسول التفت إلى مرافقيه، وهمس همسة واحدة، فإذا بواحد منهم يقفز إلى منتصف الساحة محاذراً الدماء حتى لا ينزلق، فينقض على السكين ويصرخ: أبلغوا مولاي الكوركان أنَّ كلابه وخدمه لم يتراجعوا، وعلى مولاي ألا يغضب، ولا يحزن لفقدنا جميعاً، وليتخيَّل أنَّ خيوله وكلابه لم تلد لعام واحد، و.. وضع السكين في رقبته ففراها.

لم تتوقف المبارزة اللعينة حتى امتلأت الساحة بجثث العوام محبي السلطان وجثث الجغتائيين باذلي أرواحهم في سبيل الكوركان

البعيد هناك في أقصى الشرق.

وتمتم قاضي القضاة: يكفي، فالتفت إليه القلم دار متسائلاً محذراً: فمن هو، بل من هم ليقولوا للسلطان الذي يبارز كوركان الجغتائيين يكفي، ولكنَّ قاضي القضاة الذي هيَّجه الدم والجثث المتناثرة لم يستطع ضبط نفسه، فقد انتصب واقفاً ليهتف: يكفي أيها السلطان، يكفي.

وقال السلطان بلهجة مداهنة: هل أزعجتك الدماء يا مولانا؟ وأكمل القاضي صارخاً: هذه العادة التترية، هذه المبارزة الجغتائية.. هذه المبارزة لا تليق بدولة الإسلام.

وعندئذ انتبه الجميع إلى أنَّ رسول الجغتائي كان يقف وحيداً، فلقد مات الجميع على مذبح إرضاء الكوركان البعيد هناك في أقاصي صحاري الشرق، أما السلطان، فما يزال لديه الكثير من الدهماء والغوغاء والطغمة والرعية والعوام.

كان ذعراً لم يألفه نوري من قبل، ذعـراً أشبه بمواجهة شـيء لا تعـرف هولـه أو قدرتـه علـى الـشر، ذعـراً ذكّـره بحكايات الغيـلان والسعالي والجـنّ والحـنّ، ذعـراً يصيبك بنـوع مـن الاشمئـزاز فأنت لا تعـرف حقـاً مـن هـو، أو مـا هـو ذلـك الشـيء الـذي خـرج علـى كـل مألوف، فأصابك بهذه الحالة من الذعر والاشمئزاز والاضطراب.

وقال نوري يلهث: أعوذ بالله.. يجب إبلاغ.. ثم تردد متعثراً: ولكن. كيف، ومن يجرؤ على إبلاغه.

كرَّر النظر، كانوا كما تركهم منذ يومين، الوجوه المسطحة والعيون الغائرة والقسمات بلا تعبير، والشفاه تتحرك رقيقة كشفاه دمـى مرسـومة علـى الحريـر الـصيني. كـان واثقـاً أنهـم يكـررون الكلام الذي قالوه قبل أيام، وأنَّ كل مـا يهمهـم في هـذه الحيـاة هـو رضـا ذلـك الكوركـان الجغتائي البعيـد متخفيـاً وراء البعـد. كانـت الحمامتان بين يدي أحدهم وفي كفّه الأخرى حبـوب ولا شـك، فهمـا تنقران في آلية.

نظـر نـوري إلى الحاجـب علـى يمينـه في ذعر، ولكـزه، فلـم يـزد الحاجب الفاغر فمه على أن مال قليلاً في وقفته تحت تأثير اللكـزة، قال نوري: ألم ترهم بعينيك يقطعون رؤوسهم بأيديهم؟ ففحَّ الحاجب: بلى!

وكرر نوري: ألم ترهم يحملون إلى مقابر المسلمين بأمر السلطان رغم اعتراض قاضي القضاة بأنَّ هؤلاء البـاغين لا يجـب أن يدفنوا في

مقابر المسلمين وفحَّ الحاجب: بلى.

وصرخ نوري: وإذن، فمن هؤلاء المتحلقون حول رسول الجغتائي يطعمون حماماً لم يدخله أحد إليهم؟!

وسيسأله الشيخ أحمد في جلسة الأخيّة المسائية التي أعاده إليها الاضطراب الجديد في حياته: وكيف فعل السلطان حين عرف.

فقال نوري: لن تصدق.. لقد أصيب بالذعر نفسه الذي أصيب به أصغر الحجاب، فتمتم وهو يراقبهم عبر المرآة الشافة: أعوذ بالله لقد أصاب الخوارزميون حين قالوا: إنَّ هؤلاء الناس ليسوا بالبشر، إنَّهم يأجوج ومأجوج الذي لا يموت. إنَّهم نسل الشيطان نفسه، ثم التفت السلطان، تخيَّل، إلى من حوله من الحجاب والعبيد والاتباع يسأل مستنجداً: افلم تروهم بأعينكم يقطعون رؤوسهم بأيديهم، فهمهم كبير الحجاب: أشرفت بنفسي على دفنهم و.. لقد حرصت على دفن الرؤوس في المقبرة الشرقية و.. الأجساد في الغربية وتابع مذعوراً: وها أنت ترى بنفسك يا مولاي.

وسأل السلطان في غباء لم يعرفوه عنه، أو لأنَّهم لم يجروا معه حديثاً طويلاً من قبل، فالحديث كان دائماً أوامر من طرف، ونعم من طرف آخر. أما الآن فهو يسأل حاجبه: ولكن. ما الذي جعلك تدفن الرؤوس بعيداً عن أبدانها؟

فقال الحاجب يتأتئ مفاجأ بالسؤال: إنه تقليد قديم يا مولاي.. أن ندفن رؤوس الأعداء بعيداً عن أبدانها.

وقال السلطان في أسف: وها هم يعودون إلى الحياة، وصرخ في ذعر: ولكن. كيف؟

كانوا في مجلسهم المعتاد يتحركون ببطء، ويثرثرون ببطء، ويعدون حمائمهم ببطء، وقال السلطان: كأنهم الآلات. أعوذ بالله.

ثم تمتم موجهاً وجهه إلى السماء: اللهم أبعدهم عن بلادنا، فهؤلاء لعنتك التي ادخرتها لعبادك الظالمين.

كان اليوم الجمعة، وبطريقة ما عرف خطباء الجوامع كلهم بهذه المخلوقات التي ترفض الموت، فحذروا في خطبهم من قرب يوم القيامة، وما خروج يأجوج ومأجوج من وراء السدِّ إلا من أشراط الساعة، وتبارى الخطباء يخوفون من أهوال يوم القيامة، تباروا في وصف الأعور الدجال ذلك الذي سيملأ الأرض جوراً، وأخذوا في قص القصص عن رجال المسيح الدجال هؤلاء الذين ملأوا الأرض دماء وجماجم.

السلطان كان الوحيد الذي انسلَّ بعد صلاة الجمعة مباشرة من مسجد القلعة إلى القاعة التي جعل الحاجب يمنع الجميع عن الاقتراب منها في غيابه، و.. اتخذ مجلسه وراء المرآة الشافة ليراهم على حالتهم لم يتحولوا. يتكلمون من شفاه رقيقه لا تكاد تبدي الكلام، ويتحركون ببطء وكأنهم يخجلون من إبداء حركتهم، نقر الباب، فالتفت السلطان، وكان القلم دار يستأذن، فأشار له برأسه في صمت أن يدخل، وما كاد يقترب منه حتى سأله: انظر إليهم جيداً. أهم من قطعوا رؤوسهم بأيديهم بالأمس؟ أحنى القلم دار رأسه في تسليم: إنهم هم، ورد السلطان بنزق: ولكن. كيف لك أن تعرف إن كانوا هم، فكلهم يلبس بالطريقة نفسها، ويربي شاربيه المتدليين بالطريقة نفسها، ولهم جميعاً. انظر. القامة نفسها، وكرر القلم دار رغم أنه لم يكن واثقاً من كلمة يقولها، فالأمر كله من البداية مريك، ولكنه يعرف أنَّ عمله الأساسي هو أن يعرف، ولا شيء مهم في معرفته أكثر من طمأنة السلطان. وها هو يرى ذعر السلطان، ويعرف أنَّ عليه أنْ يطمئنه، وهتف السلطان بصوت عال في نزق:

ولكن كيف عادوا إلى الحياة.

أحنى القلم دار رأسه، وقال وهو ينظر إلى الأرض: هل تعتقدون يا مولاي أنهم سحرة؟ أنت تعرف أن سلطان الجغتائيين قد فتح الهند، والهند كما تعرف يا مولاي معدن السحر وأصل السحرة. وصمت. فهمهم السلطان يستحثه، فأكمل مكرراً: لعلّهم السحرة يا مولاي.

أعجب السلطان بالفكرة، فقال متمهلاً: وتظن خناجرهم؟

وقال القلم دار بسرعة: مخرقة وسحر يا مولاي.

قال السلطان بأسف: وضيّع عبيدنا أرواحهم هباء.

ـ أخاف أن يكون الأمر كذلك.

وهزَّ السلطان برأسه: فماذا ترى.

ـ لكل حيلة حيلة أخبث منها.

ـ فهات الأخبث.

وتهرب القلم دار من الجواب السريع ومخاطره، فقال:

دعنا نمضي إلى الغداء يا سيدي، ونرتاح قليلاً، وأفكر، ولا بد أن ينزل الله عليَّ حلاً ما.

لم يصل القلم دار إلى الحلِّ رغم دسامة الغداء، فطرح السلطان المشكل على خاصته من الشراب دار، والطشت دار، والجاشنكير، ولم يستطيعوا الوصول إلى الجواب، ولكنهم جميعاً طلبوا المهلة يستلهمون ويستوحون ويفكرون.

في الليل وعند تمدده الأول في السرير التقط القلم دار الفكرة. إن كانت خناجرهم مسحورة، فخناجرنا خالية من السحر، ولم تقرأ عليها آيات الشيطان، لم يستطع الاستمرار في النوم، فسارع مهتاجاً إلى القصر، وطلب لقاء سريعاً مع السلطان. وبأسرع من لمح البصر هوجمت القاعة التي يستضاف بها رسول الجغتائي ورجاله، وجرّدوا

من أسلحتهم وحين احتج رسول الجفتائي في أَنَفَة أخبره القلم دار بأنَّ السلطان قرَّر إهداءهم أسلحة معشّقة بالذهب والأحجار الكريمة، وأسلحة كهذه لا يجوز أن تحمل مع أسلحة رخيصة كأسلحتهم. والواقع أنَّ رسول الجفتائي ما إن رأى الأسلحة الهدية التي قدمت له ولرجاله حتى انفرجت أساريره، وتمنطق بها سعيداً.

في اليوم التالي استدعي رسول الجفتائي إلى حضرة السلطان ولكنَّه ما كاد يصل حتى اندفع أحد العوام يعلن حبه وولاءه للسلطان، وبدأت المبارزة الكريهة، وامتلأ البهو بالجثث والرؤوس، وكان رجال السلطان حريصين على أخذ جثث الجفتائيين ورؤوسهم المقطوعة. ولكنهم ادَّعوا هذه المرة أنَّهم دفنوها في مدافن المسلمين، أما الحقيقة والشهادة للطفو ونوري والقلم دار فهي أنَّهم أحرقوهم حتى الترمد، وجاء الصباح ليفاجأ القلم دار المبكر مع نوري برسول الجفتائيين مع رجاله يفطرون بهدوء، ويحركون شفاههم اللئيمة بهدوء، وكأن مبارزة الأمس لم تكن، وكأن جثثاً لم تحرق حتى الترُّمد. ولم يجرؤوا على إبلاغ السلطان، ولكن الشحْنَةَ لم يستطع كتمها، فأبلغها للسلطان الذي سارع إلى المرآة الشافَّة بنفسه ليرى مصيبته الحية وتحديه الدائم. وأمر بانعقاد المجلس وجيء برسول الجفتائي ورجاله، ولم يستطع رجال الحاشية تمييز المقتول فيهم ممن لم يقتل ولو مرة، ولم يستطع حتى العوام والحرافيش هذا التمييز أيضاً، وكان على واحد من العوام أن يندفع ليعلن ولاءه للسلطان مفتتحاً مبارزة الموت.

استمرت المبارزة شهراً كان المقربون والموعودون ومحبو السلطان قد شارفوا على النهاية. وكان الجفتائيون يتجددون كل يوم، ولا يعرف السلطان، أو شِحْنَتَه، أو رجاله السريين كيف يتم هذا،

وكان يمكن للمدينة أن تنقرض في هذه المبارزة الكريهة لو لم يصل فجأة المماليك الثلاثة ويحدثوا عن ضياعهم في الصحراء وعثورهم على مدينة لم يستطيعوا أن يربطوها إلى الأرض. وهكذا ما إن أشرق الصباح التالي حتى فوجئ السلطان بالمدينة وقد خلت من السكان فقد خرجوا إلى الصحراء يبحثون عن المدينة الهاربة.

هتف: أيدمر مدينة، ونظروا إليه في رعب وأمل، ثم نظروا إلى حيث أشار، فرأوا انعكاسات نور بعيدة، ورأوا شبح سور كبير. وقال: قلاوون يهز رأسه في حزن وحكمة: نعم. إنها المدينة! وتساءلوا في خوف، ولكن أي المدن هي؟ ورنَّ السؤال ترداداً لسؤال قديم، صدى لذعر وأمل وفرح قديم. وهزَّ قلاوون رأسه يريد أن يقول: دمشق، ولكن أيدمر قال: ليتها تكون ارغون! فقال قلاوون: كم أتمنى لو تكون تفليس. فقال يلبغا يتمتم في حزن فلا يسمعونه للهفتهم: بل ليتها تكون المدينة التي فارقنا.

كانوا في طريقهم إلى الشام يحملون إلى السلطان الرسالة الواضحة من رجلنا في بلاد الروم: العدو على الطريق، إنه يحوم من تبريز إلى سيواس ومن سيواس إلى بغداد.

كانت الرسالة شديدة الوضوح: الضبع يتشمم ما يظنه الفريسة من بعيد. أعِدُّوا المال والرجال. كشِّروا في وجه الضبع، أعوُوا عليه ما استطعتم، فهذا الضبع لا يخاف إلا المكشِّرين العاوين.

كانوا يعرفون أهمية الرسالة التي يحملون، فلقد عرفهم قائدهم بأهميتها وخطورتها على البلد، ولكن العاصفة هبَّت، عاصفة من عواصف الصحراء، التي لا يمكن التنبؤ بها، غطَّت وجه السماء بغبرتها الحمراء حتى لم تعد الخيل تستطيع التقدم، ولا البغال السير على هدى الخيل. فقال يلبغا: نخيِّم ونرتاح ونريح الدواب، وننتظر انجلاء الغبار.. ولكنَّ العاصفة امتدت، والغبار تسلل إلى الحلوق وما

تحت الثياب، وحين مدَّ ايدمر يده في الصباح إلى القربة يطلب ماء وجدها وقد يبست. تطاول إلى القربة الأخرى ليجدها وقد يبست فيهتف في فزع: لا ماء في القرب. غلبهم الذعر ولكن يلبغا قال: لا بد للعاصفة من سكون، وللغبرة من انجلاء. فهتفوا: ولكن القرب يابسة، فقال يهدئهم: ستأتي القوافل تحمل الماء والطعام، ولن يتخلى الله عنا.

كانوا قبل العاصفة الشبان الوسيمين، وكان كلٌّ يحمل وسامة جنسه، فايدمر الشاشاني يحمل وسامة أرغون في الشعر الداكن والعينين البنيتين والنظرة الصارمة، وكان قلاوون الأباظي يحمل وسامة الشراكس في الشقرة والعينين الرماديتين الممعنتين في الرمادية حتى لتكادان تبيضان، أما يلبغا البخاري كبيرهم، فكان يحمل وسامة بخارى في صفرته وقامته الرشيقة وعينيه المختفيتين بين الأجفان والأهداب. ولكن العاصفة غلّتهم بثوبها الأغبر المحمر، فلم يعد ممكناً التمييز بين وجوههم وشعورهم، وأضاعت وسامتهم فلم يبق منهم إلا الشبح المحمر.

جاء الصباح بعد طول انتظار تقلّبوا في ليله بين الخوف والأمل بين الظمأ والرجاء، جاء الصباح ففاجأهم بأنَّ خيولهم نفقت وبغالهم هربت ودربهم السلطاني قد ضاع بين تقلبات الرمل وتثنيات الصحراء، وكان عليهم أن يجابهوا الصحراء عزلاً ظمأى جياعاً ولا طريق.

قال يلبغا: نمشي. قالوا: أين، وكيف، ولا دواب ولا خيول.

قال: نمشي، فلعل قافلة تعثر علينا. قالوا: ننتظر، فالطريق التي أضاعتنا ربما لم تضع القوافل. قال: إن انتظرنا متنا. قالوا: وإن مشينا متنا.

قال يستعيد أبهة القائد: سأمشي وابحث عن الطريق، ولا يمكنكم مخالفتي فأنا كبيركم حسب أوامر السلطان، وأكبركم حسب أوامر الرب. قالوا: الكبير كبير أوان ما قبل الموت ظمأ، أما وعزرائيل العطش ينتظر سقوطنا، فلا كبيرا! نظر إليهم في انكسار، فلقد هزموه بمنطقهم. ومشى، ولكنهم نظروا كل إلى الآخر مرعوباً، فماذا يفعلون في هذا التيه الأحمر حيث لا جنادل، ولا جبال إلا الرمل الأبيض. قالوا: الموت في الجماعة خير من النجاة فرادى، ولحقوا به.

حين صارت الشمس وراءهم كانت شفاههم قد تشققت وعيونهم قد ضاع لونها، وركبهم قد ساخت تحتهم، واليأس قد أقنعهم بأن الطريق قد ضاعت منهم إلى الأبد، وأنّ الرسالة التي يحملونها إلى السلطان لن تفيد في شيء.وحين بدأت ركبهم تخونهم ويسقطون، ثم يتحاملون بدأوا البكاء الجاف بلا دموع، وقال أيدمر يظن أنّه يحدثهم، وما يحدّث إلا نفسه: بعيدة أنت يا أرغون، بعيدة أنت أيتها الأحلام التي حملوها لي على ظهري وهم يودعونني مع الياسرجي: صِرْ السلطان!!. واستدعنا، فالبلاد باردة وفقيرة؛ صِرْ الألفي وأرسل إلينا نلحق بك، فلعلنا نستطيع الحجّ في قافلة السلطان؛ صِرْ الجاشنكير فلعلنا نشبع من ثوم وبصل وفول مصر التي ذكرها القرآن. قال: موؤودة أنت أيتها الأحلام، وأدك الغبار الحقير! وضرب برجله الأرض المغطاة بالغبار الأحمر، فساخت ركبته، وسقط على وجهه.

وقال قلاوون: بعيدة أنت يا تفليس، بعيدة أنت يا خيول السباق وشراب القمز، بعيدة أنت يا صبايا الجبال الحسان، وتنهد: وبعيدة أنت أيتها الأحلام التي رَقَّوْني بها منذ كنت الطفل يحمل على الظهور: هناك عند مغرب الشمس، هناك عند النهر العظيم تنتظرك

الرؤى الكبيرة والأحلام الكبيرة. هناك إن طال بك العمر ولم تقتل في التدريب، ومعارك الحارات، وحروب السلطان، هناك إن طال بك العمر الأمل في أن تصبح السلطان الكبير حيث القصور والجواري والمماليك والثروات و... تهمس الأم في رجاء خجول: وعندما تصير لا تنسى أمك العجوز، ولا تنسى إخوتك المساكين! وتمتم في حزن: هـه. من للأم العجوز الآن والإخوة المساكين.

وقال يلبغا: بعيدة أنت يا بخارى، يا موئل العلم وقباب الشروق، بعيدة أنت يا سمرقند وترمز، بعيدة أنت يا بلاد الفرح قبل قدوم الجغتائي الأول ودمار كل شيء، بعيدة أنت يا الأحلام يرددها صغار الفتيان في المهاجع والمطاعم ومضامير السباق، بعيدة أنت ياالطبلخاناه، ويا أبواق الترحيب، بعيدة أنت يا ثياب الفراء ومعاطف السمور، بعيدة أنت يا مقابض الزبرجد على نصال فولاذ دمشق، فها الغبار، الغبار الأحمق، الغبار الذليل يداس بالأقدام يضيع كل شيء ويعود بالغبار إلى الغبار.

تحامل أيدمر من سقطته، وأسنده يلبغا، وقال قلاوون: نمشي حتى الغروب فلعل الليل يحمل رطوبة وندى و.. قافلة تبحث عن مصيرنا، ولكن أيدمر صرخ فجأة: مدينة، ونظروا حيث كان ينظر فرأوا في الأفق القباب والمآذن الملتمعة، فهتف الآخران: مدينة!.. وتجلّت الأسوار السامقة متحدية.. همزوا ما تبقى فيهم من قوة يطيرون في اتجاه المدينة يرجون من زادها للمعدة الخالية، وماءها للشفاه المتشققة، وظلّها بعد طول سوط الشمس لهم، وهمس يلبغا بعد أن سقطوا الواحد إثر الآخر، وقد استنفد آخر ما في عروقهم من قوة: ولكن أيّ المدن هي؟ وتمتم مفسراً: الرقة سورها من طين وليس فيها مثل هذه المآذن من ذهب. وقال قلاوون: لعلها منبج. فتمتم يلبغا:

ولكن منبج ليست إلا تجمعاً مبنياً من الطين وعريش النخيل.

أغمض أيدمر عينيه، وقال بلهجة تنز بالفرح: إنها أرغون! أحدٌ الآخران النظر: لا. ليست أرغون، إنها سمرقند، وقال الثالث: بل هي تفليس، وقهقه الأولان: فأين نحن من تفليس؟

كانت المدينة تلوح بشراشيب مآذنها، وترتعش ببطون قبابها، وكان الظمأ يسوقهم، والخوف يجلدهم، والأمل بالخلاص يلوح لهم. ركضوا مستبطين آخر ومضة قوة لديهم، ولكن الأقدام تتعب والظهر يئن، والمدينة لا تقترب.

أشار يلبغا إليهم بالتوقف، فتوقفوا. قال: لعله السراب، فأنت قلت إنها أرغون، وأين نحن من أرغون، أرغون حلم ينغل هنا، وأشار بأنملته إلى الصدغ، وأنت قلت إنها تفليس، وأين نحن من تفليس، لا. إنه السراب. تأمل كل منهم المدينة من جديد، ورأى فيها مدينته الحبيبة.

قالوا يهمهمون منكسرين: إنها لكذلك، إنها المدينة الطفولة، المدينة ما قبل الأحلام والرحيل وراء السلطان. قال: ربما، ثم همهم وهو ينظر إلى المدينة تلّوح بمآذنها وقبابها وذؤابات أشجارها. ولكنها ها هي. إنها تلّوح. دعونا نجرب ثانية. وجربوا ثانية، مشوا حتى انهارت الكواحل والركب، ولكن أيدمر نظر إلى المدينة، فرأى النساء الجميلات يقفن على السور في ثياب حمر ومعصفرة يلوحن مرحبات، فهمز ساقيه، واندفع، وتبعه الآخرون. فرك يلبغا عينيه، ورأى الشلالات تدفق بالماء الرقراق، فتفتحت مسام جلده للماء البارد. أما قلاوون فرأى الأبواب تفتح، والأسواق تعج بالباعة والشارين، فانطلق يبغي رمي نفسه بينهم، ففي الزحام كما علمته مصر وحاراتها دائماً مكسب غير منتظر.

تساقطت قطرات العرق المحمرة كثيفة قوية والمدينة لا تقترب،

احترقت العيون بالعرق المالح والمدينة لا تقترب، أخذت الشمس تميل إلى الغياب والمدينة لا تقترب، وقال يلبغا فيما يشبه الحدس: إن لم ندركها قبل العتمة فاتتنا إلى الأبد. وهزوا برؤوسهم موافقين يعرفون أنهم إن لم يدركوا هذه المدينة، فلن يدركوا مدينة أخرى من بعد. لم يهمهم إن كانت سمرقند أو تفليس، لم يعد يهمهم إن كانت أرغون أو بخارى، كان كل همهم أن يدركوها، هذه المدينة المحلوم فيها أبداً، المدينة التي منها سيطعمون ويسكن الجوع، والمدينة التي منها سيروون وتنتعش العيون، والمدينة التي إلى ظلالها سيسندون جنوبهم المتعبة فيفارقهم التعب.

احمرت الشمس احمرار ما قبل الغياب، ونادتهم الأبواب المفتوحة عن جوار، وأسواق، ونوافير، وأكوام من طعام، فانطلقوا يعانقون المدينة المحلوم بها، وقبل أن تسدل العتمة أستارها كانوا قد دخلوا المدينة.

فيما بعد، وحين عثرت عليهم قافلة كانت في طريقها إلى الشام وجدتهم نائمين، شبعانين، ريّانين، وأصابعهم مطبقة على قطعة من ثوب امرأة من حرير معصفر، وعلى بضعة دنانير لم تعرف البلاد عيارها منذ قرون. أمّا في يد الكبير منهم فلقد وجدوا رغيفاً من خبز، قال من تذوقه: إنه لم يذق أشهى منه.. هزُّوهم من رقادهم فاهتزوا، أيقظوهم فاستيقظوا وحين نظروا من حولهم في بله لم يصدقوا ما تراه عيونهم. فمن هؤلاء الشعث الغبر يحيطون بهم بروائح آباطهم النتنة والجوع النازّ من عيونهم؟ سألوهم عما جعلهم ينامون في الصحراء بلا خيول ولا بغال ولا زاد ولا ماء، وحالهم لا يشي بالضياع ولا بالجوع، فخرسوا حائرين: فمن سيصدق أنّهم منذ دقائق كانوا في أحضانهن يطعمون ويروون ويتحدثون عن مدينة الأمل؟ أراد كبير

القافلة البطش بهم، ولكنَّ ثيابهم السلطانية ردعته، فقال لكبير البغَّالين: دعنا نوصلهم إلى حاكم حلب وهو يقرر ما يفعل بهم، عبيداً آبقين، أم شعراء ضالين، أم سكارى أضاعتهم القوافل.

اقترب كبير البغالين فتشمَّمهم وأعلن ألّا رائحة خمر تنزُّ عنهم. وسأل كبير القافلة: فما هذه الغيمة من ريحان تحيط بهم، فقال: عطر نسائي لم أشمَّ مثله في حياتي.

اعتقد حاكم حلب أنهم يسخرون منه في حكاية اتفقوا عليها يسوِّغون ضياع خيولهم وأسلحتهم وعدم إيصال الرسالة المكلفين بإيصالها ولكنَّ إصرارهم وإجماعهم على كلمة واحدة جعله يرسل معهم كتيبة من الجند ومهندسين يكشفون طريق هذه المدينة لا جائع فيها ولا عطشان ولا من يبيت خارج سرير حب.

مضت الكتيبة من الفرسان والمهندسين وفي مقدمتها المماليك الثلاثة يبحثون عن مدينة قبابها من فضة ومآذنها من ذهب وفي كل حارة منها ساقية، وعند كل زاوية جارية، وعلى كل رصيف أشجار تحمل من الثمار أطايبها، وقبل أن يغادروا همس الحاكم لآمر الكتيبة أن يرفع على المدينة رايته، ويخبر أهلها إن قاوموا أنَّهم جنده المكلَّفون بحماية المدن التي لا حامي لها.

جابت الكتيبة الصحراء، سلكت كل الدروب، اخترقت كل الوديان والفيافي، ولكنَّ قباب المدينة لم ترتعش لاستقبالهم، ومآذنها لم تلوح للترحيب بهم، وشوارعها العاجَّة بالتجار وأكياس الذهب لم تنفتح لهم، وقرَّر الحاكم عقوبتهم، ولكنَّ كبير المماليك الصغار ذلك البخاري صاحب العينين الضيقتين والبشرة الصفراء سأل: وماذا عن هذه الدنانير؟ هل رأيت مثلها في مملكتنا من قبل؟ وأقرَّ الحاكم بأنه لم ير مثل هذه العيار من قبل، وقال الشاشاني يشير إلى قطعة

الحرير المعصفر: هل مرَّ على أسواقنا مثل هذا الحرير؟ ونظر الحاكم إلى الشهبندر، والشهبندر إلى كبير الخزازين، وأحنوا رؤوسهم في ارتباك: فمن رأى مثل هذا الحرير يمكن لك أن تمرر ثوباً منه في خاتم طفلة.

صرفهم إلى محبسهم وتداول في أمرهم طويلاً، تداول مع السلاح دار ومع آغة الطبلخاناه، ومع الزردار، ولم يصلوا إلى حل مرض، ولم يستطيعوا الإفتاء في عقوبتهم أو قتلهم. وقال الحاكم أخيراً: نرسلهم إلى السلطان في الشام وهو من يرى الرأي فيهم.

حملوا إلى السلطان ومعهم ذهبهم وحريرهم وعطور النساء على جلودهم، فجمع السلطان القلم دار، والشراب دار والطشت دار وقاضي القضاة، جمع الرحَّالة والتجار، وعرض عليهم حكاية المماليك الفتيان، ولكنَّ واحداً منهم لم يستطع أن يصل إلى الجواب، وأخيراً لفت قاضي القضاة نظر السلطان إلى أنَّ شيئاً في عيون المماليك لم يعد يشبه ما نعرفه في عيون المماليك. قال: أنت على حق، في عيونهم حلم. قال قاضي القضاة: مولاي. المماليك والأحلام أمران متنافران.

قال السلطان: أنت على حق فما ترى، يموتون؟ قال: لا، فلم يرتكبوا جناية تستوجب القتل، والحلم جناية مؤجلة، جناية سترتكب، ولكن الشرع الشريف لا يبيح القتل على ما لم يرتكب.

التفت السلطان إلى القلم دار، ثم التفت إلى السرجامدار كشاش الذباب عن السلطان، ثم إلى السلاح دار والجاشنكير، وقال: احكموا يا آغوات. قالوا: ينزع عنهم ثوب الجندية. قال: وما يصنعون؟ إنهم مماليكي. قالوا: هبهم ماتوا في الصحراء، أعتقهم وإلا افسدوا عليك الجند، فالجندي الحالم طاعون أين منه الطواعين؟

حين رفع الشيخ أحمد رأسه من إطراقته الطويلة كانوا قد أنهوا عشاءهم البسيط الذي استطاع بصعوبة تقديمه لهم، ولكن عينيه كما سيلاحظ لطفو فيما بعد لم تكونا عيني أحمد بن محمد بن عبد الله المؤذن الفقير والمطرب السري الذي عرفه منذ أكثر من عشرين سنة. لقد تغيَّر شيء فيه، البريق والعمق في العينين والارتخاء في الوجنتين، لقد توقفت تلك الرعشة العصبية التي كانت تلازمه فتجعله يرعش العين والوجنة اليسرى كأنما يطرد ذبابة تلحّ.

قال لطفو ينظر إلى الأطباق الخالية: ما الأمر.

فقال وهو يتنهد: سلهم. قال لطفو: عمَّ أسألهم؟

ولم يكونوا بحاجة إلا إلى هذا السؤال لينهمروا وليسمع لطفو شيئاً أكثر إدهاشاً من حديث الرؤوس الثمار، والثمار الرؤوس، شيئاً أغرب من حديث راهب دير الشيروبيم عن الأشجار النساء الكرمات، وقبلات الحصرم والزبيب، والاحتضانات محيلة الرجال إلى كرمة، سمع حديثاً عن مدينة تتجلى، وتغيم، وتحضر، وتختفي، تغازل وتتمنع هناك في عمق الصحراء، سمع حديثاً عن مدينة لم يجرؤ حتى على الحلم بوجودها. قال للشيخ أحمد: أتصدقهم؟ قال: ولم لا أصدقهم وقد أعتقهم السلطان، وأعفاهم من رق المملوكية. سأل: لماذا؟ قال يلبغا: قال قاضي القضاة إنا أصبحنا طاعوناً على المماليك.

وردد لطفو: طاعون؟

قال يلبغا يحني رأسه في خيبة: خاف عليهم من لعنة الحلم. قال: على المماليك ألّا يحلموا.

قال الشيخ أحمد: أما أنا فسأكون منذ اليوم عبد الحلم، وهبَّ منتصباً، فسأله لطفو: ولكن. ماذا ستفعل؟ قال: سأمضي للبحث عن هذه المدينة!!

وفكر لطفو قليلاً، وقال: وأنا سأمضي معك!.. ثم نظر إلى من كانوا مماليك قبل أيام في سخرية وقد استرخوا على بساط حلبي ممدود في الباحة الصغيرة قريباً من البئر. ونظر إليهم الشيخ أحمد، وكأنه يقول: ألن تأتوا معنا؟ فقال يلبغا: يبدو أنَّا منحوسون!

- كيف؟

وتنهد يلبغا: لو مضينا معكم بحثاً عن المدينة التي سقطنا منها، فلن يراها إنسان من بعد.

وأكمل قلاوون: أذكر أنّي سمعت أنَّ من سقط من المدينة عند طيرانها فلن يراها من بعد!

حملا قربتي ماء وعدداً من الأرغفة الميبَّسة وقليلاً من الجبن اليابس ومضيا للبحث عن المدينة لا يجوع ساكنها، ولا يأرق خوفاً من شرطي أو عسسي، ولكنهما ما إن غادرا باب السلام حتى رأيا الناس يتسللون صامتين، وكل يحاذر الاقتراب من الآخرين، كانوا قد سمعوا حكاية المماليك الضالّين عن المدينة التي طالما تحدثت عنها الكتب، وروت عنها الجدّات، ولكنَّ محظوظين قلائل من يعثرون على هذه المدينة في كل جيل. قال عجوز أعطى كلَّ ما ادخر في حياته من مال لشبان ثلاثة كي يحملوه معهم: لعلكم لم تنسوا الحبال التي نصحتكم بحملها، فقال الشاب ذو الشاربين الأخضرين يتحسس خصره ما تحت الثياب: لا تخف، لقد حملنا كلَّ ما

نستطيع حمله من حبال. فتتهد العجوز وهو ينظر إلى البعيد: سنربطها إلى أوتاد في الأرض، فلا تكرّر لعبة الفرار من عاشقيها.

وقال الشاب الثاني ذو الشاربين الطارّين: علينا أن نعثر عليها في البدء، وأكمل ذو الشاربين الأخضرين وهو ينقل ذراع المحفة تحمل العجوز إلى الكتف الثانية: أو.. عليها .. أن تعثر علينا.

قال لطفو حين رأى الناس تمضي إلى الصحراء البعيدة، تمضي ولا تنظر إلى السماء، أو إلى الجبال تهتدي بها، بل تنظر إلى مواطئ أقدامها فقط كمن يبحث عن شيء أضاعه، أو أثر يدل عليه. لم يمضوا إليها فرحين ولا متفائلين، فقد عرفوا من آبائهم وأجدادهم لعنات المدن العتيقة ونحوسها وأحزانها، ونداءات هاماتها التي يحملونها على أكتافهم، فلقد حدّثهم من رحل إلى مدن أخرى بحثاً عن قدر افضل أنهم اصطدموا هناك بالشرطة والعسس، والمرابين، وسالخي الجلود حية، ونافخي الأدبار ليضحك السلطان. قالوا: العالم كله مدينة واحدة، لا تنخدعوا بتغيُّر الأسماء. وبعد تجارب كثيرة كانوا يمضون فيها في تجارات بعيدة، ورحلات شاقة يقطعون فيها الصحارى والبحار والغابات ليكتشفوا المكّاسين على الأبواب، والشرطي يحمل السوط منتظراً، والسلطان في شرفته يتمتع بسلخ جلد المدين العاجز عن دفع الدين، فقالوا: لا فائدة، صدق من سبقونا، العالم مدينة واحدة.

ولكن حين وصل المماليك ومعهم حكاية المدينة الهاربة شعر الجميع أنّها الفرصة لا يمكن التخلي عنها، وفي اليوم التالي اكتشف السلطان أنّ المدينة قد خلت إلا من جنده وبعض عجائز لم يستطيعوا الرحيل، أو يئسوا من إمكانية العثور على مدينة تغاير المدينة التي تحكم هذا العالم و.. رسول الجغتائي ينتظر الجواب.

قال السلطان: لن يرجعوا إلى المدينة، سأجعلها هبة لكل من يأتي، سأجعلها منحة للسكّان بلا أحلام.

و.. خرج الطبالون وشادُّوا الطبلخاناه من القلعة، من القصر، ثم من أسوار المدينة، خرجوا إلى البوادي والصحارى والمدن الأخرى يعلنون عن مدينة بلا سكان تدعوهم لسكناها شريطة أن يخلعوا أحلامهم قبل دخول أبوابها.

كان مساءً ثقيلاً، أثقل حتى من أماسيِّ السلطان ونداءات طبوله والخوف من جفتائيّه، أثقل من فصول القحط والشتاء المشمس الذي يجعل الفحّامين والحطّابين يذرعون الحارات يدعون إلى بضاعتهم بعد أن كانوا يخفونها محتكرين يفرضون أسعارها متواطئين مع رجال السلطان.

كان مساء أثقل من رفوف الجراد تغطي وجه الشمس ويعرفون أنّها لن تترك لهم طعاماً لعامهم القادم فيخرجون إليها بالطناجر والطبول يقرعون ويفزعونها فلا يزيدون على جعلها تنتقل من هذا البستان إلى ذاك ومن هذا الحقل إلى مجاوره.

كان مساء ثقيلاً، وكانت الصحراء ثقيلة، وكانت الخيبة ثقيلة. ورغم أنّهم في بحثهم طيلة يومهم عن أثر لتلك المدينة المحلوم بها أبداً كانوا يحرصون على ألّا ينظروا واحدهم إلى الآخر فيرى إثمه، ويلصق به فيحرمه من مدينة يريدها على قدّه، وقد حدّثهم قلاوون أنّهم حين دخلوها وجد كلٌّ منهم فيها المدينة التي فارق، وبكى من الحنين إليها. وهم يقسمون أنّهم وجدوا فيها سمرقند وتفليس وأرغون، ولكن حينما سئلوا لماذا نفضتهم المدينة عنها لم يعرفوا جواباً، فأدرك الجميع أنّ المدينة لا تتجلى إلا لواحد استغرقه الحلم فنسي الإثم، فالمدينة الهارية لا تستطيع احتمال أكثر من آثم واحد، أمّا إن كثر الآثمون وتراكمت الآثام فسيثقلها الإثم ويحولها إلى أرضية وهي كما يعرف الجميع مدينة لا تحتمل الالتصاق بالأرض.

قضوا يومهم وعيونهم ترمق الأفق تبحث عن سور أبيض بعيد، قضوا يومهم وآذانهم تتنصت بحثاً عن صوت عصافير لم يسمعوها من قبل... قضوا يومهم وأنوفهم تتشمَّم باحثة عن روائح لعطور لم تعرفها أسواقهم، قضوا يومهم يقتِّرون بالماء فهم يعرفون أنَّ الرحلة طويلة وعليهم إن أرادوا الوصول إلى المدينة المحلوم بها أن يصمدوا بما حملوا معهم من ماء. ولكنَّ الشمس ركمت والجبال انتصبت وعواء الذئاب والضباع تصدي في الآفاق، وكان عليهم مكرهين أن يتضامُّوا، ويجتمعوا على مضض ولو تحاشياً لبولة ضبع أو نهشة ذئب.

ترامقوا عبر حجب الدكنة تسبق الظلمة كلٌّ يسأل الآخر دون شفاه: ماالذي أخرجك من مدينة السلطان.

ترامقوا متعاتبين: هل ضاقت عينك حتى عن تركي أتمتع وحيداً بالحلم؟ ترامقوا متكارهين.. ولكنَّ الإرهاق ومشي النهار الطويل لمدينيين لم يعتادوا المشي جعلهم يستسلمون أخيراً لنوم ثقيل بلا هدهدة، نوم أنساهم جوعهم الجديد وظمأهم الجديد وروائح الصحراء سفعتها الشمس فطهَّرتها من كل إثم.. الجديدة.

حين سمع لطفو قطقطة قريبة، وفتح عينيه اكتشف أن صديق عمره الشيخ أحمد قد تخلَّى عنه، ومضى يبحث عن مدينته وحيداً، فالتفت من حوله يبحث عن الآخرين، الجيران، الأصدقاء، الفتيان، لكنه لم يجد إلا آثار مضاجعهم قريبة لم تمحها الريح. بحث بعينين أكلَّهما النوم، ولكنه لم يشمَّ رائحة لصديق أو قريب.

كانوا قد مضوا فتنهد، وشرب جرعة من قربته التي تركوها له، فشكر الله وشكرهم أن لم يقربوها، أخرج من عبِّه رغيفاً يابساً فقضم قضمتين، وقال: ربَّما كان هذا أفضل، فالعثور على المدينة وحيداً كان دائماً شرط المدن الهاربة من آثام البشر.

كانت ليلة طويلة عجز عن النوم في مبتدئها، فقد كانت طبول السلطان تدوي في آذانهم. صحيح أنَّهم لم يروها، ولكنَّها كانت تدوي تهدِّد الهاربين، وتعد الجميع بمدينة جميلة ببيوتها وأشجارها وأنهارها وظلالها هبة لمن يرغب في حب السلطان. ولكنَّ طبالاً واحداً لم يتحدث عن الجفتائي ورسله، وطبَّالاً واحداً لم يتحدث عن سالخي الجلود أحياء، ولا عن نافخي الأدبار أحياء، ولا عن مقتلعي الأظافر أحياء. كانت مدينة الطبَّالين الداعين مزوَّقة كما يزوِّق القواد عاهرته، ولكنهم كانوا مسكونين بالمدينة الهاربة، فمضوا يبحثون عن سور أبيض وذؤابات نخيل تلوح من بعيد تدعو الهاربين إلى مدينة من فرح.

وكان ظمأ مريع، ظمأ أقسم لطفو أنه لو عاش سبع حيوات، ولبس سبعة قمصان، وشهد سبعة أئمَّة فلن يظمأ مثل هذا الظمأ. كان يحسُّ جلده يتشهى الرطوبة، ورئتيه تتشهيان البرد، ورأسه يتشهى الظل، وبهدوء أدرك حماقته، فكيف هجر مدينة الأنهار السبعة، والغوطات السبعة، وشجر المشمش بطعومه السبعة، والتين بألوانه السبعة، والخوخ والرمان، والتفاح والكمثرى، والسواقي تدلي قدميك فيها والنسيم يداعب ورق العنب من فوق رأسك؟ وتتهد: كيف لم أر تلك المدينة الجميلة التي فارقت؟ كيف عميت عيناي فلم أعرف أنَّ المدينة الهاربة ليست إلا المدينة التي تركتها وراءك؟ وتتهد بحرقة، تتهد يبكي خيبته وحماقته. وفجأة قرَّر التخلي عن الصحراء وكذبة المماليك الثلاثة والعودة..

أحسَّ بحنين عجيب، حنين ليس إلى مدينة من بيوت وحارات ملتوية وياسمين يتلطى وراء الجدران، بل كان الحنين إلى المعشوقة الأولى، إلى تلك المرأة، والحارة، والحب، والرفض، والإهانة،

والعذاب، والشهوة، والشبق، والزهد. ويهدوء رآها، وأغمض عينيه يحميهما من وهج الصحراء.

فتحهما، ورآها، هل كانت هي، أم كانت؟

تحت وهج تلك الشمس ووميض الصحراء من حوله لا يعرف كيف حضرت.. لم تكن شديدة الصبا، ولم تكن شديدة النضرة، ولم تكن الخارقة الجمال، ولكنها كانت هي، كانت المرأة، المرأة التي عرفها فصبغت حياته كالوشم عرف بعدها مخلوقات مؤنثة كثيرة، ولكنها كانت المرأة.

قالت: اضرب. وأخذ يضرب على طنبور يفترض أنّه جاء من أجله. قالت: اضرب. وأنزلت الخمار عن وجهها، وتأوّه الحاضرون وأنّت وردة حمراء متلطية في الصدر. قالت" اضرب، وحلّت شعرها الأسود الكثيف فانهمر إلى الخصر وكادت الأوتار تتقطع تحت أصابعه كما حدّثه الشيخ احمد. هو يذكر أنه كان يضرب على الطنبور، وهذا أقصى ما يذكر ولكنها ستقول له متدللة فيما بعد: أنت لم تكن تضرب على الطنبور، أنت كنت تذيب الطنبور. قالت: اضرب، وضرب حتى لم يعد يرى الحضور، ولا البستان، ولا الساقية، ولا برهان الدين، ولا امرأة الغناءِ التي كان اسمها فرتتى. قالت: اضرب، وسيقول له الشيخ أحمد الذي لم يستطع أن يجاريه في الغناء، فترك الأمر لها تغني وتحاول اللحاق بطبقات لم يعهدها الشيخ أحمد ولم يعهدها لطفو، ولم تعهدها تلك التي عرف الجميع الآن أنّ اسمها كان.. فرتتى، وعرفوا أنّ لطفو صار عبداً لها.

ضحكت في خبث: إلى أين؟ قال: أخدمك برمش العين، وضحكت ثانية في دلال: ولكني لست بحاجة إلى خادم. قال: أضرب لك على الطنبور. قالت: نفقة الطنبوري حصة الداعين. قال اجعليني طنبوريك أنت.

فضحكت في دلال، ثم ركبت الحمار الذي قدّمه لها القلم دار ولم تجب، فالتفت القلم دار إلى لطفو في عطف وقال: لا تتعب نفسك، فهي ليست لك! وأنّ لطفو في أسف: ولم لا؟. وما ينقصني؟ وهز القلم دار رأسه كمن يقول: الكثير، الكثير. أيها الطنبوري.

ووضع الشيخ أحمد يده في ذراعه في لطف يريد اصطحابه إلى البيت على العادة، ولكنه نتر يده منه بقوة وغضب، وصرخ: ماذا تريد مني؟ وبهت الشيخ أحمد، وقال معتذراً: أصحبك إلى البيت، فردَّ في حماقة لم تعرف عنه: لا أريد المضيَّ إلى البيت!.

ضمَّ طنبوره إلى صدره، وركض يخاف فواتها على حمارها الأبيض الفاره، وحين أدركها قال له خادمها ورفيقها وحاميها: امض يا بني، امض فلست الكفء!. وكاد يبكي حين أطلقت ضحكتها الصاهلة. ولكزت حمارها وابتعدت، ولم يستطع التوقف، فلحق بها من حارة إلى حارة، ومن درب إلى درب، وهو يعرف خطورة المشي ليلاً، فالحراس كثيرون، ورجال المحتسب كثيرون، ورجال الشِحنَة كثيرون، والعسس ورجال الخبر كثيرون، وكلهم يستطيع تشليحك وحبسك وإهانتك. وكان يرى الحراس يحيُّونها وهي تمرُّ بهم، فيسارع إلى المشي في أثرها ملوحاً بالطنبور فلا يوقفه الحراس يسألونه عما يجعله يسري في هذا الليل.

نزلت أخيراً عن حمارها، ورمقته بعين متعبة فالفجر أوشك على الانبلاج، وانسلّت مع خادمها إلى البيت.لم تدعه... وحتى لم تسلم عليه.

نظر إلى الباب الخشبي المغلق، نظر بأسى يتمنى لو كان يستطيع صنع شيء، ولكنه كان يعرف أنّه لن يستطيع إلا انتظار هبة ما، نعمة ما منحة ما تنزل عليه من السماء.

أسند طنبوره إلى الجدار، واتّكأ. قال: أنتظر ولا بد لها من خروج من البيت.. قال: أبذل كل شيء أستطيعه وأراها في ضوء النهار و.. لكن النهار طلع، ومبكرو العمال أفاقوا، والمؤذنون أطلقوا آذانهم يدعون المؤمنين إلى الصلاة التي هي خير من النوم، وما يزال في مجلسه لا يخجله سلام المارين، ولا نظراتهم المستغربة، ولا تمتماتهم المستغفرة.

انتبه إلى أنه يئنُّ، فهزَّ رأسه ضاحكاً. أعوذ بالله. أما تزال قادرة على بعث الأنين في قلبك!! وبهدوء عرف أنَّ قلبه لن يتوقف عن الأنين من بعد تلك المرأة. فرتنى، فرتنى. وأغمض عينيه لا يعرف، أهو الحنين، أم الوهج الشديد، ولكنَّه حين فتحهما رآها هناك تلوِّح بذؤابات نخيلها، وصدى طنابيرها، وبريق سورها، فشهق، وقال: إنها هي، إنها هي.. وركض باتجاهها، ولكنَّ ما أوقفه عن الركض لم يكن اللهاث، ولا احتقان الألم في الصدر، بل كان أنَّه كلما فتح عينيه يقيس ما تبقى من مسافة اكتشف أنَّها ما تزال البعيدة البعيدة، وهو لا يعرف لم كان لسانه يردِّد: فرتنى، فرتنى.. هل سمَّاها، تلك المدينة المحلوم بها، المطاردة فرتنى، أم أنَّ بعد المدينة عن النوال كان بعد فرتنى؟

قال له الشيخ أحمد وقد وجده ما يزال في مجلسه يسند الطنبور إلى الجدار، ويسند ظهره بعيداً عن الجدار في توتر: كدت تميت أمك من الرعب! ولم يأبه أو يتحرك فيه عرق: فلتمت، ولتمت المدينة، وليمت العالم ولو من أجل رمقة من عيني فرتنى!

تلك القسوة التي لا يعرفها إلا الأبناء في علاقاتهم مع والديهم، وخاصة حين يشمُّ الصبي رائحة الذكورة في عرق الإبط، فيدوخ وينسى كل شيء كان قد أحبه فيما مضى. فتلك المرأة التي تمنَّى

لها الموت من أجل رمقة من عيني فرتنى هي نفسها المرأة التي حمل معها الطين والخشب يعاونان البنائين ليوفرا أجر عامل ويبنيا البيت الذي لم يبنه الأب. كان قد قال لها، وكانت كثيراً ما تردد أمام الجيران في فخر قولته: لن أتزوج! وكانت تتظاهر بالحزن حين تسأله ولم لا. ليردد وتردد: ليس من امرأة تستحق أن تحلّ محلك.

كان يحمل لها الطعام مخبّأ في عبه حين يعود من الحفلات، طعام لم تكن تعرف طبخه، ولم تكن تملك طبخه، وكانت تسعد كثيراً بتلك اللقيمات التي لم تكن طعاماً فقط بل كانت حناناً مطبوخاً، ورقّة مخبوءة في العبّ!

قال الشيخ أحمد: أمك فضحت الدنيا تبحث عنك، مضت حتى إلى سجن السلطان تبحث عنك. هيا، لقد وعدتها بإعادتك إليها. وردّ لطفو بعناد بغل: لن تراني قبل أن ترضى! وعرف الشيخ أحمد أنه يعني فرتنى. وهكذا حملت المرأة العجوز بقايا همتها، ومضت تطرق باب فرتنى لتطلب رضا لم تمنحه هذه المرأة لأحد.

فتح عينيه المتعبتين وأحدّ النظر ليرى على السور ذراعين بيضاوين ريّانين تلوّحان، فأغمض عينيه لا يصدق، ثم فتحهما ثانية: أعوذ بالله إنها هناك على السور الأبيض البعيد تلوّح، بذراعيها البضتين بين ذؤابات النخيل العالية تلوّح، ووجد ساقيه تندفعان، على غير إرادة حقيقية منه، تندفعان إلى السور الأبيض يلتمع وعلى شرفاته بذراعيها البضتين تلوح، ومن خلفها ذؤابات النخيل سوّد خضرته ميلان الشمس للركوع. قال ولا يعرف أنّه كان يقول ما يراد له قوله: يجب أن أدركها قبل الغياب، فلو غابت الشمس ولم أدركها، فلن أدركها من بعد قط.

استجمع آخر بقايا همته، ولملم آخر قطرات الشوق الهائل لتلك

التي لم تمنحه رضا قط، وقال: الآن سألملم نثار الحظ كله في ضربة واحدة.. وعدا.

مع آخر قصاصة حمراء لملمتها الشمس قبل الهروب كان قد عبر البوابة الحمراء في السور الأبيض، ولكن ما إن عبرها حتى أعلن الصدر استسلامه والساقان الخدر حتى الموت، فجلس على الأرض، وأسند ظهره إلى إطار الباب من الداخل، وقال: لم يعد يهمُّ الآن إن استسلمت للتعب أو النوم فقد حصلت على فرتنى.

نظرت فرتنى إلى الأم العجوز في سخرية غير مصدقة: أنت برمكية؟ وأحنت العجوز رأسها في حزن، وتابعت فرتنى: وآخر سلالة البرامكة الهاربين من بغداد، وأحنت العجوز رأسها ثانية في انكسار: وابنك الطنبوري لا يعرف؟ فقالت العجوز: وما الخير في معرفة لن تجلب إلا الأسى والأرق، وتابعت فرتنى: وتريدين العمل وصيفة؟ فقالت العجوز: شريطة أن يكون لطفو طنبوريَّك الملازم. وأطرقت فرتنى تفكر وكانت تعرف أنها لن تستطيع رفض عرض سخيٍ كهذا. وصيفة برمكية وطنبوري هو آخر سلالة البرامكة، ولكنها حين نظرت إلى خادمها اعتذرت في لطف، وحين شهقت العجوز وعدتها بأنها سترسل في طلبه عند كل حفلة تدعى إليها.

قبل انبلاج أول شهقة من شهقات الفجر كان الجوع قد أيقظ لطفو من اتكاءته على الإطار. فتح عينيه ليسمع حفيفاً وحديثاً هامساً يتسلل إليه، لم يكن حواراً بين اثنين أو أربعة، بل كان همساً لمدينة تثرثر. ولم يفهم لطفو من الهمس كلمة، فقال: لعلهم يتكلمون بلغة أخرى أو لعلّي لم أصح جيداً، ولكني.. يجب أن آكل، تحامل على نفسه واتجه إلى مصدر الهمهمة متحسساً نطاقه، وما يحمل من دراهم، وقال: رغيف طري وقطعة جبن أكثر مما

أحتاج إليه. اتجه إلى مصدر الهمهمة، ولكنَّ الصوت لم يتَّضح، ولم يصبح قريباً، بل ظلَّ الهمس البعيد، نظر من حوله وقال: أليس من أذان، ولم يتلق جواباً، فقال: أليس من ناقوس؟ فلم يسمع إلا الهمهمات، استجمع شجاعته، وقال: أليس حتى من بوق!

اندفعت الشمس فجأة إلى المدينة. اندفعت بكامل سطوعها. لم تتردَّد، ولم تتعثَّر، ولم تطارد ذؤابات الليل، فتساءل: أتراها كانت محجوبة بجبل تجاوزته فجأة، ولم تطل تساؤلاته إذ رأى فجأة مجموعة من الرجال يجلسون متحلقين يثرثرون وتساءل: أليسوا مبكرين على جلسات النوادي.. وألقى السلام، ولكنَّ واحداً منهم لم يلتفت، فقال: لعلهم لم يسمعوني، وأعاد إلقاء السلام بصوت عال، ولكنهم لم يلتفتوا، بل تابعوا الهمس والتمتمات. اقترب على حذر، كانوا رجالاً وقورين محترمين يناقشون قضية شديدة الأهمية، عرف ذلك من انهماكهم وعنايتهم باختيار كلماتهم. فأعاد إلقاء السلام بصوت عال لدرجة أنَّه لاحظ أنَّ في علوه وقاحة تفترض في السامعين الصمم، وخجل لتسرعه، وأراد الاعتذار، ولكنه لدهشته لاحظ أنَّهم لم يلتفتوا، ولم يسمعوه. فتساءل: أليس لهم سمع، أم أنِّي فقدت اللسان فلم يسمعوني، وجرَّ كرسياً خالياً، وجلس إلى جانبهم في حرد يحاول أن يجد مدخلاً لائقاً للحديث معهم. وفجأة لاحظ أنهم يلتفتون إلى أول الشارع المؤطَّر بالعواميد الرخامية. كانت اللهفة في وجوههم وعيونهم وأيديهم، واستطاع أن يميِّز من تمتماتهم كلمة: قادمات... قادمات.

ركز لطفو البصر، فرأى عدداً من الأشباح لم يستطع في البدء أن يميز التفاصيل فيها، فقد كانت الشمس من خلفهم، ولدهشته الصارخة ما إن اقتربوا حتى لاحظ أنَّهن نساء، وأنَّهن أعوذ بالله

عاريات تماماً. ميَّز الثنيات والانحناءات في أجسادهن فأغضى، ولكن الهمهمات والتمتمات ألحّت: قادمات، قادمات، فرفع وجهاً مرتبكاً، ونظر إلى أزواجهنَّ، أو رجالهن من أهل المدينة، ورأى الوجوه المتلهفة والعيون المتشوفة والأذرع الممتدة إليهن يمشين متغنجات في كسل. ولكن واحداً لم يتحرك من مقعده. هبَّ من مجلسه يتأكد أنَّ النساء حقيقيات، ثم تردَّد فقد خاف طعنة غيور من رجالهن، فهو يقترب من نساء عاريات ولكن واحداً من الجالسين على الكراسي لم يلتفت إليه، أو يكترث بالنظر إليه. وصرخ في غيظ يخاطب الرجال: ألا تغارون. ألا ترون أني اقترب من نسائكم العاريات، ولكنه لم يسمع منهم إلا صرخات اللهفة: قادمات. قادمات. قال: أنتم أحرار. أنا لن أغض بصري. واقترب منهن وفوجئ بالوجوه اللامبالية، فصرخ في ارتباك يخاطب النساء هذه المرة: ألا تخجلن ألا تسترن عريكن، ألا تخفن الفضيحة!.. ولكنَّ امرأة واحدة لم تكترث بالالتفات إليه أو الاهتمام بما يهرف به.

أحس بغيظ لا يحتمل، فالتفت مهاجماً الرجال على غير عادة منه، ولم يكن له بمهاجمة الرجال عادة وهو يصرخ في جنون: أي نوع من الرجال أنتم؟ نساء المدينة عاريات وليس من يستر عريهن. ودفع أول رجل على أول كرسي في غضب، ولرعبه رأى الرجل يقع وينكشف ما تحت إزاره، لقد كان الرجل من حجر. انحنى فوقه يحاول مساعدته فاستجاب، وكان الرعب، فالرجل لم يكن من حجر، بل كان نصفه الأسفل فقط قد تحجَّر أما نصفه الأعلى، فقد كان منحنياً باتجاه النساء المتغنجات المتثنيات المتدللات العاريات.

دفع الرجل الثاني، الثالث.. ولكنهم كانوا جميعاً قد مسخوا إلى جذوع ما تزال تدب فيها الحياة وأسافل قد تحولت إلى حجارة وألسنة

لا تفعل إلا أن تتمتم: قادمات، قادمات. صرخ فيهم: ما الأمر؟ ما حكايتكم؟ ولكن، واحداً لم يحفل بالرد عليه حتى وهم واقعون عن كراسيهم مرتفعي الأرجل المتصلبة ممدودي الأذرع إلى أول الشارع. فالتفت ليرى سرباً آخر من النساء يتقدم والرجال متحجرو الأسافل يهمهمون في شهوة: قادمات، قادمات. تركهم على الأرض متخلياً عن محاولة إعادتهم إلى مقاعدهم، وأسرع إلى سرب القادمين ليكتشف أنهم مجموعة أخرى من النساء العاريات يمشين متثنيات متغنجات عاريات. فأشاح ببصره خجلاً، ولكن، أعوذ بالله، إنّها المدينة التي من أجلها اجتزت الصحراء، واحتملت الصهد، وعانيت ظمأ ما قبل الموت. يجب أن أعرف أيَّ المدن هي، وأسرع إلى سرب القادمات يتنحنح، ويصرخ، ويسعل يدعوهن للاستتار، ولكنهن لم يأبهن به، بل ربما لم يرينه، فتشجع واقترب منهن شاعراً بارتباك لم يألفه من قبل قط. فأن ترى كل هذه النساء يمشين في السوق دون مرافقين و.. عاريات، كان أمراً أكبر من احتماله، و.. تغلب على ارتباكه واقترب منهنَّ مشيحاً، ولكنهّن تابعن مشيهنَّ المتأوِّد، فهمس يظن أنه يصرخ: ألا تخجلن؟ الرجال يحدقون في عريكن. ولكنَّ واحدة لم تلتفت إليه، فأحسَّ بغضب عارم: ألا تحترمنني؟ ألا ترين أنّي رجل، ألا تخفن مني؟.. وعلى غير رغبة منه وجد يده ترتفع لتلطم وجه الأقرب إليه منهن، ولصعقته التي لن ينساها لبقية عمره ارتدّت يده إليه مصعوقة بالألم، فقد كان الوجه الذي لطمه من حجر. أحدَّ النظر فيهن، وصرخ: يا إلهي، إنهنَّ من حجر، وركض.. ركض لا يعرف كم ركض ولكنّه ركض حتى اجتاز الشارع المؤطّر بالرخام ليدخل في سوق مغطى بالمظلات ورأى الدكاكين مفتوحة والباعة جلوس. أصاخ قليلاً، وسمع الهمهمات، فالتفت ليرى

في أول السوق النساء الحجريات يتقدمن متأودات، فابتعد عن طريقهن ليلحَّ عليه فجأة السؤال: إذا كنَّ من حجر، فكيف يمشين.

اقترب هذه المرة غير آبه برجال السوق الممسوخين. اقترب منهن وتمنعه عتمة السوق من التحديق، ولكنَّ فرجة في المظلات سرَّبت كتلة نور، فاقترب منهنَّ ليكتشف أنهنَّ لم يكنَّ كاملات الامتساخ فلقد مسخ نصفهن الأعلى، أما نصفهن الحائم في الأسواق فقد كان ما يزال من بشر.

تقاذفته الأسواق والبساتين والحدائق، الحمامات والمزارع ولكنه لم يجد في مدينته هذه إلا الرجال الجالسين على مؤخرات من حجر، وأسراباً من نساء مسخت جذوعهن إلى حجر.

فتش عن إنسان واحد، إنسان يستطيع التحدث إليه، سؤاله، معرفة كيف تحولت هذه المدينة إلى هؤلاء الممسوخين. وفجأة ألحَّ عليه الخاطر: ماذا لو بقيت في هذه المدينة، ستكون الملك على مدينة فيها كل شيء، الطعام بالأكوام والأنهار تحدِّق وتطوف بكل مكان، والنساء مصطفات بالطوابير، ولكن، وأحسَّ بالاشمئزاز: نساء من حجر.

اقتعد أرض الساحة متظللاً بشجرة صفصاف تغطي جانباً من البحرة النافثة رذاذاً من ياسمين حين خطرت له فجأة فهمس محترقاً بشوق لم يطفئه شيء في العالم، فهمس: فرتنى.

وفجأة وكأنّه نطق بالاسم الأعظم، الاسم السري الذي إن عرفته استطعت تحريك الجبال وتجفيف الأنهار. فما إن همس باسم فرتنى حتى رآها تبتعد، حاول التمسك بها، التشبُّث بها، ولكنَّ أصابعه كانت تتزلق والمدينة تبتعد، برجالها الحجريين، بنسائها الحجريات، بأسواقها المظللة وشوارعها المؤطّرة بعمد الرخام،

ببحرتها وأشجارها، بقصورها وحدائقها. أخذت تبتعد، ويركض يحاول اللحاق بها، ولكنها أبداً لم تتوقف، بل ظلت تبتعد وتبتعد حتى غابت وراء الجبل.

انثنى على نفسه مخذولاً متعباً مرتبكاً لا يصدق ما حدث ليرى طنبوره إلى جانبه، فيحمله ويعود.. إلى فرتتى.

غطس في البحرة يسمي بالله، وينوي الطهارة من كل دنس، ثم غطس ثانية مخللاً شعره بأصابعه يتأكد من الماء ووصوله إلى جذور الشعر، سمَّى بالله ثانية، ولكنه وهو يغطس تحت الماء رآها تقول: رفقاً برفيقك في الطيران.. رآها جادَّة النظرة لا تضحك ولا تسخر، رأى النظرة السوداء القوية تنقل رسالة لم يستطع إلا أن يصدقها، أراد أن يخرج من تحت الماء حين رأى القفصين معلّقين، ورأى قضبان القفص، ورأى بشراً، بشراً كثيرين متعبين يائسين يمشون، رآهم من خلال قضبان القفص وقد قطّعتهم القضبان شرائح طولية، فشهق مرعوباً، فقد عرفهم جميعاً واحداً واحداً، عرفهم بحزنهم وانكسارهم وأحسَّ بالغصة والخنقة، وقبل أن يدركه الدوار رفع رأسه منتصباً في البحرة.

نفض رأسه، فانفتحت العينان المغلّلتان بالماء، ورأى الباحة المتربة وورق الشجر اليابس لم يكنس لأيام، وعرف أنَّ ما رآه كان خيالاً، فحاول الابتسام يشكر الله أنَّ ما رآه كان خيالاً. تسلّق سور البحرة بعد تطهره، ونظر إلى السماء، فرأى الفجر يكاد يأزف، فتمتم: يجب أن أسرع بالتجفف، فهواء المئذنة العالية قد يصيب بالبرد، وللحظة تمنى شراباً ساخناً، ولكن.. إنه وحيد في البيت، لا أم ولا زوج ولا أخت هناك، وإشعال النار الآن و.. و.. وصرف النظر عن الفكرة.

انتصب من جلسته على الكرسي الطويل، فأحسَّ بدوار خفيف

حين رأى قضبان القفص، ورأى شرائح البشر المقطّعة طولياً.. عرفهم جميعاً، ولكن حين حاول أن يحدّد أسماءهم لم يستطع، فاستند إلى شجرة النارنج، ولعن السهرة ولعن بلابل ونبوءاتها السخيفة.. سمع صوتاً من بعيد يصلي على النبي وآله، فابتسم. لقد سبقه أبو مصطفى إلى المئذنة، فقفز إلى قمبازه يلبسه بسرعة، وإلى عمامته الخفيفة يتعمّم بها، ومضى إلى المسجد يهرول.

كان حظ لطفو خيراً من حظه، ورغم إصراره على لفت انتباههم وتغريده وتجويده يغني:

عليَّ وعندي ما تريد من الرضا	فمالك غضباناً علـيَّ ومعرضا
وما قد جرى حاشا الذي كان بيننا	من الوِّد أن يُنسي قديماً وينقضا
أظلُّ نهاري كله متشوقاً	لعل بشيراً منك يقبل بالرضا

إلا أن بلابل كانت تحدق في لطفو، وأحس بالقهر، فهو معلّم لطفو، هو من صحبه إلى الزاوية، وهو من قدّمه إلى الفتيان، وهو من يوجهه في دروب الحياة. ولكن ما الذي جعل بلابل تنسى الجميع وتهتم بلطفو الذي يعرف الجميع أنّه العبد المطيع لفرتنى، ولو أنّها أشارت بأنملتها الصغيرة إليه لما رآه أحد منا في هذه السهرة.. ثم لا تكتفي بلابل بهذا، بل تخلع سواراً من يدها لتهديه له لولا أن انتخى الجميع واشتروه منه بثلاثة أضعاف ثمنه وأعادوه إليها، وهو.. هو، الشيخ أحمد سيد الغناء لا يجد من يلتفت إليه: ما الذي جرى لهذا العالم.

دفع باب المسجد بعد أن دسّ فيه مفتاحه الخشبي الكبير، وهرول يريد المئذنة لولا أن رأى البحرة فتذكر، سيجيء المصلون ولن يجدوا ماء في البحرة، فهو من أفرغها بالأمس ونظّفها، ثم تركها تجفُّ، قفز إلى البحرة، ونزع الخازوق عن الفتحة فاندفق الماء، سدّ

البالوعة واتجّه إلى المئذنة يشكر حظه أن لم يطفئ سراجي الرواق. اكتفى بإطالة الفتيل ومضى إلى المئذنة، دخل في عتمتها يحذّر نفسه من الدرجة السابعة عشرة. إنها الدرجة المكسورة التي طالما خذلته حين يسهو عنها، ولكنها لن تخذله هذه المرة، السابعة عشرة، السابعة عشرة، كم درجة تسلق حتى الآن، خمس عشرة؟ لا.. لقد تجاوزها. إنّها الثامنة عشرة، تحسّس الدرجة، ولكنها.. أووف. لقد خدعته ثانية، فلقد انزلقت قدمه عن الدرجة وكاد يلطم الدرج بوجهه لولا أن تمسك بالجدران المحيطة، وصعد. أعوذ بالله. أليس من نهاية لهذا النصيب. لقد تقدم لمسابقة الخطيب أربع مرات حتى الآن، ولكنهم في كل مرة كانوا يرفضونه، ويعود المؤذن والخادم، ومالئ البحرة بالماء، ومشعل الأسرجة في الليل، وكانس السجاد في الجامع أووف.. والمغني المتخفي في السهرات سعياً وراء بعض القروش يجمعها، فلعله مستطيع يوماً الزواج والخلوة مع النفس قليلاً لإنجاز مشروعه الكبير.. أووف يا رب. لو يستطيع الهرب من تكاليف الحياة لبضعة أشهر ينجز فيها كتابه الكبير (الشفة والفم إلى كتاب الأم) ما أجمله عنواناً.. الإمام الشافعي وضع كتاب الأم.. وهو.. سيضع كتاب الشفة والفم إلى كتاب الأم. لقد جهّز الأفكار كلها، المسائل التي سيسألها، والتي سمع الناس يسألون عنها، الجدليات اليومية بين هؤلاء الأروام من الأحناف الذين قدموا المدينة يجادلون في أشياء أعوذ بالله.. إنها المسلّمات، ولكنه حمق الأروام، وبين أسيادنا من السادة الشافعيين، سيقول الكلمة الأخيرة وستكون الرد المفحم للجميع، ولكن.. ونظر من كوّة المئذنة، فرأى المدينة تتمطى، وبعض القناديل تشتعل، وأكمل.. لو.. لو.. انتقيت أربعين أو خمسين حديثاً نبوياً من تلك التي تهمُّ الناس طبعاً، من

الضروري أن تهمّهم كي يصبح الكتاب رفيقهم اليومي في بيوتهم.. فقط لو يحصل على بعض الوقت لينتقي هذه الأحاديث ويصحّحها ويوثقها ويعنعنها.. لا.. سيخفف من العنعنات، فعلى الكتاب أن يصل إلى الناس العاديين، العوامّ، فهم من يذيع أمر كتاب أحبّوه. سيكتفي بالراوية القوي الشهير لا يجادل فيه اثنان، سيكون حديث الناس ومفخرة أهل الحي وجيرانه، جيرانه؟ هل سيرضون عنه وهم من عرفوه الفقير الضعيف أجير الفوال والخضري صغيراً؟ هل سيستطيعون احتمال أن يصبح العلم؟ مختارات أحمد! يا سلام عنوان جميل، لا.. الأحمد في مختارات أحمد، ولكن دخيلك يا رب، بعض الوقت، وبعض المال أنفق منه حتى إنجاز الكتاب ولكن. كيف، كيف. لقد غامر بصوته المقبول في الغناء عند بعض الأصدقاء سعياً وراء بعض القروش يداوي بها جراح الحياة، ولكنها مغامرة هو يعرف أنّها مغامرة، فأن يغني للساهرين وللسكارى سعياً وراء المال السريع ربما كان الكارثة، فما يدريك ربما حتى لو وضع الكتاب الكبير، الكتاب الحلم الذي سيخرجه من وهدة التفاهة إلى جنة المعروفين والمهمين وأعلام البلد الذين توكل إليهم الأوقاف الغنية، وقف الخانقاه البدرية. أو وقف المدرسة السيباهية، أو وقف جامع يلبغا، فيشبعون لحماً وسمناً وخبزاً أبيض وقبلا على اليدين، قبلاً تجعل المرء يحسّ بأهميته وحصوله على مكافأة العمر المنتظرة، أووف! حتى لو وافقه الحظ، وحصل على كل هذا، فما الذي يضمن ألّا يقوم واحد من هؤلاء الساهرين الساكرين.. بل.. ربما لطفو نفسه، أو أبو القاسم صديقه الشاعر، بل ربما بلابل نفسها بالوقوف أمام الناس وتتفجر الفضيحة.. عالمكم، محدثكم، فقيهكم كان مغني السكارى. وتتفجر الفضيحة ويسقط. العلم،

ويخسر حتى الأذان في المسجد. ولكن.. أعوذ بالله.. ما العمل، أنا بحاجة إلى فعل كبير، شيء يخرجني من هذه الحفرة اللعينة، حفرة الفقر، وحفرة مؤذن الجامع، وحفرة المغني السري في سهرات الأصدقاء.. لقد دمَّرت حياتي، دمَّرتها فعلاً، الدروب مسدودة، فكيف لي أن أخرج منها.. إلى .. لو.. أتعرف إلى الوالي، أو المتسلِّم، أو شاد الطبلخاناه، أو السلاح دار، أو الأمير آخور.. .أوف.. لو سمَّاني أبي اسماً معقولاً مناسباً لهذا الزمان، لو سماني يلبغا مثلاً، أو منطاش، أو لنقل تيمور، لكان اسماً ذا رنين، اسماً يجعل العظماء يرضون عني، ولكن حتى الاسم عامي، مبتذل، اسم لن يستطيع حملك خارج الحفرة... أحمد، هه، ابن من؟ ابن محمد. يا سلام وابن من، ابن عبد الله، وكأنه ليس اسماً، إنه الاسم العادي، المبذول، لا صورة ولا هوية، ولا خصوصية فيه.. لو.

وصل إلى المستديرة أعلى المئذنة، ونظر إلى المدينة، المدينة الملتفة بالظلام، نظر إلى الجامع الكبير، لقد أوقدوا الأسرجة الكبيرة العديدة، إنه وقت الفجر، بدأت الصلاة على النبي والتذكير بأذان الصبح تعلو من المآذن، تتسرب إليه ناعمة خفيفة، خفيَّة، هادئة، ورأى المدينة تتمطى، فتمطَّى.. إيه يا أحمد بن محمد بن عبد الله! أيها الرجل المولود في التفاهة، والناشئ في التفاهة، والعائش في التفاهة. في المدينة يسمع الناس الكثير عنها ولا يعرفون أنها منذ أصبحت تابعة لمصر أصبحت المدينة التفاهة لا أمل، ولا قوافل، ولا ثراء، بل الانتظار، الانتظار، لعل شيئاً يتمُّ، فيغيِّر من هذه البلادة، وهاجمه صوت أبو مصطفى يعلن بدء الأذان الله أكبر، الله أكبر، فلم يعد يستطيع الانتظار، فانطلق بصوته الذي يقسم أهالي الحي والأحياء المجاورة كلها على أنه أعذب صوت سمعوه يؤذن، انطلق ينشد:

بك أستجير ومن يجير سواكا ارحم ضعيفاً يحتمي بحماكا

ثم مع نسمة الصبح المنعشة أحسّ بالارتياح الداخلي يعلو، فانطلق يغرد:

أذنبت يا ربي وآذتني ذنوب ماهلها من غافر إلّاكا

وأحسّ بحزن داخلي، فلقد آذته ذنوبه فعلاً، فشجي صوته معتذراً:

إن لم تكن عيني تراك فإنني في كل شيء أستبين علاكا

وأخيراً تنهد

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد

استغرقته الأناشيد التي كانت سبب الاختلاف عليه وحرمانه من فرصة الترقي إلى مرتبة الخطيب.. استغرقته حتى انتبه إلى أنّ المؤذنين الآخرين كادوا ينهون أذانهم، وما يزال ينشد الأناشيد التي تسعد وتطرب مبكري الصباح، وتغضب الخطيب والقاضي وكبراء الحارة الذين يحتجّون: أنت تؤخر الأذان عن موعده.

قطع الأناشيد فجأة، وانطلق يعلن أذان الفجر: الله أكبر، الله أكبر، وما إن انطلق نداؤه الأول للنائمين ينبّههم إلى أنّ الصلاة خير من النوم حتى رآهم على البعيد مبكرين إلى المدينة، وتساءل: من هؤلاء الشجعان المتلهفون يسرون في الليل؟ وما دري أنهم من سيغيّرون حياته بالحديث عن مدينة كانت حلم القرون.. أغمض عينيه حتى لا ينشغل بهم وأكمل: الله أكبر، الله أكبر.

فتح عينيه، وكانت الشمس الصاهدة، فأغمضهما ثانية لعله يستعيد برودة الفجر فوق المئذنة، ولكنه أبداً لم يستعدها، فقد سفعه الصهد حتى كاد يذيب مخه، فتح عينه وتلفت من حوله يبحث عن ساعي الصباح، ولكنهم كانوا قد ابتعدوا متفرقين

يبحثون عن المدينة الهاربة يعرفون أنّها لن تتجلى إلا لمشتاق لا يملك إلا الشوق.

كان قد تتلمذ على الشيخ تقي الدين، وتتلمذ على الشيخ ولي الدين، وجلس طويلاً بين يدي الشيخ سعيد الدين، ولكنَّ الحياة كانت تختلسه دوماً ولا تمكّنه من إطالة التتلمذ والإقامة بين أيديهم، فقد كان هناك الجامع وخدمته، والجامع بعيد عن أسيادنا من فقهاء الشافعية، وشارحي كتاب سيبويه، ومعاني الكسائي.

كان حين يجالس لطفو وحيدين، وقبل المضي إلى ساهري الليل وارتكاب الشيخ أحمد حياته السرية في الغناء للسكارى والسهارى، كان يثرثر مع لطفو متفضلاً ومتنازلاً قليلاً عن دوره كطالب علم يضطره الزمان إلى الحديث مع العوامِّ الذين لا تمكّنهم ظروفهم من الفهم الجيد لما يتحدث به. كان يحدثه باحتقار عن علماء المدينة هؤلاء الذين اكتفوا من الزمان بقراءة كتب من سبقهم من العلماء، وحفظها و... ،.. أحياناً، يهنف ساخراً: شرحها وتفسيرها ـ وأحياناً قليلة جداً إضافة مسائل صغيرة استجدّت، ولم يدركها أولئك السابقون العظام.

ثم يتنهد ويقول: ولكن ماذا يعرف الشيخ تقي الدين عن أرسطوطاليس؟ وكان يبتهج حتى ما قبل النشوة حين يرى عيني لطفو تتسعان مذهولتين، وشفاهه تردد متعثرة: ماذا .. ماذا قلت.. أرس... ط.. طا.

وكان يصححها بثقة العالم الخبير: أرسطو طاليس، ثم يكمل الضربات الحادة، وماذا يعرفون عن الجيومطريقا والاستاطيقا.. ماذا يعرفون عن البويطيقا والطراغوذيا والقوموذيا.

كان قد تدّرب طويلاً ليحفظ هذه الكلمات، تدرب وردّدها مع

الكتاب ومع نفسه حتى حفظها ليطلقها قذائف علم تصيب سامعها بالدوار، وكان سلاحاً مجرّباً مع الكثيرين من أهل الحارة، ولكنه ما كان يمارس هذه المعركة غير المتكافئة إلا منفرداً ومع مستمع واحد، وكان يحس بقامته القصيرة المتضائلة وهي تتعملق مع ضربات أفلاطون وأنالوطيقا والسوفسيطيقا والريطوريقا، ولم يكن ليمارسها مع أكثر من واحد أبداً، فقد كان يخاف النقاش والمحاججة واحتمال أن يكون واحد من المستمعين قد وصل إلى ما وصل إليه.

وتتهد يجابه وهج الصحراء الحارق، تتهد يتمّنى غصناً من شجرة يابسة يقعي تحته إلى أن تنقضي ساعات القيظ هذه، ولكنه حيثما أجال نظره لم ير إلا انثناءات الكثبان البيض تتقلب وتتدلّل كامرأة متدلّلة تتقلّب في سريرها قبل أن تنفلت منه، وأعجبته الصورة، وتمنّى لو كان يحمل قلماً لكتبها، ولكن.. كتبها.. كتب يكتب كتابة، كاتب، مكتوب كتاب. الكتاب، الكتاب، وتتهد في حرقة، الكتاب تلك اللعنة التي دخلت حياتي لاكتشف أني لست الغارق في وهدة التفاهة فقط، بل ربما لن أحظى قط بفرصة للخروج منها. فأين يمكن لك في هذا الزمن الأصعب بعد أن أحرق الجغتائي الأول الكتب، وكتب الكتب، وشروح الكتب، وتفاسير الكتب، والكتب عن الكتب، فلم يتبق لنا إلا القشور؟ يقولون إنّهم هناك في أقصى الغرب، في الأندلس ما يزالون يحتفظون بخزائن من الكتب، ولكن من يستطيع الوصول إلى الأندلس؟ ويقولون أيضاً إنهم في مصر رغم أنّ السلطان لا يحب إلا الكتب التي تعرف حدودها فلا تشتطّ، ولا تبتعد، ولا تجادل في الأيس والليس، وضحك في سره.. وهذه أيضاً كم صدمت بها المستمعين، فتعاطفوا مع حظي الذي

حرمني من منصب الخطيب، واستبقاني المؤذن والخادم.. ايه، ولكن من يستطيع المضيَّ إلى مصر مفلساً، يمضي لينافس علماء مصر والأزهر الكبار، ثم يسائلهم عن الكتب التي لا يحبها السلطان والتي يخفونها للزمان؟

كان، وفي ضربة حظ لا تحصل إلا مرة في العمر، ولواحد من الناس فقط قد عثر بتلك العجوز الارملة التي قتل الطاعون زوجها وأبناءها وعبيدها، ولم يترك لها إلا شيخوختها، وخزانة من كتب كانت تبيعها كتاباً كتاباً تتعيَّش من ثمنه في انتظار أحد الفرجين، كان قد عثر بها في سوق الوراقين، وكانت قد أخطأت هذه المرة، فلم تحمل كتاب الأغاني، ولم تحمل كتاب الأم، ولا البيان والتبيين ولا الحماسة، ولا الكامل، ولا كتاب السيرافي في شرح كتاب سيبويه، ولا كتابه في الاقناع في النحو. لم تكن قد حملت إلى السوق كتاب ابن درستويه، ولا كتاب أبي علي الفارسي، ولا كتاب العين للفراهيدي، ولا كتاب معاني القرآن للكسائي، بل حملت كتاباً عن الكتب، ومن يريد كتاباً عن عناوين كتب أحرقها الجغتائي وأغرقها في دجلة.. وهكذا مرَّت بالكتاب على الوراقين جميعاً، فاعتذروا وتعثَّر بها الشيخ أحمد، وطار عقله بالكتاب، وسعدت كثيراً لوجود مشترٍ لكتاب لا شاري له.

وسيؤرخ الشيخ أحمد لحياته قاسماً إياها إلى شطرين، شطر عاشه قبل الوصول إلى (الكتاب) و(الكتاب) هذه معرفة بال الجنس، فالكتاب كان كنز المعرفة الذي ادَّخرت به البشرية كل معارفها، وكل تأملاتها، كل كنوزها، بل كل أحلامها ورؤى مستقبلها و... شطر سيعيشه بعد (الكتاب).

شهور طويلة انقضت ابتعد فيها عن الساهرين والساكرين وليالي

الطرب السرية، شهور قاسى فيها الضنك، فلم يكن له من مصدر رزق إلا دراهم خادم الجامع ومؤذنه، ولكنها كانت الشهور الأكثر سعادة في حياته، الشهور التي دخل فيها إلى مدينة العلم، فعرف أن هناك علماً اسمه الجيومطريقا وعلماً اسمه البويطيقا، وعلماً اسمه أنالوطيقا. ولكن أعوذ بالله لقد عرف بوجودها فقط، ولكن. أين. أين وهو الغارق في وهدة خادم الجامع يمكن له أن يصل إلى هذه العلوم؟

حاول التحرش بالعلماء، مساءلتهم واستكشاف إن كانوا يعرفون عن أصول هذه العلوم، ولكنه جوبه بالاستنكار والتأفف، فما لهذا التلميذ الجاهل وهذا العالم الكفري الذي ابتعد عنه أسيادنا منذ أن عاد إليهم العقل بضربة الجغتائي الذي أرسله الله عقوبة للناس لإمعانهم في التمرد والزندقة والابتعاد عن علوم الدين والمعاد!

عاد الشيخ أحمد إلى (الكتاب) يغازله ويقارئه، ويتساءل: كيف يمكن و.. هل يمكن للإنسان أن يصل يوماً إلى الإحاطة بكل ما في هذا الكتاب من كتب؟

(الكتاب... الكتاب، تنهّد في حرقة وهو يفتح عينيه، جرع جرعة من قربته التي استبقى ما فيها حتى التصبر الأخير، فهو يعرف أن الرحلة ربما طالت، وما كاد ينزل القربة عن حلقه حتى رآها، ولم يصدق عينيه فأغمضهما، وفتحهما يجلوهما ويتأكد إن كان ما يراه حقيقة، أم أنها أمنيات السراب، ولكنها.. كانت هناك، بسورها الأبيض الوهاج، وذؤابات نخيلها المتأرجحة.. أحدّ النظر، ونصب كفه فوق عينيه يحميهما من الوهج، ويتأكد ولكنها كانت هناك. بحث فيما حوله يريد هذه المرة أن يراهم، أولئك الذين

رافقوه في الخروج بحثاً عن المدينة الهاربة، ولكنَّه لم ير أيَّاً منهم. فكل ما رأى كان تثنيات الرمال، والتي لم يستطع هذه المرة أن يشبهَّها بالمرأة المتدللة تتقلب في سريرها قبل أن تتفلت منه، إذ لم ير فيها إلا الخلاء.. أنت وحيد يا أحمد.. أنت والصحراء ومدينتك المنتظرة آخر الأفق.

اندفعت ساقاه تعدوان. اندفعتا تحلمان بالمدينة ماتت الأجيال ولم تعثر عليها. ها أنت تراها أمامك بسورها الأبيض الرائق، ها هي هناك بذؤابات نخيلها تتأرجح، ها هي بعزيف الريح في شوارعها تدعوك، وركض، ركض والشمس تتسامق، ثم تبدأ بالركوع، وهو يركض ويخبُّ ويلهث والمدينة لا تقترب، ولكنَّه كان مصمِّماً، سأصل إليها، سأدخلها ولو كان الموت ثمناً للوصول إليها.. يجب.. وأخذت الشمس بالركوع. وعرف، عرف المعرفة التي لا شك فيها أنَّه إن لم يدركها قبل الغياب فلن يدركها أبداً، و... استجمع آخر ما في قلبه من رغبة، وآخر ما في ساقيه من قوة، واندفع يعدو، والشمس تتهاوى. وقبل أن تسقط سقطتها الأخيرة قبل الجبل وجد الشيخ أحمد نفسه يستند على إطار الباب من الداخل، فارتمى يلهث وما يتمنَّى إلا قطرة ماء تعيد إليه الحياة، وظلاً يحميه من الصهد العظيم، وأغمض عينيه.. وحلَّ ليل.

حين فتح عينيه كانت الشمس قد استعادت غضبها في المدينة فتحول بمجلسه قليلاً يبتعد عن سياطها، ولكنها لم تتراجع، فاضطرَّ إلى القيام. شدَّه حفيف بحرة قريب فمضى إليها يغتسل ويشرب، ولكنَّه بجانب عينه رآهم، وقورين، أجلّاء يتأبَّطون مرافقيهم ويملون.. سمع كلاماً عن كهف وسكان يعيشون فيه، ولكنَّ عيونهم متجهة إلى داخل الكهف فلا ترى إلا ظلال ما يجري

هناك في الخارج. ولكنَّهم لا يعرفون أنَّها الظلال، بل يؤمنون أنَّ ما يرون هو الواقع ولا واقع سواه، ولم يفهم ما يريد المملي على مريديه، فجفَّف فمه من بقايا الماء ومضى، فرأى شيخاً أصلع يأتزر ملحفة بيضاء وينتعل نعلاً مهترئة ووراءه شبان وأحداث كثيرون يتحدث ويكتبون ولم يستطع فهم الكثير مما سمعه.

مضى قليلاً، أعوذ بالله، أيُّ المدن هذه إذن، ورأى شيخاً أشبه ما يكون بالشحاذ في أسماله يمشي وبيده فانوس في أوج النهار، وكاد يسخر من حماقته لولا أن رأى الناس ينظرون إليه في إجلال، ولا يبالي بهم.

مضى الشيخ أحمد والحيرة تتأكله. ها هم يتحدثون بلغة لا يفهمها، ويلوِّحون بأياد لايفهم معنى تلويحتها، ولكنَّهم كلهم فقراء أشبه بالشحاذين. من هؤلاء، وما هذه المدينة؟ أهذه إذن المدينة التي حلم بها وحدَّث عنها المماليك الثلاثة؟ تركهم ومضى ليرى شيخاً أسمر حليق اللحية والرأس ينحني على شريحة بردي يرسم، ويضع المخططات وحوله فتية راكعون في وقار أشبه بالتعبد، اقترب من الشيخ في حنين أقرب إلى الحنان تحس به لجدٍّ عجوز، وهمس في احترام: السلام عليكم.. ولكنَّ الشيخ لم يرد، أو لم يسمع، أو سمع ولم يفهم، وحين لم يردَّ امتنع المريدون الفتية عن الردِّ.

نظر حائراً فيما حوله، طريق مبلَّطة وأشجار نضرة ونوافذ مؤطَّرة بمتسلقات النباتات، كل شيء جميل في هذه المدينة. ولكن. من هؤلاء السكان؟ ولم يبدو عليهم هذا الزهد والفقر؟ إنَّ اصغر يلبغا أو منطاش تركه وراءه يستطيع أن يشتريهم جميعاً بثمن حذاء من أحذيته الكثيرة.

تنهد يائساً من التواصل معهم. مشى، ومشى ليرى شيخاً أعمى

يجلس على مصطبة وسمعه يقول:

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر ديِّن لا عقل له

فتمتم مستنكراً: أيها العجوز الأحمق. ألا تخاف السلطان؟ لو سمع الشِحْنَةُ أو المحتسب ما تقول لسلخك حياً، فالسلخ رائج هذه الأيام.

تابع سيره ليرى رجلاً مصلوباً والنار تُعَدُّ من تحته، ومن حوله أناس كثيرون وهم يهتفون.. من يوقف هذا الحمق. من يوقف هذا القتل. وسمع المصلوب يقول:

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

وهزَّ رأسه مستنكراً: أمدينة الحلم هي مدينة الكفر؟ كيف اجتمع هؤلاء الناس على هذا؟.

وعلى جانب الطريق رأى شيخاً زرياً قميئاً يقتلع العشب من الحديقة ويحشوها في فمه في نهم، فأحسَّ شفقة هائلة: لماذا.. لماذا. ماالذي يجبرك على أكل العشب، وشهق في فزع: أهذا أيضاً من سكان المدينة.. ثم تمتم في أسف: أهذه هي المدينة ترك من أجلها المدينة، وسكان المدينة، وأصدقاء العمر.. أعوذ بالله. .. أمن أجل رؤية مثل هؤلاء الناس؟

مضى يضرب الأرض بقدمه في غيظ، مضى لا يستطيع الفهم، قلاوون ويلبغا تحدثوا عن مدينة غير هذه المدينة، أتراه أخطأ المدينة. أين المطاعم المفتوحة وفيها كل طعام تفكر أو فكرت به؟ أين المشارب فيها كل شراب، اشتهيته أو تشتهي؟ أين النساء الجميلات المنتظرات على الأبواب والنوافذ؟. ولكنَّ صوتاً صغيراً علا فجأة:

أهذه هي المدينة التي تريد، مدينة من طعام وشراب ونساء؟ وماذا عن حلم الخلود في كتاب؟

وما كاد ينطق كلمة الخلود في كتاب حتى رآها.. مكتبات ومكتبات. صفوف ورفوف لا تنتهي من كتب، لغات لم يرها، ولم يعرفها، ولم يسمع بها، ولم تذكر أمامه. كتب وكتب، أفقية لكتب مصنوعة من جلود عليها نقوش بالرومية والهندية وبخرابيش تشبه آثار أقدام العصافير، وهتف: وماذا إذن عن كنوز العربية ؟ ماذا عن أسيادنا من الشافعيين، وأسيادنا من الحنفيين، وقراءاتهم للعالم، ورأى في زاوية المكتبة رفّين صغيرين كتب عليهما بالعربية وقرا الأم، وقرأ الخراج، وقرأ الشروح على الأم وقرأ الشروح على الخراج، وقرأ الموطّأ، وقرأ البخاري وقرأ مسلم وقرأ.. .. وأحس بالسخرية الحزينة من نفسه: كتاب من خمسين حديثاً.. أهذا ما يشتجر من أجله كل يوم ابن الحنبلي، وابن الفرفوري، وابن الرومية.. أهذان الرفّان الصغيران فقط؟

وتردد الصدى ثانية: وماذا عن حلم الخلود في كتاب من خمسين حديثاً منتقى، خمسين حديثاً قوية الرواية والإسناد تنتشر بين الناس انتشار..

وصغر الحلم في قلبه فجأة، صغر وهو يرى المكتبات. المكتبات تمتد أمامه حتى آخر ما يمكن لعينه أن ترى.. كيف يمكن لك أن تقرأ كل هذه الكتب.. كيف يمكن لك أن تضيف شيئاً مهما صغر.

وقد سبقوك إلى كل شيء، خمسين حديثاً؟ هه، وشعر بالأسى العميق، صغّرت همتك، وصغّرت حلمك، الخلود في كتاب؟ ردّدها يحس بضآلته. ضآلة العمر الذي قضاه يحلم بأن يصبح الخطيب في

جامع، أو الموكّل على وقف غني. ضآلة العمر الذي قضاه يتمطق بالجيومطريقا والاستاطيقا، وها هي الجيومطريقا والاستاطيقا تقف متحدية لا يستطيع الوصول إليها، فاللغة وتعلمها، والأسرار واقتحامها و..

كانت قدماه تمشيان به في بطء حزين منكسر، بطء أشبه بمشي الأحلام. التفَّ مع زاوية الطريق ليراهم مجتمعين يتحدثون في هدوء وبطء ووقار. يتحدثون في موضوع جليل ولاشك، وبطريقة غامضة عرف أنهم كانوا يحاكمونه. وفي جزء صغير من قلبه عرفهم، وعرف أنّه عرفهم، وعرف أنّه أخذ يشف ويرق ويتعالى على خدمة الجامع والأذان، يرفع صوته لينافس بصوته الجميل المؤذّن أبو مصطفى. عرف أنّه أخذ يستصغر نظرة الدهشة في عيون جيرانه من السمان والفحام وهو يحدثهم عن الأيس والليس والطراغوذيا والقوموذيا، عرف أنّه لابد أن يصل إلى الخلود لو..

وسمع واحداً منهم يقول: لا.. لن يكون.. فيه ضعف في الروح!
وأراد أن يحتجَّ حين سمع آخر يقول: لا.. لن يكون... فيه كسل!
وكاد يبكي يريد أن يعتذر حين سمع من يقول: لا... لن يكون... فيه جبن.

ركع علي ركبتيه، فقد عرف أنّهم يقررون مصيره الآن. عرف أنَّ كل ما مضى من عمر التفاهة قد انقضى، وأنَّ عليه الآن، فهذه هي فرصته الوحيدة كي يخرج من وهدة التفاهة، أن يفعل شيئاً. مدَّ ذراعين راجيتين حين سمع الكهل الممزّق الثياب آكل حشائش الأرض يقول: لقد علق بروحه الكثير من التفاهة والكثير من الدنس.

وقال آخر: عليه أن يطهر منها.

وسمع صوته ينفجر قائلاً: كيف؟.. أنا مستعد لفعل أي شيء

وأدخل عالم الخلود في كتاب.

وكصدى لصوت عتيق سمع بلابل تقول: في قفص تطير، وعلى الجمال تطير، وفي أرض البياض تطير.

وهزَّ رأسه في استنكار: لا، لم أكن المعنيَّ بالنبوءة. إنه لطفو.. لطفو.

وقال الشيخ الأول: لابد من محرقة كبيرة لتطهر هذا الصغار، وهذا الدنس.

وقال الثاني: ما أغرب الإنسان. كيف يستطيع أن ينحطَّ بالنور العظيم إلى العطَّاب الرطب.

وقال الأول: كل عطَّاب يشتعل إن لقي النار المطهِّرة.

فقال الثاني: ولكن أي نار يمكن أن تطهِّر كل هذا الصغار؟

من آخر الحلقة سمعوا صوتاً يقول: النار التي طهرت هومير الشحاذ الأعمى.

فقال الأول مستنكراً: حريق مدينة؟

فقال العجوز حتى الرثاثة: لا شيء أقل!!

التفتوا جميعاً إلى الشيخ أحمد كأنما يستفتونه، فوجد لسانه ينطلق في خفة: فلتحترق المدينة وأكسب الخلود في كتاب.

ما كادت الكلمات تنفلت من شفته حتى سمع الحفيف، وسمع العزيف وسمع الرفيف، ثم انفجر رعد بعيد، فالتفت مرعوباً يتساءل عن الخطأ الذي قال، أو ارتكب، ورآها تطير. حاول التمسك بها، ولكنَّها بهدوء كانت تنزلق، حاول اللحاق بها، ولكنه كان كمن يتشبث بغبار الشمس. طارت وتركته واقفاً في مملكة الصهد يتأملها تبتعد وتبتعد حتى غربت وراء الجبل.

حين رآها أول مرة لم يصعق، ولم يتعرق، ولم يصب بالسكتة اللسانية كما يصرّح عادة العشاق، بل نظر إلى وجهها الذي كشفت عنه، وإلى يدها الممدودة تعطي السلام، وانهمرت الأفكار سريعة: ماذا تريد منه هذه المرأة التي تسمي نفسها فرتنى؟

أزاحت الملاءة عن بقجة فتحتها ليرى الصندوق، وكان عليه الآن أن يصعق، وأن يتعرق، وأن يصاب بالسكتة اللسانية. كان يعرف أنَّ الأمر صعب، فأن تكون الشاعر الأول في مدينة لم تستبق من أنشطة العقل إلا كتب الوفيات وقول الشعر كان يعني أن تنافس الجميع في قول الشعر، الشعر الذي كان نشاط المشائخ والأئمة والقضاة وكتبة السلطان، بل.. حتى الجزار والعطار والنخاس كانوا يقولون الشعر. وتحول الشعر إلى لعبة لها أساتذتها ومريدوها ومروِّجوها والمستفيدون منها، لها أسنانها ومخالبها وعضّاضوها. فأن تنظم قصيدة وتقنع عشرة من المستمعين بالإصغاء إليها كان يعني أن تنتقل من سلك العوام إلى جنّة الخواص الذين سيكتب عنهم بعد وفاتهم في كتب الوفيات: وكان شاعراً مفلقاً طبّق السماكين وملأ البرّين بقصائده. ثم يذكر له بيتان جميلان مما قاله. وهكذا لن يموت بموته، بل ستحتفظ به كتب الوفيات حياً إلى يوم القيامة!

كان أبوه تاجر الفلفل والقرفة سيِّداً من سادات السوق وشريكاً في قافلة أصفهان السنوية، ومورد القرنفل الوحيد في الديار كلها، محسوداً من الجميع، فلديه البيت المريح والعبيد المطيعون، والزوجة

الصالحة، والبنات الجميلات، والصبي المنفتح على كل الوعود، كان مخلصاً لعادات المدينة فعلى التاجر الصالح أن يكون المثقف أيضاً، وهو لا يفتأ يكرر الحديث النبوي: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية-   وقد أقام هذه الصدقة الجارية سبيلاً للماء يشرب منه الصادر والوارد في السوق – أو ولد صالح يدعو له-   وكان لديه الولد الصالح الذي لم يدعه باسمه محمد أبداً، بل جعل الجميع وهو أولهم يدعونه بأبي القاسم، وكان يعدُّه ليكون الصالح والعالم والصدقة الجارية معاً – وكان يكمل الحديث منتهداً-   أو علم ينتفع به.

هذا العلم الذي ينتفع به التزم به الأب منذ شبابه المبكر مخلصاً لعادات المدينة أو ما تبقى منها، وكان قد هيأ كراريس وكراريس كرَّسها لمتوفي المدينة والديار وبلاد المسلمين. كان يتسقَّط أخبار المتوفين سائلاً عن المهمين منهم فقهاء ومحدثين وشعراء ومفسرين و.. مجذوبين، يكتب عنهم واحداً واحداً ذاكراً كلَّ ما يعرف أو يعرفون عنهم، محتفلاً بهم، ومضخِّماً في فضائلهم، يتمنى أن يجد بعد وفاته من يضع اسمه في كتب الوفيات، وكان ينظر إلى ابنه أبي القاسم في فخر. فهو من سيجعل المسلمين يطلبون له الرحمة حين يرون صلاحه و.. كتاب الوفيات الذي أعدَّه سيكون الدليل له يكمله بما يراه ويعيشه من وفيات.

لم يكن الأب فريداً ولا بدعاً في وضع كتاب الوفيات فقد كان لكلِّ حارة وكلِّ حي وكلِّ طائفة من المهنيين مؤرِّخها وكاتب وفياتها، ولكنه كان المتفرد في جعل وكلائه ومراسليه وزبائنه في الأقطار البعيدة يرسلون إليه بآخر أخبار النبلاء والأعيان والشعراء والكبراء المتوفين ليضيفها إلى كتابه.

ومن الغريب أنَّ انشغال الأب والآباء الآخرين في الحارات الأخرى والمدن الأخرى بكتب الوفيات شكلاً مركزياً للكتابة والإبداع متخلين عن أجيال سبقتهم في الاهتمام بعلوم أكثر أرضية لم يكن زهداً حقيقياً في الحياة، فهؤلاء الذي كرّسوا أنفسهم للوفيات والمتوفين وإنجازاتهم في حبِّ الله وحبِّ ما بعد الموت. و... أحياناً في قول بعض الشعر المشايخي السقيم، كانوا هم أنفسهم الوالغين في الخطايا الأرضية حتى الأذقان. فلقد استطاع الرعب المزدوج من الجغتائي البعيد المهدد، ومن السلطان المقيم المتوعِّد أن ينشر بينهم الطمع والجشع والملذات الحسية، بدءاً من شهوة الغلمان، وانتهاء بالعبودية أمام السلطان.

حين رآها أول مرة كان أبو القاسم قد جعل أحلى سنوات عمره من خلفه، أحلى سنوات الشعر والفتوة والحب والهجر ولوعة الفراق. كان قد وضع قصائد تحرِّك الحجر في وصف الطبيعة، شجر الحور والأنهار السبعة والطيور على أغصان الغوطات السبع. كان يريد أن يصبح اسمه أبو القاسم الفستقي، فلقد أحبَّ الفستق وتغنى به حتى ظنَّ أنَّه أحاط بكل شيء فيه، أوراقه الجميلة ككفٍّ صبية لم تدرك الحلم، أزهاره المنتفشة كأشواك قنفذ نائم، عناقيده الخضر كالزمرد، ثم الحمر كشفاه الحبيب، كان يريد لاسمه أن يصبح أبو القاسم الفستقي، ولم لا، أفلم تسمِّ كتب الأدب شاعر حلب بالصنوبري؟ وهو يعرف أن الصنوبري ربما كان الشاعر الأكبر لو لم يعاصر الشهاب المريع المسمَّى بالمتنبي أما هو.. فلا.. الحمد لله.. لا.. ليس من شاعر على قدر المتنبي ولا نصفه ولا عشره يعيش في أيامنا. إذن فسأكون الشاعر الأول.

تعب على نفسه والحق يقال. أرق الليالي يكتب الشعر. ابتعد عن

المديح فهو يعرف أنّه الخطوة الأولى لسقطة الارتزاق. ابتعد عن الهجاء رغم معرفته بأنّه الخطوة الأولى للذيوع. ولكن مروءته أبت عليه سلوك هذا الطريق، فقرّر أن يتفرّغ للشعر الصافي، الشعر البعيد عن شعر المشايخ وكتبة السلطان، الشعر البعيد عن التغزل بغلمان لم يشتههم يوماً، وهو يذكر ضاحكاً أنّه خرج إلى السوق مرة وقت العصر وانتظر التلاميذ يخرجون من الكتّاب، فشحن نفسه بكل العواطف، واستذكر كلّ شعر قاله قاضٍ أو فقيه، أو حتى أبو نواس أو صريع الغواني في التغزل بالغلمان. قال: يجب ألا أترك هذا الميدان بعيداً عن متناولي... لست أقلّ موهبة منهم. انتظرهم، وخرجوا. صبية بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، بعضهم معمّم، وبعضهم يلبس الطاقية البيضاء... نظر إليهم يهيج نفسه ليقول الشعر فيهم، ولكن... أعوذ بالله، أي شعر! وبهؤلاء المتشردين ممّن علت وجوههم قطرات العرق المغبر، وتهدّلت شعورهم المزيّتة على جبينهم وتوعّثت قمصانهم خارجة من شراويلهم، وتهدّلت قنابيزهم التي مزّقها العراك.

نظر إلى عيونهم الجائعة والعنيفة المستعدة للعراك في كل لحظة، نظر إلى أقدامهم في بوابيجها وقباقيبها مكسرة الأظافر ملوثة بوحل يابس، وأحس بنفسه يضحك: أبمثل هذه الحيوانات يقال الشعر!

في طريق عودته تساءل: كيف قال كل أولئك الشعر يتغزلون بحيوانات متعرقة مثل هذه؟ ومنذ تلك الزيارة أوقف المحاولة. قال: لابأس بأن أتخلى عن هذا الميدان. وليكتبوا عني بعد وفاتي: شاعر لم يتغزل بالغلمان.

كان قد أنجز قصائده الأولى في الخامسة عشرة من عمره، وكان قد وضع فيها اللبنة الأولى لاسم المستقبل الذي يحلم به.. أبو

القاسم الفستقي. كان قد وضع ثلاث قصائد تتغنى بالأترج أعجوبة الجمال التي اصطدم بها أول ما فتح عينيه على الحياة. ثم وضع ثلاث قصائد عن الياسمين بألوانه البيض والصفر، و... تلك التي سيعشق عطرها حتى الذهول، الياسمين المزيج ما بين الصفرة والبياض العسلي، والتي سماها لقمة العسل. ثم وضع ثلاث قصائد عن الحسون عصفوره الجميل إلهي اللون والصوت. وحين شعر أنه قد تدرب بما يكفي انقض على الفستق فقتله وصفاً وتزييناً ومتابعة وانبهاراً و.. لكنه حين عرضه على جارهم الشيخ ولي الدين الأرزرومي، واهتم به الرجل في البدء، فقرأه حتى النهاية، ثم.. لم يستطع منع نفسه من القهقهة. أهناك إنسان عاقل يضيع عمره في وصف هذه الجمادات؟ أين الحديث عن النساء الجميلات في تفتحهن؟ أين الحديث عن الغلمان وتأودهم؟ أين الحديث عن الخمرة في تلونها وتفقعها وتغيرها قبل المزج وبعد المزج؟.. وحين لاحظ نظرة الاستنكار على وجه الشاعر الصغير سارع إلى القول: أعوذ بالله، أنا لا أدعوك إلى ارتكاب المحرمات، ولكن. هذا هو الشعر ياولدي. اقرأ شعر من سبقوك... من يضيع وقته في الحديث عن شجرة فستق عارية؟ حسن... إن أردت تشبيهها بالجارية العارية، فلم لا تدخل إلى الموضوع مباشرة وتتحدث عن الجارية العارية!

حمل أبو القاسم ديوانه إلى الشهاب المعلولي، وإلى الشهاب الحوراني، وإلى ولي الدين النصيبيني، ولكنهم وكأنما اتفقوا مسبقاً على قولة واحدة أجابوه بالطريقة نفسها وبالتأنيب نفسه، وغرق أبو القاسم في الحزن والحيرة، ولكنَّه وهو العنيد ابن العنيد كما كانت أمه تسميه ما كان له أن يستسلم، وهكذا اعتزل ثانية في الغرفة العلوية في البيت لا يقابل أحداً، ولا يلقى أحداً، لا

يزور ولا يزار، بل يفتق الشعر فقط و.. كرَّس قصائده الجديدة هذه المرة للفستق فقط. الذي كان يرى فيه الجمال الصافي، رائحة ثماره حين تتهرس تحت الأضراس، نكهة فم الحبيب حين تقبله وقد تنكّه بالفستق، انفلاق قشوره الخشبية المغطاة بالحمرة عن كنز الخضرة العطر في القلب وكأنها فم الحبيب قبل أن تلتقم لسانه، و... حمل الديوان هذه المرة إلى الشهاب أبو السعادات المصري الذي كان يزور المدينة للمرة الأولى قادماً من مصر.. إيه.. صحيح أنهم يقولون: الشعر حجازي أو بغدادي، ولكن... واأسفاه فقد مات الشعر فيهما، وأصبح مصرياً أو أندلسياً، وكانت الفرصة لا تعوَّض... عرض عليه قصيدته الفستقية الطويلة، فقرأها باهتمام. كان الرجل محترماً لم يحاول السخرية من سنِّ أبي القاسم الفتى، فلم يقل في أبوية: إنه قد بكَّر في قول الشعر. لم يحاول أن يعظه، ويقول له: كان عليك أن تنتظر بضع سنين أخرى تقرأ وتتثقف وتعيش حتى تكتمل تجربتك.. لا. لم يقل له شيئاً من هذا، بل قرأ القصائد بهدوء وتحت أنظار أبي القاسم الصقرية الذي كان يتصيَّد في صبر ارتعاشة بسمة سخرية ما، أو نظرة لوم ما، أو التفاتة إعجاب ما... أبداً.. كل ما فعله الشهاب أبو السعادات المصري هو أن قرأ، وقرأ، وقرأ، وقرأ، وأعاد قراءة بعض المقاطع، ثم أطبق الكراس، وأغمض عينيه متنهداً، ومال بوجهه إلى البعيد يستفتي نفسه ويحرك حنجرته الناتئة صعوداً وهبوطاً، وأخيراً لم يعد أبو القاسم يحتمل، فأصدر آهة استحثاث: همم.

وفتح الشهاب عينيه في أناة ولي من أولياء الله، وقال: قماشة شاعر، قماشة أصيلة... وصمت.

وهمهم أبو القاسم ثانية: وبعد. فأكمل الشهاب المصري قائلاً:
ولكنك تهدر موهبة . حرام أن تهدر.

- كيف

- المواضيع التي تختار. لا.. ليست هذه مواضيع الشعر. لديك الجناسات الرائعة، والطباقات المذهلة، والتشبيهات الفاتنة، ولكن.. فيم... في أي موضوع... في شجرة فستق! أنت يا ولدي كالشاب الوسيم الفاتن الملتهب يضع شهوته في أتان.. قال كلمته في هدوء وثقة وحزم، وتركه مستسلماً حيث كان لا يستطيع حراكاً.

أقسم أبو القاسم على ألا يعرض شعره الجديد على أي من أولياء الدين أو الشهابين، أو القلم دارين، وانكفأ على نفسه في غرفته العلوية تلك يعتزل الناس ويبكي، فها هي أحلامه تضيع، وهاهو مستقبله يتحدَّد أمامه من جديد، فلو عرف أبوه برأي الشهاب أبو السعادات المصري فيه، فلن يتركه يوماً واحداً بعد اليوم خارج السوق، فهناك الرزق معروف، وسعر الشراء معروف، وسعر البيع معروف. وهناك الكتاب الخالد بدأه جده، وأكمله أبوه وعليه أن يكمله من بعده. ولا حاجة إلى ولي الدين ولا إلى الشهاب يستفتيه فيحكم له بالرواج أو عدمه.

كانت ليلة طويلة تقلّب فيها على وسادة يقلبها طوراً إلى الظهر وأخرى إلى البطن ينأى بوجهه عن الدموع المالحة التي أغرقتها، ولكنَّ الأقسى من ليلته الطويلة تلك كان صباحه التالي حين نزل إلى سوق الورّاقين على عادته كلما سئم العزلة ليفاجأ بالجميع يتحدثون عن الشاب الفاتن الملتهب يضع شهوته في... فستقة، وعرف أن الشهاب أبو السعادات المصري قد أذاع خبر لقائهما وإن حور موضوع الشهوة إلى فستقة، فغضب حتى الجنون، وعاد إلى البيت

ليضع قصيدته الهجائية الكبرى، تلك القصيدة التي انتشرت فجأة في المدينة انتشار النار في الهشيم، هو...... لا يعرف كيف فكّر فيها، وما له عادة بهذا النوع من الكتابة، ولا يعرف كيف كتبها، ولا كيف قالها، ولكنها انفجرت كالنبع المحبوس لسنين تحت أكوام التراب وما يحتاج إلا إلى نكشة.

كانت قصيدة كما يعرف هو أبو القاسم شخصياً كتلة من القذارة يتحدث فيها عن الشهاب أبو السعادات المصري الرجل الوقور العظيم الكبير، ولكن من وجهة نظر عبد زنجي كان قد وطئه في ليلة سابقة، ثم يعلن الزنجي بأنّ هذه الآفة مألوفة في عائلة أبي السعادات، في أبيه، وفي جده من قبل... انتشرت القصيدة وتداولها الجزارون، والعطارون، والبقالون، وطباخو الرؤوس والمقادم في الحارات... انتشرت بين أيدي القلم دار، والسلاح دار، والحاشية، وحاول الشهاب أبو السعادات المصري أن يردّ على القصيدة وهو الشاعر المفلق، ولكنه كان الردّ البارد، ولم يزد على أن زاد في شهرة قصيدة أبي القاسم الفتى ليصبح شاعر المدينة الأشهر يتناسخون قصيدته، ويتبادلونها، ويحفظونها، ويتقاذفون بها.

صار أبو القاسم ضيف السهرات، وصار عليه أن يلقيها قبل كل عشاء وأثناء كل جلسة شراب، وأعجبه العالم الجديد الذي سيق إليه، أعجبته نظرات الإعجاب في الحارات والجادات، وأعجبته وشوشات الصبايا وراء الستائر والنوافذ. أعجبته الجوائز تنهال عليه استرضاء وتحاشياً من غضب محتمل. ولكنّ حزنه الصغير الذي لم يستطع أن يقوله لأحد هو أنّ واحداً فقط لم يطلب منه أن يسمعه قصيدته الفستقية التي كانت سبب تعليق الشهاب المصري عليه، والتي كانت السبب في غضبة أبي القاسم وكتابة قصيدته الزنجية.

مشى يخبط في الرمل لا يحاول أن يفتح عينيه فيكسفهما ضوء الرمل الفاضح. قالت تمدُّ كفها محيية: اسمي فرتنى! وأصيب بالحيرة، فالمرأة التي أعيت أكابر المدينة تمد كفها للسلام، وليس مدُّيد المرأة للتحية عادة، فكفُّ المرأة عورة إما أن تنقض الوضوء إن كانت كهلة، أو تهيِّج الشهوة والإثم إن كانت فتية. فكيف تمد يدها!! قالت: اسمي فرتنى. وسيحدثه الشيخ أحمد دودة كتب الطائفة أنه فتَّش عن اسمها يظنه غير عربي، لكنه وجده اسماً لمغنية مكية وجدت قبل الإسلام.

قالت وهي تضع أمامه صندوقاً صغيراً محلًى بالصدف وخيوط الفضة، فأيقظت بالصندوق ما كان يظن أن لن يستيقظ: أريد قصيدة حب!

كانت قوانين المدينة الصارمة حادَّة لا تساوم، ولا تفاوض، فعلى كل صبي فيها أن ينزل إلى السوق يتعلم البيع والشراء حالما يستطيع الاعتماد على نفسه ليعرف قيمة الفلس والدانق. ولكنَّ أبا القاسم استطاع أن يتهرب من هذا المصير حين أظهر تعلقه بالعلم، فأعفاه الأب من هذا المقدور. ولكن ما لم يستطع التهرب منه، ولم يستطع الأب إعفاءه منه كان الصندوق، فقد كأن على كل أب وبتحريض من الجدَّة والعمَّة والخالة اللواتي لا يتوقفن عن الدعاء للصبي بالبهجة في شهود يوم عرسه، ولأمه بالدعاء لها بفرحها به، أي شهود يوم عرسه، وكان الهمُّ الأكبر للناس، العرس، الزواج، وإنجاب الصبيان والصبيان و... على استحياء البنات والستر.

كانوا قد نسوا الأفراح الكبرى، قوافل التجارات الكبرى تصل إلى الصين، فلقد أوقفها الجغتائيون منذ أن خرقوا السور. كانوا قد نسوا السندباد وسفنه العظيمة تحمل الأفاويه والحرير والعود

والصندل، فلقد صعَّبها الوحش الفرنجي الخارج من البرتغال وردوس، وأحياناً من قبرص. كانوا قد نسوا الأفراح الكبرى حين تنزل على وثنيين فتنتشر بينهم النور الإلهي، وتحدثهم عن النبي الأمي الذي ظهر في مكة يدعو إلى إيمان وحنان... كانوا قد نسوا كلَّ هذا، فلقد تخلّوا أو أجبروا على التخلي عنه لسلطان قرَّر القيام بكل ماكانوا يقومون به فرادى، وأن يشكروا السلطان الذي حمل عنهم كل معاناة عاناها أجدادهم، فتحمَّلها مع أجناده القادمين مما وراء جبل قاف، أو من صحارى آسيا البعيدة.

وبديلاً عن كل هذا صار على كل أب وبتحريض من الجميع، والنساء قبل الرجال أن يشتري للصبي صندوقاً صغيراً يتراوح في حجمه بين الشبر والشبرين وفي زينته حسب قدرة الأب، صندوق ذي فتحة في جانبه الأعلى وقفل على الجانب، وعلى الصبي أن يضع في الصندوق كل فلس وكل دانق يستطيع جمعه ليحصل على الجائزة الكبرى (المهر) مهر المرآة الوعد التي ستكمل له دينه وحياته، وتجعل للحياة طعماً، وكان حرصهم على جعل الصبي يجمع مهره بالدرهم والدانق يؤكده بيت الشعر الذي يحفظه الجميع ويردده الجميع:

ومن أخذ البلاد بدون حرب يهون عليه تسليم البلاد

وكانت المرأة الوعد هي البلاد، وكان الصندوق قد تحوَّل مع الأيام إلى شيء مقدس ينصب في صدر الغرفة الكبيرة، على الكتبية بين زبادي الصيني والشيني، والصحون النحاسية الكبيرة المبيَّضة المحفوظة ليوم وليمة أو عرس.

كان الصبيان يتنافسون في توفير العيديات والرمضانيات والأجور السريعة لخدمات قدَّموها للأهل والجيران. وكانت السعادة في

خشخشة الصندوق كل بضعة أيام يخمّن فيها الصبي ثقل الصندوق وكمية المال المحفوظ فيه. وكان كثير من الصبية يحمل الصندوق إلى أمه كل بضعة أيام يسألها أن تخمن له مقدار الكنز المكنوز فيه.

وربما كان الصبي الوحيد في المدينة وفي ذلك الجيل الذي أصاب أهله بالذعر حين صرخت الجارية المكلفة بتنظيف الزبادي الصينية المصفوفة في الكتبية تعلن أنَّ الصندوق، صندوق الصبي، صندوق المهر الذي ينتظره الجميع قد.. سرق، وكادت الأم يغمى عليها، ليس بسبب القروش المجموعة فيه والتي يمكن تعويضها كلها مع الصندوق المزين بخيوط الفضة والصدف بأساور ذراع واحدة، أو خلاخل ساق مما تلبسه. ولكنها كاد يغمى عليها بسبب العار، فهي الأم الأولى في الأسرة، بل في الحارة التي يسرق صندوق مهر ابنها الوحيد، وسارع الجميع إليها بالخلّ والبصل يهرسونه، ويشمّمونها لعلها تتماسك، وكانت ترتعش ارتعاشات أشبه بالتشنج: صندوق عرس ابني الوحيد.... يسرق؟ ثم تولول: فما سارقه إلا حسود أو غيور أو عدو، ولكن.. لا... إنّه من أهل البيت..وجاء الأب متخلياً عن شغله ودكانه يسارع ليكشف ما الذي جعل الأمَ ترتكب الخطيئة التي لا يسمح لامرأة بارتكابها، أن تستدعي رجلاً من قدس دكانه و... جاء.. وحين عرف باختفاء صندوق مهر الصبي صعق مذعوراً، فهذه هي المرّة الأولى يعرف فيها باختفاء صندوق مهر الصبي الأوحد لعائلة ما. أمر بوابه الأسود بجمع الخدم والجواري وجلدهم واحداً واحداً حتى يقرّوا عمّن سرق الصندوق، وسبب سرقته، وهل للأمر علاقة بأثر للصبي يحمل إلى أحد السحرة أو المشايخ يقرأ عليه فيؤذي الصبي أو يربطه، أو....

لم يرقَّ الأب لبكاء الجواري أو لتوسلات العبيد، واستعدَّ البواب لجلدهم، وكاد العويل والبكاء يحيل البيت إلى مناحة لو لم يظهر أبو القاسم فجأة، ويعلن أنَّه المسؤول عن اختفاء الصندوق، ولم يصدقه الأب بالطبع، فلقد اعتبر اعترافه شهامة يريد منها إنقاذ الخدم من عقوبتهم القاسية، ولكن حين مضى إلى الخزانة وفتحها، وأخرج الصندوق المفتوح يدلي لسانه استفزازاً انهار الأب والأم على كرسييهما وسؤال كبير يحوم فوق الجميع بمن فيهم الخدم: لماذا؟... وهل هناك أحمق في هذا العالم يرتكب ما ارتكب؟ وحين كشف لأبيه عن الكتب التي اشتراها، وأخفاها وراء ستارة المخمل في غرفته عرف الأب السبب، وتفهَّم إلى حد ما. أما الأم فلم تتفهم، ولم تغفر، بل أصرت على معرفة لم لم يطلب المال منها، ولم قام بهذه الفعلة المشؤومة والتي يمكن لها أن تؤثر على مستقبل حياته كلها. شاب في يناعة وردة، ولا صندوق مهر لديه. حاول الأب أن يهدِّئها: الحمد لله، لدينا من المال ما يكفي لمئة مهر. وردَّت في غضب: ولكن من يتحدث عن المال، إنَّه البركة، العادة، إنَّه الإعلان بأنِّي سأكون الاستمرار والديمومة لهذه العائلة، بأنِّي الولد الصالح الذي سيدعو لوالديه بعد وفاتهما. وقال شيخ الجامع القريب وقد تفهَّم موقف الأم: صحيح ما قالت، أفلم تسمع بالحديث النبوي: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، فمن سيدعو لكما الآن بعد أن تغمضا عيونكما للمرة الأخيرة إن أصرَّ على ألا يتزوج.

حاول الأب تصحيح الغلطة التي ارتكبها أبو القاسم، لكنَّ الولد أصرَّ على موقفه: عروسي الحقيقة والكبرى حين يصبح اسمي أبو القاسم الفستقي شاعر البلد الأول.

حمل أبو القاسم الصندوق المزيَّن بخيوط الفضة وشرائح الصدف الذي وضعته فرتنى أمامه. كان الصندوق ثقيلاً، تفحَّصه، وتعوَّذ بالله، فقد كان الصندوق الذي تخليت عنه لأكون.. وهمست: أبو القاسم الفستقي. أليس كذلك؟

وهز رأسه يتنهد: ما الذي جاء بك الآن، ما الذي جعلك تخرجين بهذا الصندوق الذي آمن الجميع أنَّه ضاع بعد أن جرَّبوا وضعه في طريقي مرات، وجرَّبوا وضع القطع النقدية فيه يخشخش ويذكرني بالعادة، القيام بالمهمة الكبرى، جمع المهر للحصول على العروس وإنجاب الأولاد، وحفظ اسم العائلة دائماً.

قالت: أريد قصيدة حب.

وتنهَّد: فمن يقول قصيدة حبٍّ في هذه الأيام. الشعر ولا موضوع له إلا الهجاء والشتم والقذع، وكلما انحطت لغة الهجاء ازداد رواجاً. الشعر الآن حديث عن خمر لا يشربونها إلا سراً، ولكنهم جميعاً يصرُّون على أنَّ أجمل الشعر ما قيل في المحرَّم الأول الخمر، الشعر الآن ولا موضوع له إلا الغلمان وعشق الغلمان، وتأوُّد الغلمان، وتدلل الغلمان، وعلى الجميع أن يكتب الشعر في الغلمان حتى لو كان يشمئز من مجرد رؤية الغلمان. قالت: أريد قصيدة حب.

كان النصر الأول الذي حققه في قصيدته الزنجية قد جعله شاعر المدينة الأول، وكان حيثما اجتمع مع الناس ردَّدوا أمامه مبتهجين:

يكون مثل العروس مفترشاً	طوراً وطوراً كالفحل في الإبل
فيجمع اللذتين مغتبطاً	في دبره تارة وفي قبل

هذا النصر جره على غير إرادة منه إلى كتابة قصيدته الفاقرة ثم إلى كتابة قصيدته النهرية، ثم إلى الردِّ على أحد الشعراء

الصاعدين الذي هجاه بالقصيدة القرنية. وكانت غلطة الردّ ما أغرقه في مستنقع الهجاء والهجاء المضاد، ثم إلى التحول إلى عضو في المجموعة التي أسمت نفسها بالأصليين، والتعرض إلى ألسن المجموعة التي سمت نفسها بالربضيين.

في هذه السنوات سلخ السلطان أباه، وصادر أمواله، وماتت أمه قهراً، وكان عليه كي يستمر في الحياة في المدينة أن يتنكّر لأبيه، وأن يبدي الشماتة في ذلك الأحمق الذي عرّض نفسه لغضب السلطان... مرّت السنون، ولم يشعر أبو القاسم بمرورها، فقد كان للخمر والجواري الفضل في فصله عن العالم الحقيقي، والغرق في عالم من كلمات وأحاسيس خارجية. وها هي أخيراً تأتيه متحدية وتذكره بالعهود التي قطعها على نفسه في أن يكون أبا القاسم الفستقي شاعر المدينة والديار الأول، هاهي تذكره في أنه قد نكث بالأقسام، وتخلّى عن الدعاء للأبوين، وعن إتمام الكتاب العلم الذي ينتفع به، وباع صندوق مهره صغيراً، ومن أجل ماذا؟... ليصبح هذا الهجّاء الغارق في وحل الخمرة والنساء والغزل بمخلوقات لم يحبّها يوماً، والتي يسمونها بالغلمان.

نظر إلى وجهها الذي رفعت عنه البرقع، فشهق بلا صوت، إذن، فهذه هي فرتنى. حاول ألّا يخطئ فهم الرسالة، فأن تمد امرأة يدها للسلام بعد أن تكشف وجهها في هذه المدينة ليس له إلا معنى واحد، ولكن.. إنّها فرتنى، وفرتنى، كما عرف من الجميع، وكما تناقل الجميع؛ امرأة لا تشبه أياً من النساء اللواتي سمع عنهن، أو عرفهن، أو تحرّشن به. فهي المرأة العصيّة على الجميع. عرف ذلك من الجميع. صحيح أنّ البعض قد ادّعى أنه نالها، أو أنها منّته بالنوال، أو أنها وعدته، أو.. أو... ولكنه يعرف من العارفين الذين لا يدّعون ولا

يتظاهرون، ولا يكذبون، يعرف بأنَّ رجلاً لم يصل إليها. كانت على النقيض منه قد كرَّست نفسها لما وعدت نفسها به، فتعلّمت فنون الغناء كلها، تعلّمت النصب، وتعلّمت الرمل، وتعلّمت الحداء، وتعلّمت.. الغناء الماخوري، تعلّمت التلحين، وتعلّمت الغناء، فاستفادت من الثروة الصغيرة التي وهبها لها الله، فأمعنت في تثميرها وتحويلها إلى ثروة غطّت المدينة والديار ووصل صيتها إلى مصر ويقال إلى مراكش.

كانت مزيجاً من جميلات الأرض اختلط فيها الدم العربي بالهندي والمغولي، لم تكن بالنحيلة ولا السمينة، لم تكن بالطويلة ولا القصيرة، لم تكن، ولم تكن، ولكنها كانت كل هذا، وكانت المرآة التي جاءته بصندوق شبابه الخالي من مهر عرسه وقالت: أريد قصيدة حب!

أطرق يفكر. قالت: أعرفك لا تقول إلا الهجاء والتغزل بالغلمان، ولكنَّ أحد المعجبين قدّم لي هذا الصندوق ـ ثم باستهانة ـ كان قد اشتراه من سوق الأشياء المستعملة، وكان ضائع المفتاح، ويبدو أنَّ من باعه لم يشأ إتلافه بكسر قفله، فباعه كما هو. أنت وحظك، وجاء القفّال لفتحه وقال: ستضطرين إلى تغيير القفل إن فتحته. قلت: لا بأس. دعنا نرى ما أخفوا فيه وأضاعوا المفتاح. انقبض قلب أبو القاسم وهو من رمى المفتاح في البئر قبل سنين وسنين، عرف ما ستقول. عرفه بالكلمة والحرف... قالت وهي لا تبتسم - فلقد عرفت أنَّ الابتسامة في هذه اللحظة ستكون إهانة ـ قالت: كان من حولي ينتظرون العثور على الكنوز، وعلى الصكوك، وعلى.... ولكنَّ واحداً ما كان يتوقع أن نعثر على ما عثرنا عليه.

قال وغصة تخنق صوته: شبابي.

قالت تهز رأسها إيجاباً: نعم

وحين لاحظت صمته تابعت: كنت أسمعهم يقولون أبو القاسم الفستقي ولكني لم أكن أفهم سبب هذه التسمية.

فقال بصوت صادر من قاع كهف: والآن فهمت.

أحنت رأسها دون كلام، وبعد صمت طال حتى صار من الصعب اختراقه انتصبت تقوم، وقالت: ستكتبها. هه.

قام لقيامها حائراً فكرّرت: ستكتبها. هه.

فقال بصوت متعب: ولكن. لماذا تريدين قصيدة حب، كتب الشعر مليئة بقصائد الحب، والشعراء لم يتركوا معنى في الحب إلا وطرقوه. نظرت إليه مباشرة إلى العينين وقالت: أعرف أنّ لديك قصيدة حب لم تقلها أخفيتها في شبابك خلف الأترجّ والياسمين، وخلف الفستق ثم..... أخفيت نفسك كلّها في الهجاء... أنا... أريد قصيدة الحب التي لم تقلها، وأعرف أنك لو قلتها، وغنّيتها، فربما وصلت إلى السلطان.

أحنى رأسه في فهم، وحين رفعه كانت قد انزلقت خارج البيت. ورأى صرّة دنانير لم تكن منسية حيث كانت تجلس.

شهر انقضى، لم تزره، ولم ترسل من يسأل عن قصيدة الحب التي دفعت ثمنها مقدماً، ولكنّ عالمه كان قد انقلب رأساً على عقب، حاول أن ينسى الحكاية ويعتبرها واحدة من سخافات النساء. ولكنّ عالمه تنغص، فالسهرات التي دعي إليها بعد قصيدة الحب التي لم تكتب جعلته يكتشف أنه لم يعد يتقن إلقاء الطرف والمزح والنكات التي كانت تجعله سيد الندماء، والدعوات إلى البساتين على ضفاف السواقي التي دعي إليها جعلته يكتشف قبل أن يكتشفوا أنّه لم يعد يلتذ بالغناء الماخوري، وكان هذا الغناء قد

تسلل إلى المدينة على يد مغنية بغدادية قبل وصول الجفتائي إليها. وضاعت بغداد وبقي الغناء الماخوري متعة خاصة لا تعطى إلا لخاصة المتذوقين و... لكنه لم يعد يلتذ حتى بالغناء الماخوري.

قالت: أريد قصيدة حب، وكان يمكن له أن يلجأ إلى جراب خبرته وحيله التي علمته الأيام، فينتزع صورة من هنا وتشبيهاً من هناك، ومقطع غزل شببوا به من قبل، فيؤخر فعلاً، ويقدم مفعولاً، ويضيف مرادفاً، وإذا بقصيدة الحب جاهزة للعاشق يطرق باب معشوقته، فتتفتح الأبواب. قالت: أريد قصيدة الحب التي لم تكتبها. وكانت تعرف أنَّ لديه قصيدة حب لم تكتب، وما كل القصائد التي كتبها تكليفاً إلا من ألا عيب الصنعة، ولو أنَّها لم تأته بصندوق شبابه الذي رمى مفتاحه في البئر، لو أنَّها لم تلق أمامه بقصائده الأترجية والياسمينية والفستقية. فلربما كان حاول خداعها وكتب لها قصيدة تشبه المئات من القصائد التي طالما طلبوها منه وأنجزها، ولكنَّها قالت: أعرف أنَّ لديك قصيدة حب لم تكتبها، قصيدة أخفيتها خلف الأترج، وخلف الياسمين وخلف الفستق ثم تنهدت، وقالت: أريد هذه القصيدة.

تزحلقت قطرة حارقة خلف أذنه، ثم انزلقت على رقبته فلذعتها، وأخيراً اضطرَّ إلى فتح عينيه، الصهد الحارق والبياض الكاوي.. لو غصن يابس أتظلل به. قصيدة حب، ولكن.. هه.. ما الحب؟ قصيدة حب، قصيدة حب...... أهو الامتلاك؟ لقد امتلك العشرات إن لم نقل المئات، جواري، وسراري، وحرائر، ولكن. أهو امتلكهن فعلاً؟... لا... لا يعتقد. إنَّ ضم ذراعين على جسد آخر لا يعني الامتلاك، فما الحب إذن إن لم يكن شهوة امتلاك المحبوب والانحياز به عن الآخرين. ولكن... من يمتلك من؟ المحبُّ أو المحبوب.. من... يمتلك.من؟

كانوا قد ابتعدوا، كل يبحث عن... عن حبه... لا، بل عن مدينة قلاوون ويلبغا، ولكن... عمٌ يبحث هو... آه. قالت: أريد قصيدة الحب التي أخفيتها وراء الهجائيات والغلاميات والخمريات، لماذا...

فيما بعد أو حين كان يراهم شرائح طولية من خلال قضبان القفص سيسأل السؤال الذي سيظلُّ يعذبه حتى نهاية الرحلة التي ختمت دون أن توجد له مكاناً في كتاب وَفَيَات المدينة. سيسأل:...لو لم أعطها قصيدة الحب، ولو لم تصل إلى السلطان ولم... أووف... أكان من الممكن أن يصل الجفتائي أخيراً إلى المدينة...؟

هزَّ رأسه في غضب، هزه في نقمة، هزه في رفض لكل ما مر به في هذا العمر الذي أضاعه كلا شيء.

فتح عينيه، ونظر إلى البعيد: أين أنت أيتها المدينة التي قالوا إنَّ ساكنها لا يجوع، وقاطنها لا يظمأ، وعازبها لا يبيت متقلباً خارج سرير حب؟ ولكنه لم ير إلا تثنيات الرمال البيض تصنع أسرَّة. وتصنع عرائس، وتصنع... لا... لم تصنع المدن بعد.

فيما بعد وحين سينظر إلى العالم المقطع بقضبان القفص سيسأل السؤال المرارة: هل كنت على حق في ثورتي على دكان الأفاويه وتجارة التوابل وكتاب الوَفَيَات؟ أفلم يعش أبي سعيداً مطمئناً مستقر العالم يشعر بالسعادة لكل ما ينجزه فهو يعرف أنَّه كلما أنجز خيراً حقق جزءاً من قدره المكتوب في الكتاب المسطور؟.. وهو؟... هل كان كل هذا الخلط والضياع وغضب الأم، ورفض صندوق المهر والزواج والتقلب بين الجواري والسراري والغواني، و... أخيراً فرتى وقصيدة الحب التي قالت أريدها، تلك المختفية وراء.... هل.... هل يجرؤ على أن يقول كما قال أبوه وهو يتلمظ ملعقة الماء المحلى بالسكر: لقد عشت حياتي سعيداً. حاول أن تعيشها كما عشتها؟

ولما رأى تقطيبة الغضب في وجهه تابع: إنها ميتة مثل سائر الميتات وماذا يعني... رجل أغضب سلطانه فأمر بموته..... هه... لا تهتم كثيراً، لقد عشت أكثر مما كنت أتوقع أن أعيش... ثم أشار إلى كتاب الوفيات القريب: لا تنس أن تكتب فيه: عاش سعيداً ، ومات شهيداً ، ثم استدرك متوجساً - لا. لا تستفزّ السلطان. لا تقل شهيداً. قل مات سعيداً. المهم، أنت، ليتك تعيش الرضا الذي عشت و... أغمض عينيه مرتاح الوجه رخيّ الملامح.

شهران انقضيا لم تسأل فيهما عن قصيدة الحب التي دفعت ثمنها مقدماً ، ولكنها كانت تعرف معرفة أشبه باليقين أنّه لن يستطيع الاستمرار في الحياة إن لم يكتبها. فقد عرفت أنّها قد سممت حياته الرخية الكسول حين قذفت بصندوقه السري أمامه، عرفت ذلك بعد أن قرأت قصائده السرية وأحلامه المنكسرة وتحولاته إلى شاعر الخمر والغلمان والهجاء، فعرفت أنّها قد ألقت بالحجر الضخم في بحرة حياته الساكنة.

كانت أخبار اعتزاله السهرات والسيارين ومسابقات التهاجي تصلها، وكانت أخبار اعتزاله في ضيعته خارج المدينة لا يزار ولا يزور تصلها ، فكانت تقول: بشارة خير. ولكن ما لم تكن تعرفه أو تقوله هو حالة المخاض المتعسّر الطويل الذي كان يتناوشه.

كان قد وضع عدة قصائد حب، وكانت تبدو لعين غير الخبير رائعة، ولكنه كان الوحيد الذي يستطيع إرجاع كل تفعيلة وكل تشبيه وكل صورة إلى صاحبها ، فيتردد ، ويشعر بتكلفها وسخفها. وكان يمكن له فيما مضى أن يغوي الكثيرات بهذه القصائد ممن كن يتشهين أن يقلن ولو بينهن وبين أنفسهن: لقد قالها الشهاب الفستقي فيّ!... ولكن إيه يا أبا القاسم من تغوي بألاعيب الحرفة

هذه! لقد قالت: إني أنتظر القصيدة التي أخفيتها وراء الأترجّ ووراء الياسمين ووراء الفستق. إنها تنتظرك أنت يا أبا القاسم. أنت الذي وهبك الله الثريا، فأعرضت عنها وتمرغت في الثرى.

كانت الشمس الهاربة من الجحيم تلطمه بالآلاف من شواظها وسياطها.. سياطها... ساط، يسوط، السوط... ساطته الأغصان وهو يتجاوزها، يغلي ويستدعي السيد الذي كان الخادم (اللغة) وقف بين رمانتين وصرخ: أنا سيد الكلمات التي ذلت لي، فكيف تنفر مني الآن؟ رفع ذراعه كمن يريد أن يسوط مخلوقاً نافراً أمامه، ولكنّ غصناً نشب بذراعه، وحين أفلته ساطه في وجهه. وتمتم يلعن، لكن قطرات دم صغيرة سالت على وجهه، فمدّ لسانه يتأكد إن كانت دماً ومن العجيب أن ملوحتها كانت لذيذة لذّة هدأت من غضبه، فأمعن في اختراقه سياج التوت الشوكي والخوخ البري، وكأنها عرفت ما يريد فقد أخذت تسوطه على وجهه، على خديه، على جبينه وعلى جنبيه. وكانت لذة صغيرة، لذة جديدة لم يعرفها من قبل تعتريه. وبهدوء انبثق البيت الأول يتحدث عن لذة الدم، وانسلّت الأبيات تتحدث عن الدم المطهّر منذ الدم الأول، دم الولادة الذي ما كان يمكن للولادة أن تكون بدونه، وحتى دم الختان، منذ دم هابيل حتى دم الفصد، وكانت القصيدة الدموية.

حين راجعها في اليوم التالي أصابته الدهشة، فهل قال هذا الكلام. هل تحدّث عن لذة الألم، وعن متعة الدم، وعن شهوة الدم؟

وحين سيشهد المبارزة الكريهة بين رسل الجغتائي والحرافيش، ويرمق من تحت مظلته السلطان ويرى معالم لذّة لم يرها على وجهه خلال العشرين سنة التي عرفه فيها، ثم يحوّل وجهه إلى الألفين، وإلى قواد المئين، وإلى شادي الطبلخاناه، ويرى ألسنتهم تتحسس

شفاههم في لذة، فيتساءل: أهي رائحة الدم أم طعمه المالح ما يثير هؤلاء الناس ويهيّجهم إلى هذا الحد. نظر إلى الحرافيش. نظر إلى الجفتائيين يفرون رقابهم بأيديهم، فيتساءل: أتراها متعة لن يتذوقها أبداً. متعة أن تتذوق.. دمك الخاص للمرة الأخيرة.

لم يقرأ عليها قصيدته الدموية حين زارته مع جواريها تدعي الاطمئنان عليه في عزلته وتضمر الاطمئنان على قصيدتها، وحين رأت الخدوش والجروح، ورأت نظرات الرضا في وجهه سألت في حذر: هل كتبتها؟

حاول أن يخدعها، فقدّم لها قصيدته التي يعرف انتماءات كل تفعيلة وكل تشبيه فيها، ولكنّها كانت أشد خبثاً، فقالت وهي تستعد للقيام: ليست هذه ما كان يختبئ وراء الأترج والياسمين لعشرين سنة، فلم تخدع نفسك؟

انكفأ على نفسه معتذراً لا يجرؤ على المجالدة والادعاء وانزلقت قطرة مالحة أخرى تسوط خده، ففتح عينيه. كانت حصاة صغيرة قد انزلقت ما بين النعل وبين القدم، انحنى يخلع حذاءه ويزيل الحصاة، وحين استقام رآها، فلم يدهش كثيراً. كان يتوقعها وكانت كما يتوقعها تماماً تقف وراء تثنيات الرمال، وتذكّر ما قاله قلاوون ويلبغا أنك مهما طاردتها فلن تنالها إن لم يكن مقدراً لك دخولها، ولذا فلم يركض ولم يعرق، وما إن ركعت الشمس حتى كان يستند إلى إطار بابها.........................

هو لا يعرف متى نام، أو كيف نام، أو لم نام، ولكنه عرف شيئاً واحداً هو أنّه فتح عينيه ليرى النور سيّد المدينة، نور الصباح الباكر. ولكنه حين يراجع الأمر فيما بعد، وحين يراهم شرائح طولية مزقتها قضبان القفص سيذكر أنّه لم يسمع صوت السوق،

وهل من مدينة بلا سوق، لم يسمع أصوات العصافير، وهل من مدينة تخلو من الحمائم، من الستاتي، ومن العصافير، من الديكة؟ وحين كان يتأمل الوجوه المتعبة والقامات المنكسرة كان يتساءل بسخرية: كيف لم ألحظ خلو المدينة من هوامش المدينة.

لكنه يذكر أنَّ صوت خرير قريب ذكّره بأنّه لم يشرب ولم يذق الزاد منذ فارق المدينة ومبارزتها اللعينة. جرٌّ، أو جرَّته رجلاه إلى البحرة؟ الجدول؟ الخزان؟ لم يستطع أبداً تحديد شكله إذ أن شيئاً أقوى منه جعله يصرف النظر عن الشرب والمستوعب ويقرر الغطس، وضوءاً، اغتسالاً، اعتماداً...؟ غطس ولا يعرف إن شرب أو لم يشرب، غطس ولا يعرف إن اغتسل أو لم يغتسل، ولكنه فقط غطس، لثوان، لدقائق، لا يعرف.

وكل ما يعرف أنّه خرج، وما إن... حتى حدث ما سيظل يذكره مذهولاً ربما إلى الأبد... فذلك الثوب الموضوع على حجر قريب انسلَّ من يده حين أراد تناوله، فتطاول بيده مبتعداً عن البحرة يريده، ولكنه انسلَّ ثانية. وعندئذ انتبه، فما كان ينسل لم يكن الثوب، بل الحجر، لم يصدق عينيه، فانقضَّ على الحجر، ولكن الحجر انزلق على بلاط الشارع، فتلفّت من حوله يبحث عن عيون متلصصين، ولكنَّ الشارع كان خالياً من كل حياة، فأسرع يركض خلف الحجر، تمهَّل الحجر قليلاً، فاندفع أبو القاسم وراءه، واستمرت اللعبة لوهلة. الحجر ينزلق، وأبو القاسم يركض، وحين يكاد ييأس يتوقف الحجر، وحين يقارب خطف الثوب ينزلق الحجر.

في البدء لم يشعر أبو القاسم بالخجل فقد كانت الساحة حيث البحرة خالية من كل حياة، ولكنه ما كاد ينعطف وراء الحجر الانعطافة الأولى حتى رآهم واقفين، وكأنهم كانوا ينتظرون.

خجل قليلاً، ولكن لم يكن أمامه من خيار إلا الاندفاع وراء الحجر القريب يستعيد ثوبه ويستر عريه، ولكنَّ الحجر الماكر كان ينزلق ببطء يساوق تماماً سرعة أبي القاسم.

فجأة رآ...ها...ه...لم يستطع الجزم، ولكنها فرتنى أف... ما الذي جاء بها الآن لتراه بهذا الشكل المخجل. اندفع يحتمي وراء عمود رخامي يحمل جانباً من رواق، وكان الحجر حامل الثوب يقف على مقربة وكأنه يتحدى وينتظر، ولكن.ها...ه، فرتنى كانت هناك مع شارب خفيف يغطي الشفة العليا، لا... مستحيل أن تكون فرتنى ولكن... فرتنى. كانت تحدق، يحدق فيه بعينين قاسيتين متحديتين شهوانيتين، ويهدوء شعر بالخجل، بالعري، إنه يحدق في عريي، وأسرع يستر عريه بكفيه، و... شهق مذعوراً، نظر إلى صدره وكاد يغمى عليه... ما الذي حصل، هل انقلبت يا أبا القاسم إلى امرأة ذات نهدين كاعبين، وكيف... كيف... وانقضَّ على الحجر الماكر، ولكنه انزلق في اللحظة التي تحرك فيها يبتعد بالثوب ويعرض عري أبو القاسم لنظرات فرتنى الوقحة.

فيما بعد وحين كان يتذكر تلك اللحظة الوقحة، لحظة كان عريه النسائي مفضوحاً أمام عيني فرتنى الجريئة، وحين كان ينظر إلى شرائحهم الطولية مزقتها قضبان القفص يمشون منحني الظهور منكسري الأعين، تذكّر راهب دير الشارويبم الذي رآه فيما بعد وحدثه أنَّ اسم فرتنى هو الصيغة العربية من الاسم اللاتيني فرتونا رب، أورية الحظ والثروة والسعادة.

كيف. كيف وهو أبو القاسم عدو الغلمان وكاره الغلمان، صحيح أنَّه كان قد كتب عدة قصائد تغزل، فيها بالغلمان، ولكنه ما كان إلا مجارياً لشعراء العصر، إلا أنه، أبداً لم يطق

رائحة عرقهم المنفرة، ولا حركاتهم السوقية، ولا نظراتهم الفاسقة يطاردون بها الملاءات في الحارات. ولكنَّ شيئاً في القلب تحرك. هذه النظرات الجريئة القاسية المتحدية الوقحة يلقيها هذا المغلل الشفة بشارب رقيق؛ وأحسَّ ركبتيه تسيخان. نظر إلى كفيه تستران عريه، وإلى ثوبه على الحجر يستعد للهرب، نظر إلى العمود الذي كان ثوب ستره قبل لحظة، ونظر إلى الشاب الجميل المتحدي الذي كان يعرفه باسم فرتنى، ولكن. أهو فرتنى حقاً، وبسهولة ودون تردد كبير عرف أنه فرتنى، ولكن، يا إلهي. ما الذي جرى؟ كيف..كيف تغيَّر العالم فجأة. كيف أصبحت أنا، أبو القاسم الفستقي المرأة الخجلة من عريها أمام الشاب الوقح الذي كان فرتنى.

ما أدهشه وسيدهشه كثيراً حتى حين يتأمله وبسمة مرارة تداعب شفتيه هو أنه لم يحسَّ بتلك الغرابة، ولا تلك الدهشة، بل كان يشتهي ذلك الغلام المسمى فرتنى، ولكن. أعوذ بالله، من كان يشتهي من؟ أهو أبو القاسم كاره الغلمان والذي سيتعلق بتلك التي دمَّرت المدينة؟ أم هو أبو القاسم مطاردة ثوبها، والواقفة عارية أمام فرتنى الوقح والذي سيحدثه راهب دير الشيروبيم أنَّ أسمه أو أسمها ما هو إلا فورتونا الرب المخنث رب أو رية الحظ والسعادة والثروة؟

حين اقترب فرتنى منه أحسَّ بركبتيه تسيخان، وهاجمته الرائحة الحامضة لعرق الفتيان فلم تثر اشمئزازه كما اعتاد أن يقول لمن حوله، بل أغمضـ...ت عينيها في انتظار جميل.

انبثقت القصيدة أخيراً، القصيدة المنتظرة، القصيدة المختفية وراء الأترجِّ والياسمين، القصيدة المتنكرة بقصائد حب تباع بالقطعة، القصيدة المسحوقة بخمريات لم يحبها، وبمهاجيات الجئ إليها،

ويغلاميات كان يتمنى لو تقطع أصابعه ولا يقولها. انبثقت القصيدة كاملة موزونة تامة الصور. انبثقت تلك التي ستقول له فرتنى حين يحملها إليها في المدينة: أنا أعرف أنّك لو أصبت الآن بالعجز الكامل عن قول الشعر فلن تكون الخاسر، فلقد قلتها.

فتح أبو القاسم عينيه يجيلهما في المدينة، و... رآهم جميعاً وكأن شيئاً من سحر حلَّ عليهم، فما الذي قلبهم هذا الانقلاب؟ رأى كلَّ من عرف من النساء وقد تحوَّلن إلى رجال، ورأى كلَّ من عرف من رجال وقد تحولوا إلى نساء. وكانت مطاردة لو لم يكن طرفاً فيها لكانت حقلاً لدعابة ومزاح لا ينتهيان. فأن ترى القلم دار وقاضي القضاة والدوا دار والمفتين يهرولن متأودات ملاحقات بأولئك الحييات المرتبكات اللواتي اسودَّت شواربهم، وقست نظراتهم وانتشر من حولهم عرق التيوس أوان النزو كان شيئاً باعثاً على قهقهة ستطلقها فرتنى حين يصف لها المشهد. ولكنَّ حظَّه العجيب كان هو أنّه لن يلتقيها ثانية، وكل ما سيعرف عنها عند عودته هو السؤال الملح: أين هي فرتنى؟

استمرَّت المطاردة واستمرَّ الهرب، وفيما بعد وحين يفكر في سلسلة الانقلابات هذه وهو يتأمل أفواج المنكسري القلوب منحني الرؤوس والجلاوزة يسوطونهم يعجلون مسيرتهم ألحَّ عليه السؤال الوجع: لو لم أكتب القصيدة، ولو لم تغنِّها أمام السلطان أكان من الممكن أن تحصل كل تلك الكوارث؟ ثم تحوَّل السؤال نفسه منقلباً: ترى لو لم توقظ الأحلام في قلبي برميها صندوق شبابي في وجهي، الصندوق المرآة الذي كشف لي إلى أي درك من القبح وصلت. أكان من الممكن أن تستيقظ الأحلام وأسعى وراء مدينة المماليك الهاربة فلا أصل إلا إلى مطاردة لا أتوقف فيها إلا وأنا خارج

المدينة؟ فأبو القاسم الفستقي الشاعر الذي أضاع أحلى سنوات شبابه في الهجاء وكتابة شعر لا يحبه لا يمكن أن يقبل أن يطارده فرتتى كان يوماً امرأة.

توقف عند سيف الرمال ورآها تغيب، فعرف أنَّ حظه لم يكن خيراً من حظ مماليك الضياع الثلاثة.

كان حظه سيئاً، فحين خرج مع من خرج لم يخرج للبحث عن المدينة الهارية فعلاً، بل خرج ليهرب من عيون أطفاله وجيرانه المعاتبة اللائمة، فلماذا تخلف و.. أقدموا. ولماذا جبن وتشجّعوا؟..

كان الأمر لا يحتمل تهاوناً، فالعدو الملعون الذي غضب الله ورسله وملائكته عليه يتحدى السلطان برسالته الغامضة الكريهة، ولليال طويلة ونهارات كثيرة كان يتجادل معهم. فما الذي يريد هذا الجفتائي اللعين؟ وكان الجواب المباشر الحاد كنصل: إنه يريد إحراجه، إخجاله، وإبداء عجزه. وحين قالوا إحراجه لم يكونوا يعنون السلطان فقط، بل كانوا يعنون أنفسهم والبلاد والدين. فبطريقة ما كان وكانوا قد أصبحوا والسلطان شيئاً واحداً، فكرة واحدة، الحرج الذي شعروا به حين عجز، وعجزوا عن الرد على تلك الرسالة الكريهة حرجاً لم يكن شخصياً، بل حرجاً له علاقة غامضة بالكرامة، بالماضي والمستقبل. فمن هو هذا الجفتائي ابن يأجوج ومأجوج الذي لم يعرف وآباؤه النور الإلهي إلا منذ أمد قصير؟ هذا النور الذي احتضنّاه وعاش آباؤنا وأجدادنا في أكنافه منذ سطوعه على الكون: صحيح أن الله عاقبنا على إهمالنا أوامره ونواهيه، فسلّط علينا هؤلاء الجفتائيين يدمّرون مدن أصفهان والريّ وبغداد والموصل وماردين وأورفه وسيواس... يالعظمة الله كم دمّر هؤلاء الكفرة. الكفرة؟ لا لا. فالفظاعة هي أنهم ليسوا كفرة حقيقيين، فقد مسّهم نور الله وإن منحرفاً، ولذا فقد ظلوا أقرب إلى

يأجوج ومأجوج منهم إلى النور الإلهي الحقيقي، ولكن.. لعلها إرادة الله العظيمة هي من شاءت حرق الفساد الذي وصل إليه آباؤنا، وها نحن حين عدنا إلى الله، واستجبنا لأوامره ونواهيه وأخلصنا للسلطان الطاهر ظاهراً وباطناً. هانحن استطعنا إيقاف الجفتائيين ودحرهم والحفاظ على بيضة الدين طاهرة آمنة. ولكنَّ الرسالة، الرسالة الكريهة التي فاجأت الجميع، المعتدِّين وغير المعتدِّين بمعارفهم، فاجأتهم لتقول لهم: هاهو سؤال منبثق من عظمة الله وقدرته غير المحدودة ولا تستطيعون له جواباً، وهاهو هذا المولى الجفتائي من حثالة الأمم يسألكم فتعجزون وكان لابد من ردٍّ على هذه الإهانة.

كان على الردِّ أن يكون قاسياً جارحاً صارماً وواضحاً وضوح إهانة السؤال المتحدي. تشاوروا طويلاً، ولكنهم لم يستطيعوا الوصول إلى الجواب الشافي حتى جاء أبو عبد الله. والمؤلم أن (أبو عبد الله) كان الرجل الأقل أهمية في المدينة كلها، الرجل الخارج عن الطوائف والنقابات والأخيَّات، الرجل الذي كان يعمل متعيِّشاً، أي الرجل لا مهنة تضمه في طائفة لها حقوقها وواجباتها وأخويتها والتزاماتها، بل كان لا يملك إلا قوة ذراعين شابتين يحملهما يومياً إلى ساحة الجورة، يمضي لا يحمل فأساً ولارفشاً ولا حتى مسحجاً، فلم يكن يملك حتى هذه الأدوات البسيطة. كان يمضي ويعلن لمن يريد استئجاره أنَّ عليه أن يجلب له عدَّته، وكان معروفاً بأمانته وقوته وصبره، فكانوا يستجيبون لشرطه هذا، وكانوا يؤمِّنون له العدَّة حين يستأجرونه.

قال أهل المدينة: يضع سرَّه في أضعف خلقه، وحين كانوا يقولون ذلك فهل كانوا يعنون أبو عبد الله، هذا الرجل الذي لم يستفد من

السلطان مالاً ولا جاهاً، ولا خيلاً ولا عبيداً، هذا الرجل الذي كان عليه أن يبيت وطفلاه وزوجته جائعين في اليوم الذي لا يعمل فيه؟ فقد كانوا كعصافير الدوري لا يعرفون مبدأ الخزن والاحتراس والتموين. كانت ثقته بالله وذراعيه غير محدودة، فلم يبت بفضل السلطان يوماً واحداً بلا عشاء. والآن... ها هو رسول الجغتائي يصل حاملاً رسالته المهينة التي عجز أكابر السلطنة عن تفسيرها والردّ عليها و... وقال أبو عبد الله: أنا الجواب، وصحح، له الشيخ زكريا الجواب مقدراً أنه أخطأ: تعني لديك الجواب! ولكنه كرر: بل أنا الجواب.

وهكذا اطمأنَّ السلطان حين تقدم أبو عبد الله بالجواب الجارح الصريح حين تصدّى لرسول الجغتائي المتحدي، وللجغتائي ولكل سلالة يأجوج ومأجوج، فتقدم الجميع متحدياً مستفزّاً يعلن: روحي فداؤك أيها السلطان، يا حامي البلاد وشرف الدنيا والدين، روحي وروح أبنائي فداء نعلك أيها السلطان.

وهكذا بدأت تلك المبارزة الرائعة بين المدافعين عن شرف الملة والسلطان، وبين أعداء الدنيا والدين من أبناء يأجوج ومأجوج بني جغتاي الملاعين.

تنفّس عميقاً من قلب مجروح. هو لم يمانع ولم يغضب ولم يحزن لما فعل أبو عبد الله، بل أحسّ أنه قام بما كان يجب عليه هو أن يقوم به، ولكن... أبو عبد الله سبقه. كان يعرف أنّه يجب عليه أن يفعلها، وكان يهمُّ أن يفعلها، فما قيمة رقبته الحقيرة أمام الإهانة المروّعة التي كانت ستحيق بالسلطان لو لم يتقدم أبو عبد الله بهذا الجواب الجارح. ولكن.. لكن، هذا النذل الجغتائي الصغير الذي خطر بباله أن يتقدم بتحدٍّ منحطّ، أووف... أهناك من يجرؤ على

تحدي السلطان صارخاً: ليتصور الخاقان العظيم، سلطان الجغتاي الكبير، سيد البرور السبعة وملك البحور السبعة، ليتصوَّر أنَّ أمي لم تحمل لعام واحد!!!

فجأة تحوَّل عمل أبو عبد الله إلى فعل عادي صغير، لقد تجاوزنا الكلاب الجغتائيون، وأحسَّ أبو شاكر بأنه يجب أن يندفع، أن يحمل السكين ويقذف بدمه في وجه أولئك الكلاب من الجغتائيين، ولكنَّ عبد الباسط سبقه. وأحسَّ أبو شاكر بارتياح صغير، فلقد محيت إساءة عبد الجغتائي، ولكنَّ تقدم الجغتائي الثاني وقذفه برأسه في وجه السلطان كان أكبر من أن يحتمل. أراد أبو شاكر أن يهجم ليمحو الإساءة فوراً، ولكن، عبد الغني سبقه، وهكذا استمرت المبارزة لشهر كامل كان يحاول فيها أن يهجم لمحو الإساءة عن سيدنا ومولانا السلطان العظيم، ولكنهم كانوا دائماً يسبقونه. وبدأ أولاده وجيرانه ينظرون إليه في ازدراء، هذا الجبان الذي يتخلى عن السلطان المحبوب لإهانة الجغتائي.

كان يعاهد نفسه في كل ليلة على أن يدافع الجميع ويهجم على الجغتائيين ماحياً الإهانة القذرة عن السلطان، وكان عليه أن ينظر إلى دمه في حسرة، فكيف فعلها ولم استطع.

وكان حظه سيئاً بالفعل، فحين قرر القرار النهائي الحاسم دون تردد أن يكون أول المتحَدِّين في اليوم التالي وصل المماليك الضائعون وتحدثوا عن المدينة لا جوع فيها ولا ظمأ ولا سرير بارد. وحين خرج من تبقَّى من أهل المدينة يبحثون عن المدينة الهارية أحسَّ بأسى عميق، فلقد حرمه خروجهم من شرف قذف دمه في وجه الكلاب الجغتائيين، ورفع رأس أطفاله وجيرانه وأهل حارته وأعضاء الطائفة والأخيَّة.. للمرة الأولى في حياته أخذ سؤال صغير ينغل في قلبه، سؤال

مضحك سخيف كان يطرده كما تطرد ذبابة ثقيلة عن وجهك المتعرق والذبابة لا تتطرد، بل تعود ملحّة إلحاح السؤال: ما السلطان إذن؟! كان يعرف الإجابة عن سؤال ما الإنسان، فلقد سأل هذا السؤال لأكثر من تقي الدين، ولأكثر من شهاب الدين، ولأكثر من ولي الدين، وكانوا يجيبون الإجابة البديهية: الإنسان؟ أنت. أليس لديك مرآة؟. وكان البعض يتفاقه، فيقول: إنّه الحيوان الناطق، أو العاقل، ولكنّ آخرهم صرخ في وجهه مؤنباً: فماله ولهذه الأسئلة التي لا تقود إلا إلى الكفر والجحيم؟! انسحب ضامّاً ذيله بين ساقيه، ولكنّه لم يستطع أن يصمّ أذنه الداخلية عن السؤال الملحّ فطرحه أمام الشيخ أحمد والذي أجابه ببساطة إنه نسل آدم وحواء عليهما صلوات الله، وفاجأه الجواب ببساطته ودقته، فهو يعرف أنّ الله خلق آدم من طين، وخلق حواء من ضلع أعوج، ثم كان الإنسان ابناً لهذا الثنائي المضطرب بين الطين والاعوجاج.

ولكن السؤال ظلّ يرنّ ويرنّ كناقوس لكنيسة بعيدة تثير قشعريرته كلما سمع ضربها، ولكنها لا تتوقف عن الإلحاح رن، رن، رن، واستمر السؤال يرن: فما السلطان إذن.... وهل السلطان من طينة الإنسان نفسه، أم أنّه كائن مصطفى من طينة أخرى، هو لا يعرف سلطاناً، وأبوه لا يعرف سلطاناً ولد لرجل وامرأة، فكلهم يأتون شباناً يافعين أو ناضجين، ولكن لا أب معروف ولا أم.. لا ...لا... لا يمكن أن يكون السلطان من طينة الإنسان. إنه شيء مختلف تماماً كيأجوج ومأجوج، وهل يجرؤ مؤمن على الادعاء أنّ يأجوج ومأجوج من سلالة أبوينا آدم وحواء عليهما صلوات الله!!

كانت قدماه تخبّان في الرمل وقد صنع لنفسه مظلّة من معطفه رفعها فوق رأسه، فأبعدت حر الشمس وسمحت لهواء الصحراء أن

يبرد رأسه، وربما كان برد رأسه هو ما سمح لهذا السؤال بالتولد في الذهن، أو ربما كانت الصحراء والبعد عن السلطان والمماليك والعسس والجند هو ما جعل مثل هذا السؤال يتجرأ على التشكل في رأس برّدته ريح الصحراء البعيدة عن ربِّ النعمة السلطان.

هبت نسمة منعشة لم تكن من نسائم الصحراء أبداً، إنها أشبه ما تكون بنسائم البساتين والجداول والنهيرات. ولكن، ما هو السلطان؟ عاد السؤال يلح... سمع من بعض التجار يحدثون في ليالي الأرق عن أولئك الكفار الملعونين في القسطنطينية الذين يسملون أعين سلاطينهم إذا ما غضبوا عليهم. عليهم اللعنة، عليهم اللعنة، كيف يجرؤون، كيف يجرؤون؟ ردَّد مذعوراً، ثم أصدر آهة تهكم: ليس بعد الكفر ذنب. هـه. كفار ملاعين مأواهم جهنم ولا شك، فإذا ما سملوا أستغفر الله، أستغفر الله العظيم عيني سلطانهم فهم الكفار وكما يقال: ليس بعد الكفر ذنب. ولكن، حينما حدثوه فيما بعد عن الأتراك في بغداد وكيف كانوا يسملون ويبترون ويبقرون سلاطين بغداد المسمَّين خلفاء تلفت من حوله مذعوراً لا يعرف أحد بأنه سمع بأمر فظيع كهذا...أ....أ... أهناك من يجرؤ؟! و... قالوا: لقد جرؤوا، فسأل عن مصيرهم، فحدثوه عن الجغتائي الأول الذي دخل بغداد وقتل رجالها وذبح نساءها وأطفالها، وأحرق كتبها وأسواقها، فأحسَّ ببرد الراحة في قلبه: يا الله. إذن ما يزال هناك عدل في هذه الأرض. يستحقون. طبعاً يستحقون. لقد فعلوا ما ساواهم بالكفرة. يسملون ويبترون السلطان. أعوذ بالله من غضب الله، ثم هزَّ رأسه في حكمة: ولكن، الله جازاهم على انحطاطهم المريع. هذا فعل كفار القسطنطينية. لا.... لا يجوز ولا يمكن لمسلم قال أشهد أن لا إله إلا الله أن يفعل شيئاً كهذا، وهزَّ رأسه كمن ينفض

زنبوراً يطنُّ مغوياً، فصرخ في ذعر:...لا....لا...لا يجوز. وعندما نفض رأسه تلك النفضة التي أزال فيها من عقله كل شيء يدنس سموَّ ونقاء وعظمة السلطان... رآها.... وكانت تتهادى بذءوابات نخيلها، ولمعات قبابها وأيادي الملوّحات على أسوارها، فركض لا يطلب إلا أن يلحق بها قبل أن يدركه الليل و.. لحق بها قبل الليل.

....

سمع الهمهمة وأدرك أنّه الصبح، فتقلّب في مرقده يستطيب نوم هذه السويعة قبل الأذان، وتقلب في دلال: إيه. ماذا ستنشدنا هذا الصبح يا شيخ أحمد. استمرَّ في إغماض عينيه رغم أنه عرف من توتره أن، النوم قد فارقه وهو لا ينتظر إلا أن يسمع أناشيد الشيخ أحمد العذبة العذبة، لا إله إلا الله. ألا يستحق هذا الرجل حياة أكثر رفاهية من حياته البائسة هذه... يلله. أنشد يا شيخ أحمد، أسمعنا:

التائبون العابدون القانتون الصابرون الصادقون

المستغفرون ودموعهم تجري وصوت دعائهم لك صاعد.

أنشد يا شيخ أحمد، أنشد وأسعدنا قبل أن تؤذن وتعلن: الصلاة خير من النوم. أنشد لأهبَّ من فراشي، ولكنَّ الأناشيد لم تعلُ، والهمهمة تتكرر، فتمتم لنفسه: هه، يجب أن استيقظ على أية حال، ثم أكمل تنهدته: لعل طارئاً طرأ.

فتح عينيه وهو يعتدل من رقدته ليختلط كل شيء، ولكنّه لا يملك إلا أن يصرخ في ذعر، فقد كان هناك عند رأسه مباشرة، كان هناك برؤوسه الأربعة وأذرعه الثمانية، وأجنحته الستة عشرة وانفجارات النار من كل جزء فيه، وهو لا يعرف كيف تمكّنت ساقاه من حمله والركض به. ركض وركض، واصطدم بجدران،

وانزلق في منزلقات، ركض لا يعرف لم يركض، ولكنَّ الرعب كان أكبر منه. وحين لم يعد صدره قادراً على التنفس، ولا قلبه على الوجيب توقف مغمضاً عينيه مستسلماً: إن كان قدري أن أؤكل على يديه، فليتم هذا وأنا مغمض العينين، فلم أعد أستطيع مزيداً من الركض.

أخذ قلبه يهدأ ورئته تسترخي، ولم يؤكل بعد، ففتح عينيه موارية ليجده فوقه تماماً، فصرخ مذعوراً، صرخة كان يمكن لها أن توقظ مدينة. وركض، ركض يصطدم بالجدران وينزلق عند منزلقات الأبواب، ركض حتى لم يعد يستطيع مزيداً من حركة لساقيه، فارتمى مستسلماً لا يجرؤ على فتح عينيه، فقد كان يعرف أنَّه سيجده فوقه تماماً برؤوسه الأربعة وأذرعه الثماني وأجنحته الست عشرة وانفجارات النار من كل فتحة فيه.

مذعوراً، مرعوباً، منهوكاً، ضائعاً تمتم في استسلام: ولكن ماذا تريد مني. أنا الفقير شاكر بن عبد الغني وجدي والله، والله كان اسمه عبد الملك؟ أنا من عائلة لم تغضب يوماً الرب أو السلطان، جدي كان اسمه عبد الجبار، ثم كرَّر ثانية، أخي اسمه حامد، وأختي اسمها رضية، وأبي عبد الغني وجدي عبد الملك إكراماً لله!... هو لا يعرف لم كان يتمتم بهذه الكلمات، ولكنه فيما بعد وحين كررها عرف أن المطلوب كان أن يسرد سلسلة نسبه، وقد فعلها، وأخيراً لم يستطع إلا أن يصرخ: ماذا تريد مني؟ أنا لست إلا ابن آوى صغير. فجأة اختفت الهمهمة والدمدمة حين وصل إلى ابن آوى.

فتح عينيه ليجد النار التي كانت تنبثق من كل فتحة في المخلوق العجيب وقد انطفأت والأجنحة الستة عشرة وقد انطبقت، وتحول

الكائن المرعب إلى كومة متهدمة. تشجع. قام من استلقاءته المرعوبة.. تسحَّب بهدوء يريد الهرب ويتوقع مطاردة المخلوق ذي الرؤوس الأربعة، ولكنَّه اكتشف صمته، وربما موته.. تجرأ، لمسه، لم يستجب وأحس بارتياح عجيب: فما الذي يجري إذن، وما هذه المدينة التي تستقبله بدلاً من أكوام الطعام يشبع جوعه كما روى مماليك الضياع، وبدلاً من أنهار الشراب يروي ظمأه، وبدلاً من عشرات الجواري يكون حظه... هذا الوحش؟

رفسه برجله في شجاعة مفاجئة، ولكن المخلوق ذا الرؤوس الأربعة لم يتحرك. تمتم لنفسه: هاه، لعلي قتلته دون أن أدري، وتحسس جسده بهدوء لعل الله استجاب لدعواتي، فأماته، أو لعلَّ في سحراً لا أعرفه.

تقدم إلى الأمام وحين طنَّت ذبابة سؤال: ما السلطان إذن؟ طنت، صدى لنغم قديم، فهشَّها بهدوء، ومشى يبحث عن جواب لأسئلة لا يعرف كيف سيطرت على عقل لا ينشغل عادة بالأسئلة.

ما السلطان إذن؟ وبهدوء أدركته حالة من الذوبان أشبه ما تكون بالوجد لدى سادتنا من الصوفيين، فلقد تذكره تماماً في مجلسه السامي قبل المبارزة اللعينة. كانت المرة الأولى يراه عن قرب كهذا القرب. أغمض عينيه جاثياً وفتحهما عدة مرات يحاول تعويدهما على رؤية هذا الكائن الذي قرن الله طاعته بطاعته، فقال: أطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر. وهل هناك وليٌّ أهمُّ من سلطان الزمان؟ نظر إليه موارية يخاف، بل يخجل أن يضبطه السلطان يحدق به، فشاكر كان دائماً حسن التهذيب ينحرف عن طريقه لمرور امرأة، ويميط الحجر عن طريق المؤمنين. لا يبول واقفاً ولو انفجرت أحشاؤه، كان يشرب على دفعات، فالشرب دفعة

واحدة مكروه. كان لا يدخل المرحاض إلا بقدمه اليسرى بعد أن يقول: أعوذ بالله من الخبث والخبائث. وعند الخروج كان يخرج بقدمه اليمنى قائلاً الحمد لله الذي عافاني، وأذهب عني الأذى.

كان يحفظ سلسلة من الأدعية تبدأ بـ "اللهم ارزقني ولداً صالحاً" عند مباشرة زوجته، ولا تنتهي إلا بـ "وانصر مولانا السلطان على كل من يعاديه"، لذلك كان من قلة الأدب الصارخة أن ينظر مباشرة في عيني... سيدنا ومولانا السلطان. أفلم يقل عنه النبي الكريم صلوات الله عليه: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

نظر إليه مواربة يحاول أن يرى الشيء المختلف عن أبناء أبوينا آدم وحواء صلوات الله عليهما الذي جعله السلطان. تمتم لنفسه: الهيبة. ولكن... راجع نفسه... الهيبة كانت موجودة حتى لدى أبي الشيخ عبد الغني. كان إذا مرَّ بالحارة انحاز الجميع عن طريقه هيَّابين ليس خوفاً من بطشه، بل احتراماً لقيامه الليل وللحيته الجميلة وذهول عينيه عن رؤية صغائر الأرض. لا...لا... ليست الهيبة، كرَّر النظرة المواربة، وقال: طوله العملاق. ولكنه حين أحدَّ النظر اكتشف أنه لم يكن طويلاً، ولم يكن ضخماً، ولم يكن مهيباً أكثر من الآخرين. وأخيراً وقبل أن يتقدم أبو عبد الله ليبدأ المبارزة العظيمة عرف الشيخ شاكر السبب: إنه عيناه المائلتان، العينان المرعبتان الخازرتان تحملان آلاف التهديدات. وحين قال المرعبتان، فيما بينه وبين نفسه، كان أبو عبد الله قد أنهى خطابه القصير، ورمى رأسه تحت أقدام حبيبنا وسيدنا ومولانا السلطان.

تقدَّم في شارع مبلَّط بالرخام الأنيق، وتمتم معجباً: ما أنظفه كأن الكناسين قد انتهوا لتوهم من تنظيفه. ولكن. أين الناس، أين الموائد المنهارة تحت ثقل ما عليها من طعام. أين البساتين الفائحة

بأشـربتها الــــحـلال...إنـه لا يطمـح إلى أكثـر مـن شـراب التـوت أو عصير المشمش أو الدراق الملتوت بالثلج، ولا بأس بشراب الورد.... ثم... أين أولئك النساء الحوريات اللواتي تحـدث عنهن يلبغـا وأراهـم مزقـة من ثوب إحداهن، إنه لا يطمح إلى الكثير منهن. يكفيه أربعة كما نص الشرع الشريف شريطة أن يكنَّ فتيـات نحيلات بعـض الشـيء، فلقد أسقمته أم العيال بسمنتها وتنفسها الثقيل.

انفجـر فجـأة زئير مريـع، فقفـز إلى الأمـام، قفـز دون أن يلتفـت مذعوراً حتى التوهان. كان يحسُّ بصوت المخالب يصطفق بالرخام النظيف من خلفه فيركض. أعوذ بالله. ما الذي يجري. أية مدينة هذه. ليتني لم أغادر مدينتي. أهي مدينة الخوف. ما أكاد أتخلص من ذلك الهولة العجيب برؤوسه الأربعة حتى يطاردني هذا... الـ... وانزلقت قدمه، فسقط مرعوباً لا يجرؤ على فتح عينيه، فقد عرف أنها نهايته، فتمتم يتشهد، وانتظر أن تأكله تلك المخالب التي طاردته حتى الآن، ولكن، ناباً لم ينغرز فيه، ومخلباً لم ينشب فيه. تشهَّد، وتشهَّد، وقرأ الصمدية عشر مرات، وأخيراً ومن خلال لهاثه الذي أخذ يهدأ أدرك أن الوحش المطارد قد سكن، ففتح جانباً من عينيه ليرى ويصرخ مرعوباً. كان يقف فوقه مباشرة يدلي لساناً أحمر طويلاً يقطر لعاباً، سمّاً، فانطلق لا يعرف كيف واتته القوة مبتعداً، وانطلق يركض ثانية، وما إن اندفع يركض حتى سمع اصطفاق المخالب بالبلاط تدوي فيركض. ولكن سرعة ركضه كانت تعادل تماماً سرعة اصطفاق المخالب بالبلاط، يهدئ سرعته التعب، فيهدأ الاصطفاق، ويستجمع الرعب بقايا قوة، فتزداد سرعة الاصطفاق، وأخيراً أدركه اليأس، أي رعب هذا؟ ما الذي جنيت حتى تفعلوا بي هذا، أنا الدكنجي الفقير شاكر بن عبد الغني؟

والله لم نؤذ أحداً في حياتنا، لا أنا ولا أبي عبد الغني ولا جدي عبد الملك، ولا حتى أبوه عبد الجبار، فلماذا... وفجأة ومن خلال رعب ما قبل النفثة الأخيرة تمتم: نحن مجرد جراء ضباع لا نملك عضاً ولا أذى. إكراماً لله دعوا جيفنا علينا. وفجأة انتبه إلى أن الاصطفاق توقف، فمشى مدفوعاً باندفاعة رعب، واستند إلى الجدار الأقرب يستجمع أنفاس ما قبل موته، وأحدَّ الأذنين ليدرك أن الاصطفاق قد توقف فعلاً، فالتفت محاذراً ليراه ويشهق. كان هجيناً من نمر وأسد، كان مزيجاً من نسر وضبع، كان، أعوذ بالله. أيوجد مثل هذا الوحش. ولكنه كان، وكان مقعياً، لماذا؟ هل يستجمع قواه ليقفز قفزته الأخيرة وتكون النهاية، ولكن.. التفت ثانية محاذراً مواربا في نظراته يخادع الوحش، ولكنه مقعٍ... مقعٍ، مسند رأسه إلى البلاط في... في... لا... إنه ليس وحشاً، إنه، يا لعينيه المستسلمتين ولكن، يا لمعجزات الله العظيم، كيف اجتمع رأس النمر على لبدة الأسد إلى جناحي النسر، إلى رائحة الضبع. كيف؟ كيف؟

التفت هذه المرة بكامل رأسه، شجعه استكانة الوحش الذي لم يتحرك.. أخذ يتسحَّب، يتسحَّب مبتعداً يتوقع اندفاعة واصطفاق المخالب والزئير المهدد، ولكنَّ الوحش ظل على إقعاته ولسانه اللعابي المسترخي خارج حلقه و.. نظرته الطيبة، الطيبة؟

أعوذ بالله. فعلاً. إنها نظرة قطة من قطط البيت المقرقرة تطلب ربتة. تحركت قدماه بهدوء باتجاه الوحش. أهو قطة ضخمة، أتراه كان يركض يطلب أنساً. اقترب منه، صار إلى جانبه وقدماه تستعدان كنابض للهرب عند أول نذير بشرٍّ، ولكنه لدهشته، لذهوله، لقهقهته المجنونة اكتشف أن الوحش كان ميتاً، ميتاً. طبطب عليه، فصدى ما كان وحشاً صدى ظرف منفوخ، حُركه،

فانقلب مستسلماً، فصرخ: ولكن من كان يركض من خلفي ويصفق مخاليه على البلاط فأثار في قلبي الموت إذن؟... ولكن جواباً لم يسمع، فرفس ما كان الرعب ورهبة الموت قبل قليل ومضى.

طنَّت ذبابة السؤال الثقيل أطلقها طمأنينة موت الوحش، فما السلطان إذن؟ ولكنَّ سؤالاً آخر أخذ يخالط السؤال عن السلطان ويناويه: كيف مات الوحشان، ولماذا؟. ولكنَّ ذبابة السؤال الأهمَّ في حياته عادت إلى الطنين المزعج، فما السلطان إذن؟. هشَّها بكف غير واعية، ولكنها أمعنت في طنينها، ومرَّ كخاطرة سريعة وجه السلطان السعيد يتأمل المبارزة، مبارزة الحب، مبارزة الولاء، مبارزة الإخلاص لسيدنا ومولانا سلطان الزمان، وبهدوء تذكر حديثاً ألقاه مرة ولي الدين الصالحاني حين قال: من مات ولم يبايع سلطان زمانه مات ميتة جاهلية. وقد أنكر عليه الكثيرون هذا الحديث، وكان هو الشيخ شاكر ممَّن أنكر هذا الحديث. ولكن، ما الذي يذكِّره به الآن؟ أتراه الجواب على سؤاله الوقح: ما السلطان إذن؟

مع الانعطافة التي ساقه إليها انعراج الطريق وجد نفسه يواجه القصر، القصر العظيم، وشهق: يا قدرة الله العظيم. لابد أن يكون مركز السلطان.

كان شيئاً سامياً. أشرف على عينيه بكمه يحميهما من الشمس، ولكنه على غير إرادة منه كان يحميهما أيضاً من وهج الجلال والعظمة. أحدَّ النظر ونادراً ما جرؤ، وربما كانت المرة الأولى يرى القصر بنظرة مباشرة، فقد كان دائماً يختفي في القلعة بعيداً محمياً بالجند والعسس والألفيين وقادة المئين. ومن كان يجرؤ على اختراق كل هؤلاء الناس ليصل إليه؟ والحقيقة أنهم كانوا يعرفون أن رؤيته للمرة الأولى كانت في معظم الأحيان الأخيرة، ولطالما

كانت الرؤية الأولى نتيجة جرم كبير عقوبته الموت. لذلك كانت دعواتهم على أعدائهم: الله يعجل عليك شوفته. وكان دعاء كهذا كثيراً ما يستجر شجارات تدمي قائليها. ولكن.. هاهو يراه وحيداً سامقاً لا حرس ولا ألفيين، ولا قادة مئين، وتلفت من حوله محاذراً. أتراهم يختبئون في مكان ما ينتظرون حركة خاطئة منه لينقضوا عليه؟ ولكن. أيجب أن يكون سلطان هذه المدينة كسلطاننا، وهزَّ رأسه في وقار: السلطان في هذا العالم واحد. قالها وهو يلقي بحكمة العمر.

سمع همهمة قريبة فالتفت، ولدهشته الصارخة رآهما باركين على مقربة منه، ذو الرؤوس الأربعة والأيدي الثماني والأجنحة الست عشرة، وهجين وحوش الأرض كلها. رآهما يهمهمان في وداعة، ويهزان ذيليهما في تودد، وأخذ يستجمع شجاعته للركضة الأخيرة، ولكنه مسكوناً بوحي لا يعرف كيف نزل عليه عرف أنه روضهما، وأنهما تحولا إلى خادمين لديه. كانا يهزّان ذيليهما ويصدران قرقرات وبربرات تودد. وأخذ الرعب يختفي، بل أخذت كفه تتحرك لوحدها كمن تريد الربت عليهما وحكّ ماتحت ذقنيهما في تودد. وعاد السؤال يلح: كيف روّضتهما. أخذ يستعيد كلَّ ما فعل منذ دخوله المدينة، وتذكر أنه لم يفعل إلا أن ركض أمامهما حتى أتعبهما. أتعبهما؟ لا. لم يتعبهما، وهما على أية حال مخلوقات لا تتعب. إذن، فما الذي كسر شوكتهما. آه. قالها في انتصار: ربما كنت الموعود بدخول المدينة، وكانت آية وعدي أن أقرأ نسبي كما يقولون في الحكايات. ولكن أيّ نسب يا شيخ شاكر! إنهم ثلاثة آباء من المساكين. النسب يكون بشجرة العائلة العظيمة ترجع إلى آدم، فإن لم يكن لآدم، فلأحد من أحفاده، أو أحفاد أحفاده،

ولكنك أيها المسكين لا تكاد تصل إلى الجد الثالث إلا بصعوبة. نظر إلى السماء، إلى الأشجار القريبة يبحث عن حمامة الوعد التي يعرف أنَّها هابطة عليه إن كان الموعود، ولكنَّ الحمامة لا تحط عادة إلا على الموعود بالسلطنة، وكاد يطلق قهقهته يهزُّ بها أركان المدينة: ومثلك يطمح إلى الوعد بالسلطنة، السلطان مخلوق آخر يا ولدي. مخلوق لا ينتمي إلى الأعراق المنحطة. السلطان يستطيع لو طلبت إليه أن يستدعي شجرة نسبه أن يجرَّ شجرة ترجع إلى آباء أكثر احتراماً من آبائك، ولكن... المدينة خالية لا سكان فيها، وهو يعرف في ركن خاص بالحكايات في عقله أنَّ المدينة تصاب بالرعب حين يموت السلطان، فكيف تعيش مدينة بلا سلطان، وللهرب من الرعب والضياع كانوا يلجأون إلى حيل كثيرة، حمامة الوعد تنزل على الموعود، فيصبح السلطان. سهم يصيب الموعود ولا يميته فيصبح السلطان، بحيرة يرمى بها الموعود موثوقاً فلا يغرق ليصبح السلطان، سيف مغروز في صخرة ينتزعه الموعود فيصبح السلطان.. المدائن كثيرة وطريقة اختيارها لمن سيكون سيدها كثيرة أيضاً.

تلفَّت من حوله وقد آمن أنَّه الموعود، فهاهو يروِّض الوحشين وهاهما مقعيان عند قدميه، وما عليه إلا أن ينتظر سكان المدينة يخرجون من مخابئهم ليعلنهم أنَّه الموعود وقد جاء..

انتصب من جلسته، وتحرك باتجاه القدس الأعظم، القصر، ورآهما يتبعانه يهران في وداعة. وضحك ثانية: كيف روَّضتهما؟! وهشَّ بسرعة فكرة أنَّه قرأ شجرة نسبه، وفجأة تذكر، لقد قال في حضيض رعبه أنه ابن آوى، وأنه ليس إلا جرو ضبع، أهذه هي كلمة السر.

وتمتم: فلنجرب. وصرخ: أنا ابن آوى صغيراً وما كاد الصدى يرجع إليه النداء حتى رآهم يخرجون، من الأبواب المغلقة البعيدة يخرجون، من الشرفات يطلّون، من الدكاكين تفتح أغلاقها يخرجون. نظر إلى الوحشين يهرّان من خلفه، وكاد يقسم أنه رأى السعادة على وجهيهما وعرف أنّه قد قال كلمة السر.

تمطّى سعيداً. إذن فأنا الموعود، وهاهي المدينة تنتظرني لأكون السلطان. استجمع قواه، تمطّى ينشط عضلاته، ثم تحرك باتجاه القصر والناس المحيطين بالقصر ينتظرونه. كان هنالك سوق عليه أن يخترقه حتى يصل إلى الساحة العظيمة التي يطل عليها القصر من عليائه على التل.

كانوا كثيرين، خرجوا من بيوتهم، دكاكينهم، شرفاتهم، رآهم وقد تجمعوا في الساحة ينتظرون. تمنى لو يسمع هتافاً، لو يرى انحناءات، لو تحطّ الحمامة، ولكنّه كان وحيداً إلا من الوحشين يحرسانه أثناء عبور السوق.

دخل السوق الضيق إلا من مظلات تحمي الدكاكين، نفخ صدره وبثّ في نفسه الجلال الذي طالما رآه على الألفيين وقائدي المئين وهم يعبرون شارع المدينة مسبوقين بحَمَلَة الطبول والدبادب، متبوعين بالمماليك في فضتهم ورياشهم، نفخ صدره، وقال لنفسه: أنا الآن السلطان الكبير الموعود بكرسي هذه المدينة، وهاهم الرعية يرونك للمرة الأولى، عليك أن تنفخ فيهم من جلالك. انتفخ. انتفخ. تعاظم يا رجل! وما كاد يقول جملته الأخيرة حتى رآهما أمامه يحملان سيفيهما، ولم يصدق عينيه، أخوه حامد وأخته رضية يحملان سيفين. نظر إلى الدكان الأول ورأى سيفاً معلقاً ضخماً صقيلاً، عرف من نظرة واحدة أنه لو هوى به على صخرة من صوان

لقطعها. نظر إليهما وإذا به يرى أمه العجوز تحمل خنجراً تلّوح به. ما الذي يجري هاهنا. نظر إلى السيف الصقيل وكان يدعوه: احملني. احملني واضرب بي من يقف في وجهك عائقاً دون الوصول إلى القصر. نفض رأسه يريد أن يستيقظ من هذا الكابوس ولكنَّ أباه، أباه العجوز الميت منذ سنين حمل سيفه وهجم عليه. لحقت به أمه، أخواه. نظر إلى السيف وكان يدعوه: احملني. أنقذ نفسك. أنقذ قصرك. هجموا جميعهم، الأم، الأب، الأخوان. لم يبق بينه وبينهم إلا أذرع حينما سمع هتاف أولئك الذين سيكونون رعيته، سمعهم يهتفون: اضرب فالملك عقيم، احمل سيفك تنقذ عرشك.

هو لا يعرف كيف فعلها، ولا لماذا، ولكنه فجأة أدار لهم ظهره، للقصر، للرعية، وللإخوة يحملون السيوف، أدار ظهره واندفع هارباً، وما كاد حتى تحول الوحشان، ذو الوجوه الأربعة، وهجين وحوش الأرض إلى أنياب ومخالب، انقضا يهاجمانه، وعرف أن الأمر هذه المرة جدي لا خداع ولا مزاح، فانطلق يعدو، ويعدو حتى وصل إلى إطار باب المدينة وما كاد يصل إليه حتى انزلق ليجد نفسه عند الجهة الأخرى من الباب.

التفت يلهث، ورآهم جميعاً، الأخوين، والوالدين، والوحشين وقد تكوموا كتلاً من جلد وصدى. سقط يلهث لا يملك صدراً يتنفس، وبأسى عميق رآها تبتعد وتبتعد، ثم تطير. غمره حزن، وعرف أنه لن يفرح بعده، فلقد عرف أخيراً جواب السؤال الذي كان يطن كذبابة ملحاحة يهشُّها، وتلحُّ، وتلحُّ، وتعود.

لا يعرف كيف تذكره، ولا لماذا تذكره الآن، ولكن - همهم معتذراً- إنها الاعيب الذاكرة. قالها وهو يسمع ولولاته وعويله وكأنها تتفجر هذه اللحظة. كان قد استجاب لنصيحة أبيه القلم دار السابق الذي رشّحه ليكون خليفته عند السلطان الجديد، فتقدم إلى السلطان بنصيحة واضحة و.. مفيدة..: مولاي، وزير السلطان السابق وأمير آخوره، وسلاح داره، وصاحب بيت المال قد انتفخوا بالأموال التي حصّلوها في زمن السلطان السابق... دعنا ننكبهم! ونظر إليه السلطان بعينين مندهشتين: ولكنهم جميعاً تعاونوا معي. إنّهم بطانتي ولحافي ومَدْرَعَتي. إنهم عمدي.

ولكن القلم دار الجديد تقدم منه يفحُ: ولهذا يجب أن ننكبهم يا مولاي! على السلطان ألا يكون مديناً لأحد. إنهم جميعاً يظنون ويؤمنون بأنهم من ساعدوك على الوصول إلى العرش. ولهذا فهم أصحاب حق، وعلى السلطان أن يظلّ مديناً لهم إلى الأبد... ولما رأى نظرات التغير على وجه السلطان أكمل: السلطان ليس مديناً إلا لله الذي وهبه العرش، وجعله أداته في إدارة العالم... ورأى السلطان يلين فتابع: هناك ثلاث مصالح في نكبتهم يا مولاي. أولاً التخلص من أصحاب الفضل والمنة. ثانياً: تعيين واختيار أناس لا فضل لهم ولا قيمة خارج منحة السلطان، فهو من صنعهم من الغبار، فيدركون أنّه قادر على إعادتهم إلى الغبار متى شاء. ثالثاً: الخزينة فارغة، وخزائنهم مليئة ونحن بحاجة إلى هذا الامتلاء!

استأذن القلم دار مباشرة بعد محاضرته تاركاً السلطان الجديد يلوك ويبتلع نصيحة القلم دار الجديد، تلك النصيحة التي سيظلُّ ممتناً لها إلى آخر العمر.

وحين أمر السلطان أخيراً بنكبة الحلم دار كان هذا آخر ما يطمح إليه القلم دار، فهذا الرجل لا شوكة له ولا ذباحة كما يقولون، ولا ثروة خاصة لديه ولا أملاك ولا ضياع، فلماذا يأمر السلطان بسلخه؟

هو لا يعرف كيف تذكّره، ولا لماذا تذكّره الآن، ولكنه فجأة سمع ولولاته وعويله وهم يسوقونه إلى ساحة العقوبات. كان يصرخ كامرأة، ويولول كصبي أضاع أمه. كان متناقضاً تماماً بصرخاته وتوسلاته مع شكل الرجل الذي كان يحمله.. صرخ وولول وتوسل حتى رقَّ قلب القلم دار له، ولم يكن له عادة بالرقة، وكم تمنى لو لم يحضر عملية السلخ هذه، ولكنه في حياته العملية كلّها لم يشهد عملية سلخ! صحيح أنّه شهد عملية توسيط الأمير آخور الذي ظل مصراً على لعن السلطان الجديد ناكر الجميل حتى اضطرَّ إلى الأمر بتوسيطه، وحين ضربه الجلاد بسيفه الثقيل جداً فقطع وسطه، كان الأمر أقذر من أن يحتمل، فمن وسط الرجل العظيم القوي المتحدي الذي طالما أرعب مدناً بموكبه يعبرها اندفع البراز الأصفر مختلطاً بالدم الأحمر، بلحم الأمعاء الأبيض بالكبد الأسود، بصراخ الرجل العظيم الذي تخلى فجأة عن كل وقار، فقد كان الألم أكبر من كل وقار، وكان أهم ما قاله توسله إلى الجلاد كي يجهز عليه، فلم يعد يحتمل مزيداً من الألم.

كان قد شهد التجريس حين أمروا بقاضي القضاة فحمل على ظهر جمل بسنامين مع قردين يصفعانه والعوام يرجمونه بالحصى

والخضار المتعفنة حتى وصلوا إلى المصلّب ليصليوه، فشهد القاضي العظيم وقد خلعت عنه ثيابه، ونتفت لحيته وسباله، فتبدى شيئاً ضئيلاً مثيراً للشفقة، أين منه قاضي القضاة الذي كانت كلمة منه كافية للموت والحياة.

كان قد شهد الدفن منكوساً، الرأس في التراب والرجلان تعريدان في الهواء قبل أن تسكنا إلى الأبد.

كان قد شهد كل أشكال القتل، ولكنه لم يشهد أبداً عملية السلخ حياً، وهذا ما جعله يصحب ابن السلاخ والحلم دار إلى ساحة العقوبات ليرى ويكتب في مذكراته التي سيتركها لابنه الذي سيكون القلم دار الجديد كيف يسلخون الرجل حياً ويبقون على حياته. ولكن الحلم دار خيَّب أمله ببكائه وتوسلاته وولولاته كامرأة ضعيفة، لا، فقد شهد نساء كنَّ أصلب من هذا الرجل، وكاد يعود متخلياً عن الفكرة لولا شهوة العلم والفضول التي شدَّته إلى وجوب المعرفة والكتابة عن عملية السلخ فلربما لن يتمكَّن ابنه من مشاهدة عملية سلخ ثانية.

لم يكونوا كثيرين أولئك الذين تجمعوا في الساحة يتفرجون على سلخ الحلم دار، فلقد سئموا هذه الحفلات التي صارت يومية والتي تخلص فيها السلطان الجديد من أركان السلطان السابق كلهم قطعاً وحرقاً وصلباً، سئموها بعد أن كان بعض الزعران يحجزون الصفوف الأولى ثم يبيعونها لمن يرغب في الفرجة على العظماء السابقين يقطعون ويصلبون، ويحرقون، فيحسُّ بسعادة العدل، ويردِّد قول خطيب الجامع: وبشِّر القاتل بالقتل. ولكن حين كثر القتل، وصارت الفرجة تعطِّل الناس عن مصالحهم أخذ

المعلّمون يضربون متدربيهم ويطردونهم إن أصروا على ترك أشغالهم للفرجة على العدل في الساحة.

كانوا بضعة رجال متعطلين فقط من تحلّقوا حول المنصة التي ربط الحلم دار إلى عمود الصلب فيها، وكان ابن السلاخ يسنُّ سكينه الصغيرة الحادة بينما انزوى القلم دار مع الحرس يراقب في حذر متوجساً من هوجة مفاجئة للعوام، هؤلاء الذين لا تعرف ما الذي يغيِّرهم فجأة، فقد كان عواء وولاويل الحلم دار يقطع القلب، كان يصرخ وينادي أمه، ويستنجد بالله الرحيم وبالناس: إكراماً لله. أنقذوني. كيف ستعيشون من بعدي؟ وخشي القلم دار أن يتأثر العوامُّ ببكائه واستصراخه لهم، فيتحركون لإنقاذه، أو يقومون بفعل ما يزرع البلبلة في المدينة، فأشار إلى ابن السلاخ ليبدأ مهمته، ولكن ما أدهشه حقيقة هو أن ابن السلاخ نفسه كان مرتبكاً، فلقد حيَّره بكاء وعويل الحلم دار، حيَّره حتى لأسقط السكين التي سنها جيداً من يده مرتين دون أن يجرؤ على البدء بسلخ الحلم دار، وأخيراً انحنى أمام القلم دار وهمس يستشيره: أخاف أن يكون المظلوم!. غضب القلم دار، غضب حتى الازرقاق: أنت تشكِّك في مولانا السلطان وعدله. أنت تعرف إلى أين يمكن أن تقودك مثل هذه الأفكار.

واندفق يؤنبه هامساً يكرر خطباً يحفظها غيباً ويهدِّد بها نفسه سراً والآخرين أيضاً قبل أن يضرب ضربته ويحيلهم إلى القاضي. لكنها المرة الأولى تنفلت الكلمات ومن فمه، وضدَّ من؟ ضدَّ هذا السلاخ المسكين الذي لا يستطيع إلا أن يكون السكين قبل أن يكون حامل السكين. انتصب ابن السلاخ مذعوراً، فقد كانت كلمات القلم دار مهددة كالسكين التي يحملها. أصمَّ أذنيه تماماً عن صرخات الحلم دار، لم يحاول حتى أن يكمِّمه، فقد كمَّمه

رعبه من القلم دار، أمر بتمديد عمود الصلب على الأرض، فمدّد، وعرف الحلم دار أن النهاية اقتربت، فأطلق صرخات الاستنجاد، والغريب أنَّ كل تأثير لصرخاته على المتحلقين من المتعطِّلين كان الضحكات والقهقهات، بل تقليد صرخاته تقليداً ساخراً. اطمأنَّ القلم دار فهؤلاء الضاحكون الساخرون إنَّما يسخرون شامتين من واحد من رجال السلطان، أفليس اسمه الحلم دار؟

انحنى ابن السلاخ الأصمُّ الأعمى لا يرى وجه الحلم دار المتلوي، وطعنه بالسكين في كاحله ليبدأ العملية الكبرى، عملية السلخ النظيف يبقي المسلوخ حياً ما دام الجلد موصولاً عند السرة، يبقى حياً مدهوناً بالمرهم السري الخاص بابن السلاخ، يبقى حياً ينتظر كلمة السلطان الأخيرة فإن أشار بالموت شد الجلد المسلوخ عن السرة فمات المسلوخ، وإن رأف السلطان أو رحم أعاد الجلد إلى مكانه فالمرهم يحفظ اللحم والجلد رطبين قابلين للالتحام والحياة، طعنه في كاحله معِدّاً طبق المرهم ليدهن ما تحت الجلد أولاً بأول. ولكن ما صدمه وأرعبه، وأرعب القلم دار والمتحلقين من المتعطلين أنَّ جرح الكاحل بدل أن ينزف الدم انبثق منه دخان أبيض، دخان أشبه بالبخار، وكان أولُّ من أذهله الدخان الأبيض ابن السلاخ الذي تحول مباشرة إلى واحد من مجذوبي المدينة الذي لن يتوقف عن التنديد بالظلم حتى يصلبه الجفتائي بعد دخول المدينة؛ وكان أولَّ المصلوبين. أمّا القلم دار الذي كان يقف على الأرض في مكان ينخفض عن المنصة بذراع تقريباً، فقد استطاع الاحتماء تحت المنصة من الدخان الأبيض، ولكن ليس تماماً، فمنذ ذلك اليوم بدأت أيام نحسه إذ أخذت الأحلام والكوابيس تهاجمه، وبدأ الاعتزال عن السلطان إلا إن استدعاه السلطان. صار يحس فراغاً في القلب لا

تملؤه الجواري ولا الغلمان، ولا رحلات الصيد الطويلة، ولا حتى حلقات الذكر. وحين قصَّ أحلام توقه هذه على الرحالة المغربي ابن الفاسي، فحدثه عن عذاب الأحلام، ثم أضاف يتنهد: تعيس من ابتلي في هذا العالم بالأحلام... ثم سأله عن حياته، فحدَّثه عن قصر أبيه الذي أصبح قصره، حدَّثه عن النساء والعبيد، حدثه عن السلطان والجرايات الهائلة. قال: ليس لديَّ حلم لم يتحقق. فقال ابن الفاسي: ليس من ابن أنثى حقّق كل الأحلام. ليست الأحلام واحدة يا سيدي. فحلم الجياع يختلف عن حلم الشبعى، وحلم المظلومين يختلف عن حلم الراتعين بالعدل. لقد لوثتك الأحلام يا سيدي، وستفسد ما تبقى من حياتك. تذكر جيداً، متى كانت الإصابة بمرض الأحلام، حاول أن تتذكر.

لم يستطع التذكر، فالمدينة بعد طرد الحدادين منها، أولئك الذين حطّت على سوقهم غيمة الدخان الأبيض، فأصيبوا بالحلم، وخرجوا من سوقهم متخلِّين عن أكوارهم المشتعلة ومنافيخهم الصافرة ومطارقهم المعلقة وحديدهم المستلقي على السندان ينتظر الضربة الأخيرة؛ خرجوا وعرف الجميع أنَّ جنوناً قد تلبسهم، فقد هاجموا قصر السلطان دون سيف، أو رمح، أو قوس لا يطلبون إلا شيئاً واحداً... العدل، وحين أدرك السلطان أنَّهم قد تجاوزوا كل حد مسموح به في مدينته أمر بطردهم إلى الثغور يحاربون الروم ويستعيدون العدل المأسور لديهم.. ولم يعودوا.

وباتت المدينة للمرة الأولى لا تسمع طرقات الحدادين ولا أنين منافيخهم، ولا حتى أحلامهم الطائشة.

هو لا يعرف كيف تذكّره، ولا لماذا تذكّره الآن، بل هو لا يعرف كيف انضمَّ إليهم عند خروجهم من المدينة يبحثون عن المدينة

الهاربة. عرف شيئاً واحداً هو أنّهم جميعاً تخلّوا عنه واحداً واحداً، وهاهو يواجه الصحراء وحيداً يبحث عن مدينة لا يعرف وصفها أو موقعها ولا سلطانها أو جلاديها.

فجأة تذكر السلطان، وصعقته الذكرى. توقف تحت الشمس الحارقة لا تحميه إلا عمامة وسّخها العرق وغبار الصحراء والنوم في العراء. توقف يتساءل: كيف يفكر السلطان الآن وقد هجره القلم دار ومضى يبحث عن المدينة الهاربة؟ راجعه أسف صغير، فكيف رضي أن يخرج مع العوامِّ والهوام والدهماء...؟ أهو يبحث فعلاً عن المدينة الهاربة، ولماذا....؟ ما الذي سيفيده منها. أهو بحاجة إليها ولديه مدينة البساتين تجري من تحتها ومن حولها الأنهار؟ أهو بحاجة إليها ولديه في حديقته الخاصة حوريات الأرض وغلمانها وأشجارها النادرة...؟ ما الذي سيفيده من المدينة الهاربة؟ من حق الفقراء والصغار والمحرومين أن يبحثوا عن مدينة لا جوع فيها ولا عطش ولا سرير بارد، ولكن.. هو.. هو..... القلم دار ما له ولهذه المدينة وهي لديه فعلاً ومنذ طفولته. هو لا يذكر أبداً معنى الجوع. إنه يعرف الجوع كلمة مؤلفة من ثلاثة أحرف، واسم الفاعل منها جائع وتجمع على جياع و... لكنَّ ... الجوع نفسه كما قرأ عنه في الكتب. لا لم يعرفه، فلماذا يهرب منه؟ العطش؟ إنه لا يعرف أبداً معنى العطش. هـه والسرير البارد؟ هـه، ورفّت على وجهه بسمة متواطئة. كان سريره دافئاً حتى قبل أن يبلغ الحلم.وصرخ في حنق: فما الذي أخرجك مع هؤلاء العوام.

ما الذي تريد إذن...؟

وبهدوء رأى ابن الفاسي المغربي يمرِّر حبات مسبحة من ثمار بلوط جافة صغيرة بين أصابعه يقول: الحلم مرض، مرض لا تعرف وجهه

حتى تصاب به. قد يشفى المرء من الجدري، ومن السلّ، ومن الطاعون، فقد خلق الله لكل داء دواء. أما الحلم فمرض لا شفاء منه ومن أصيب به لن يشفى، فكلما أدرك حلماً وتحول إلى منجز انفتح القلب لحلم جديد، حاول يا ولدي. حاول، فالحياة جديرة أن تعاش حتى مع الأحلام ثم تأوّه معذباً - ولكن ما أقسى الحياة مع الأحلام التي لن تنجز.

فيما بعد سيحدثه صاحب الحمام نوري عن مرض يصيب الحمام، قال: الحمام يغير ريشه مثل كل الطيور مرة كل عام، فيرمي الريش القديم ويستبدله بريش جديد. ولكنّ مرضاً غامضاً يصيب بعض الطيور فيجعلها تغيّر ريشها بشكل دائم في الصيف والخريف والشتاء والربيع، إنها لا تتوقف عن إسقاط ريشها واستبداله بريش جديد أبداً، ولأنّ تغيير الريش هذا يستنزف طاقة الطير تجده منعزلاً ضعيفاً لا يستطيع الطيران الجيد، لا يستطيع مطاردة الإناث، بل لا يهتم بهنّ، لا يهدل، ولا يشاجر الذكور الأخرى. تجده منغلقاً على نفسه، وكأنّه غارق في حوار طويل مع النفس. في البداية يبدو الأمر وكأنه شيء بهيج، فالطير يسعى وراء ريش جديد لم تبلِهِ الأيام، ولم يوسخه مرور الفصول، ولكنك حين ترى الطير وقد تحول إلى آلة تغيير ريش فقط. تعرف أن الطير في الطريق إلى النهاية.

كان القلم دار يفكر في كلام نوري كلما تذكر كلام ابن الفاسي عن مرض الحلم غير المنجز، حلم إثر حلم كريش إثر ريش إثر ريش في طير لا يقتنع أبداً بثوبه الجديد من الريش.

توقف على مرتفع رملي يتأمل الصحراء الواسعة حتى اللانهاية. بحث عنهم، عن واحد منهم، عن أولئك الذين خرج معهم يبحثون عن المدينة الهاربة، ولكنّ واحداً منهم لم يلح على أيٍّ من الآفاق الأربعة،

وتساءل للحظة: أتراهم وجدوها، وهم يسعدون بها الآن وقد تركوه للصحراء ولأحلامه التي لا يعرف لها شكلاً؟ إنه لا يحلم إلا بالحلم، كوابيسه، أحلام ليلة، أشواقه التي تنزع ريش هناءته عنه ليست إلا توقاً، توقاً إلى شيء لا يعرفه ولا يدرك كنهه.

سئم المشي، سئم التعرق، سئم البحث عن ظل، وقال: لن أجدها، أنا أعرف أني لن أجدها، لست متطلعاً إليها بما يكفي! وتنهد وهو يجلس في حفرة في الرمل. أضاف: سأرتاح قليلاً، ثم أعود، فمالي ولأحلام الجياع والعطاش والمتوحدين. مالي ولأحلامهم الأرضية كلها.

أغمض عينيه، فرأى غيوماً وردية، وقفز الحلم الكابوس إلى واعيته. قال: لا. هذا حلم من غيوم لا يمكن أن يوجد على الأرض. هزَّ رأسه يطمئن نفسه، وأغمض عينيه، وما كاد حتى سمع حفيفها، ففتحها ثانية ورآها تقف على مقربة، تماماً كما وصفها المماليك الثلاثة، فقام يتهادى إليها قبل أن يحطَّ الليل وتهرب...

قال: صابح القوم ولا تماسيهم، والمدائن كلها حتى الآبقة والناشزة لا تهبك نفسها بالليل. دعنا نصابحها، ولكنه بغريزة لا يعرف كيف أمرته تهادى في البدء إليها، ثم غلبه التوق فخبّ، وقبل أن يحطَّ الليل كان قد عدا حتى اجتاز إطار بابها المفتوح للضائعين..........

قبل أن يفتح عينيه كان يعمل أذنيه على عادته منذ الطفولة؛ إنهم يحضرون لي الحليب بالعسل الآن... ايييع - ويصدر صوت اشمئزاز ولكنه كان يعرف أنه سيشربه ولو مكرهاً، ثم يقول وما يزال مغمض العينين: أف. البيض، كل يوم بيض. صحيح أنهم كانوا ينوِّعونه، فمرة بيض القطا، ومرة بيض الحجل، أو البط، ولكنه،

ولكنه أف. ما يزال البيض، وكان يتمتم: أريد أن يمرَّ علي يوم لا أضطر فيه إلى ابتلاع كل هذا الغذاء.. الغذاء... الغذاء... يجب أن تسمن وتكبر، يجب أن تبدو عليك نعمة ابن القلم دار... وكان يتمنى لو لم يكن مضطراً إلى أن يكون البرهان الصارخ على ثراء أبيه ونعمته بهذه السمنة المفروضة، وكان كثيراً ما يخادعهم في بيت الخلاء فيقوم بإفراغ معدته عمداً، يقيء ويقيء، ثم يخرج وهو يرمق الخدم والوصائف في انتصار سري يحتفظ به انتصاراً شخصياً له: لقد قئت كل شيء، حليبكم بالعسل، وبيضكم المخفوق نيئاً، والمقلي، والمشوي، والمسلوق. قئت أجبانكم وزيتونكم وقشدتكم، ومربيّاتكم، .... وحين يحل الظهر ويعدُّونه للغذاء، ولا يكون الجوع قد أدركه بعد، ولكنه كان يعرف أنَّ عليه أن يستجيب إلى برنامج التسمين دليلاً متحركاً حياً على نعمة القلم دار الكبير.

قبل أن يفتح عينيه ليبدأ نهاره تقلب قليلاً، فآلمه جنبه، وتذمر، ولكنه وقبل أن يمعن في تذمره تذكر الصحراء والمدينة الهاربة ودخوله إليها ليلاً وتصميمه على مصابحتها. تذكر كل شيء فوراً، ففتح عينيه، وبهدوء عرف معنى تلك الأصوات التي كان يسمعها مغمض العينين. كانوا يجلسون على رصيف قريب يسندون ظهورهم إلى أشجار التظليل وهم يقضمون لفافات هائلة من الخبز، وأحس ريقه يتجرض ومعدته تتقبض في سعادة، سعادة لم يعرفها على طعام أبداً، بريق العينين وصوت الجرش والقطع والهتك والطحن وأصوات الهمهمة والغمغمة والتأوهات، كانوا يقضمون، وأدركه إحساس جديد لم يعرفه، وتمتم: يا عظمة الله، إنه الجوع.

اتجه إليهم يريد لفافة، قضمة، لقمة تهدئ هذا الإحساس الجديد. اتجه إليهم يخشخش بالنقود في كيسه، وكان يعرف سحر

هـذه الخشخشة ولكنهم وكما في الأحلام أخذوا يبتعدون وما يزالون على جلستهم يقضمون. أمعن في الاقتراب، وأمعنوا في الاحتفاظ بالمسافة بينهم وبينه ولكنه أصرّ على الانقضاض عليهم، وبهدوء رآهم يرتفعون، كتلة واحدة يطيرون مع رصيفهم وأشجار ظلالهم ولفافاتهم الضخمة، أخذوا يطيرون. وقف تحتهم تقريباً يتأمل غير فاهم وغير مصدق، ولكنه ببساطة لاحظ أنهم صاروا غيمة لم يستطع إلا أن يتأملها في وله، ويكاد يرجوهم أن يرفعوه إليهم. فلقد أحس فجأة أن السعادة الكبرى لديه الآن هو أن يصبح غيمة، لكن الغيمة ابتعدت، وابتعدت حتى لم تعد تغطيه، فمضى، وبعد الانعطافة التالية رآهم. كانوا منبطحين فوق جدول ينهلون في استمتاع، في ابتهاج، في.. وتنهد، لقد أدرك فجأة أنّه عطشان، عطشان، عطشان حتى الجفاف، رآهم في الجدول يتقاذفون بالماء، يسكبون الدلاء على أجسادهم الظمأى، رآهم يتقلبون في سعادة، وأحسّ بجلده، حلقه، بطنه، كل شيء فيه يطلب الري. وباستمتاع عجيب أدرك أنّه الإحساس الجديد، العطش، فهرول يقذف بنفسه معهم في الجدول، ولكنه لدهشته غير الفاهمة رآهم يبتعدون، فهجم عليهم، ولكنهم ظلوا يبتعدون، الجدول والناعورة والسابحون الريّانون المستمتعون بالماء. استجمع كل قوة فيه، وقال: لن تفلتوا مني، وكانت قفزة هائلة لم يألفها فيه قبل ذاك و...انتبه فجأة إلى أنهم يعلون، فصرخ: ما الذي يحصل؟ كيف يمكن لهذا أن يتمّ، الجدول والناعورة، الصفصافة الكبيرة والسابحون السابحون يطيرون مخلفين وراءهم شارعاً مبلطاً بالحجارة السود والجفاف. رفع رأسه إليهم يرتفعون ولاحظ أنهم صاروا غيمة وردية فتأوّه في حزن.. وأنا؟ وسمنتي هذه برهان القلم دار الكبير على أنّا سلالة منعمين.

كيف. كيف أطير لألحق بهذه الغيمة، ولكنها ظلت تبتعد، وتبتعد وتبتعد، فجلس بائساً على الأرض يسند ظهره إلى عمود من حجر ينتظر. ماذا ينتظر؟ المدينة الهاربة؟ ها أنت في المدينة الضائعة، ولكنَّ كل متعة اعتدت عليها تهرب. هاهو الطعام والشراب يتحول إلى غيمة، وماذا بعد؟

ماذا بعد... أغمض عينيه و... رآها، فتتهد في سعادة أنسته كل الغيوم، وتمتم متنهداً: ما الذي جاء بك الآن، نحن ما تركنا المدينة إلا لننساك. ما الذي جاء بك...

فجأة صارت حراماً على الجميع، فلقد وصلت إلى السلطان، ولكنها في الوقت الذي صارت فيه الحرام على الجميع صارت الشهوة المنتهى، والشهوة المطلقة، والشهوة غير المدركة. كان قد رآها أكثر من مرة ولدى أكثر من صديق، وكانت تغني، وكانت جميلة. ولكن الجميلات كثيرات، وكان صوتها جميلاً، وكانت المطربات المجيدات كثيرات، و.. لكنه لم يشتهها، فقد كانت عادته أن تطارده النساء ولا يطاردهن. أن يطلبنه ولا يطلبهن. أما هذه المرأة فكان قد سمع عن الكثيرين ممن أحبطتهم، وأحرجتهم، وأنها كانت العصيَّة على الجميع. وتمتم لنفسه حين رآها تغني للسلطان: الآن فقط فهمت سبب التأبي والتعصي... كانت تسعى وراء السلطان. ولكنه همهم لنفسه ضاحكاً: أعتقد أنك أخفقت هذه المرة، فالسلطان لا يقرب إلا العذارى النضرات. ثم تساءل ضاحكاً مرتاباً في صمت: أيمكن وأنت من اخترق الصحارى مع النخاسين والتجار ومطاردي الأتن والعنزات أن تظلّي العذراء؟

كان يعرف أنَّ كبار المدينة طاردوها طويلاً، ولكنَّ واحداً من كل من يعرف لم يستطيع الادّعاء صادقاً أنّه نالها، فهل...

كانت تغني أغنية لم يسمعها من قبل، أغنية قالت للسلطان إنها المرة الأولى يسمعها بشر، كانت قصيدة عجيبة الكلمات عن شهوة ملتبسة لامرأة كانت الرجل، وصارت المرأة، وامرأة كانت المرأة وصارت الرجل، أغنية لا تعرف من يشتهي فيها من، هل أشتهي الأنا في الأنا، أم الأنا في الأنت، أم الأنت في الأنا، أم أننا جميعاً نشتهي شيئاً موجوداً في المطلق خارج الجسد الآني؟

كان اللحن غريباً لم يسمعه، ولم يسمعوه من قبل، لحناً سيقول له قطلبغا الألفي إنّه ذكره فجأة بطفولة قديمة مضت، هناك في سهوب القفقاس وعند سفوح الجبال، ذكّرته بطفولة كان يطارد فيها العجول الشاردة، ويسمع الأبواق والصفارات والأصدية تتردد في الوديان، وهمس في تأثم: الآن أحس بالفقد.

وقال له قاضي القضاة وهو يتأبط ذراعه لصلاة الجمعة: لم أنم لليلتين متتاليتين، وهذه هي المرة الأولى أفعلها. ولما سأله عن السبب حدّثه عن طفولة كان يطارد فيها الريح في جبال أطلس يهرب من دروس مشايخه ومعلميه، ويغضب الشيخ الكبير أباه، ولكن نداءات الهداهد والوراور وهمسات شقائق النعمان وقرنفل التلال كانت أبهى. قال: لست أدري كيف استيقظت تلك الأيام بهذه الأغنية العجيبة. أعوذ بالله، لوعرفت أنّ لديها كل هذا البهاء لاشتريتها بكل ماضيّ وحاضري ومستقبلي، ثم تنهّد متحرّقاً: ولكنها الآن صارت أمنا جميعاً، لقد صارت للسلطان.

في اليوم التالي زاره ايدمر السلاح دار، وحدثه عن ألم الأحلام تفيق بعد طول غياب... زاروه وحدثوه، وشكوا له أحزانهم واكتشافهم أنّهم فقدوا كل المتع بعد سماع قصيدة الحب المغنّاة العجيبة هذه. وكان يمكن للمدينة أن تجنّ لو لم يصل المماليك

الثلاثة الضائعون، ويحدثوا عن مدينة الضياع، فيحسّ الجميع بالارتياح، فها عبء الجفتائي ورسله ينزل عن ظهور العوام وها شهوة فرتنى المستحيلة تنزل عن قلوبهم...

وهزَّ رأسه يفتح عينيه: عمَّ كانوا يبحثون ولديهم كل ما يبحث العوام والهوام والدهماء عنه؟

من بعيد رأى غباراً خفيفاً، فأحدَّ النظر، وغمغم غير مصدق: ما الذي يجري؟ ما الذي يجري..؟ أهذه المدينة مدينة الضياع، أم مدينة الجنون...؟ ما الذي خرج بها من المدينة، وكيف تركب الحصان تعدو به في الشارع كفارس محترف؟ وسمع فرقعة، فابتسم: اللعينة، إنها تفرقع بالسوط. فمن علّمها هذه الحيلة وهو من قضى الشهور يتدرب عليها ولم يتقنها، فلم يستطع جعل السوط يزيد عن الحفيف أو الأزيز وقد استطاع مرة جعله يدوي، ولكن أين دويه من هذه الفرقعة المحترفة؟! كانت تعدو بحصانها، وعرف أنّه الهدف وأنّها تتجه إليه مباشرة، فما الذي تريد ولماذا تلوح بهذا السوط؟ ألعلها تريد سوطه؟ ولم يكمل جملته حتى كانت قد وصلت وقد ارتفع لسان السوط كقوس هوى عليه، فأنَّ محمر الذراع والخد. حاول التملص، ولكنها أمعنت في مطاردته، وأمعن في الهرب. أي عجيب هذا، جارية مثل فرتنى تجرؤ على سوط ومطاردة القلم دار ابن القلم دار، ياللوقاحة؟ حاول الهرب فقد كان وقع السوط موجعاً كلذعات النار، ولكنها كانت أرشق وأسرع منه. كان يحاول الهرب، ولكنَّ سمنته كانت تبطئ في حركته. حاول المراوغة والاختباء وراء عمد الأروقة، ولكنها كانت مع حصانها مخلوقاً رشيقاً واحداً يسوط، ويسوط، ويسوط. تمزقت ثيابه الحريرية، سقطت عمامته الكشميرية، ضاع نعله السندي من جلد النعام، وكانت تسوط،

وكان يروغ من سوطة ويتلقى بجسده نصف العاري أربعاً.

تجاوز الرواق، خرجا إلى الأزقة، وكان يحس كتل الشحم والدهن تتساقط عنه، كان السوط يلذع، وكانت شرائح الشحم تتساقط، كانت براهين نعمة القلم دار تختفي، ولهنيهة أحسَّ بالشماتة بالقلم دار الكبير. ها هي علائم نعمة القلم دار تختفي، وهاأنذا أتحول إلى واحد من العامة المحرومين من نعمة الرفاهية والسمنة، كان السوط يلذع، وكان يحسّ شماتة صغيرة مشوبة بالألم، شماتة. بمن؟. وجاءته الضربة لسان نار، ولمع الشرر أمام عينيه. يا لعظمة الله، إنه يشمت بالقلم دار الكبير. هاهي جارية مجلوبة من آخر الدنيا، جارية غير معروفة الأب تسوط القلم دار وتزيل النعمة عنه وتسقط الشحم عنه والدهن.

بهدوء اكتشف أنَّه كان يستمتع بالسوط. كان يهرب، وكانت تطارده، وكان الألم يذيب الشحم، وكان يستمتع، ولهنيهة تساءل: هل كان السوط ما يمتعه، أم سقوط الشحم وخيبة القلم دار الكبير؟ ولكنَّ المتعة كانت تفور وتفور، وأحس أن المتعة ستتفجر فيه، فتوقف واستدار ليئن في بهجة. ولكن ما صدمه أن فرتنى لم تكن فرتنى، ولكنه واثق تماماً أنَّ من بدأ السوط والمطاردة كان فرتنى، وهل يتوه عن فرتنى، وإذن فكيف تحولت فرتنى إلى الحلم دار.

حين نطق بكلمة الحلم دار وجد نفسه يسقط منهكاً متعباً مستسلماً، سقط لا يستطيع دفع ذبابة، ورأى الحلم دار ينزل عن حصانه ولا يملك القلم دار له دفعاً، رآه يخرج سكين السلخ الصغيرة من غمدها في حزامه. أراد الصراخ، العويل، الولولة، البكاء، الرجاء، ولكن صوته اختفى. نظر إلى السماء يريد إطلاق الدعاء

لـرب الـسماء ينقـذه مـن هـذه الـكارثـة، ولـكنـه رآهمـا، كـانـت الغيمتان تتقدمان، غيمة الآكلين الشرهين وغيمة الناهلين الريّانين، ورآهـا تـسوقهما إليـه. كانـت هـذه المـرة فرتتـي بحـصانها وسـوطها وفرقعتهـا، ولـكنهـا كانت تطير كمـا الغيمتـان، فـصرخ متوسـلاً: أنقذوني إكراماً لله، أنقذوني. لا تدعوه يسلخ جلدي الحي، إكراماً للملائكة والأنبياء.. إكراماً!...

وأحس الطعنة بكاحله، كانت قاسية حادة جارحة، فاستسلم إذ أدرك أنـه لا يملـك مقاومـة، وأنهـا النهايـة. ولـكـنَّ مـا فجعـه كـان الـدخان الأبيض المنطلق مـن كاحله، دخـان أبيض كالبخـار عـلا، وعـلا، وعـلا حتـى غطّـى غيمـة الآكلـين والنـاهلين وفرتتـي المفرقعـة بسوط لا يكل، ثم ابتعد البخـار بالغيمـة الـكبيرة الواحـدة، ابتعـد، وابتعد، وسمع الحفيف، وسمع العزيـف، وسمع الرفيـف، ورأى كـل شيء يبتعد.

أحـدّ النظـر ورأى المدينـة وغيمتهـا الـكبيرة تبتعـد، نظـر إلى كاحلـه، فـرأى جرحـاً لا ينـزف. نظـر إلى ثيابـه الممزقة وإلى شـحمه علائم نعمة القلم دار وقـد اختفـى، وأدرك أنّـه أضـاع المدينـة، أو أنّهـا أضاعته و... انحنى برأسـه، وقد عرف أنَّ كل ما عاش من أجله القلم دار قد ضاع في بكاء الحلم دار.

الآن فقط أجرؤ على التفكير. قالها يحدق في الصحراء البعيدة يتساءل: ألهذه المدينة وجود فعلاً؟ أم أنَّها حرارة شمس الصحراء ما جعلهم يرونها وهي ما كانت حجر الفلاسفة وحلم الأتقياء لعشرات القرون، تتهد: المدينة لا يجوع ساكنها ولا يظمأ قاطنها، ولا يبيت فيها محروم من دفء حبيب. ألهذه المدينة وجود فعلي؟ إنَّها الجنة. ولكن، الجنة مكانها في السماء، فهل نزلت لهؤلاء الحمقى من صغار المماليك، وتأبّت على الرحالة والفلاسفة والمفكرين والحالمين وأرقي الليل يتساءلون: أما لهذا الليل من آخر؟ أما لهذه الحروب والدماء والقتل الرخيص من نهاية....؟ أف... أعاد التنهد. كان السلطان قد منع الأخيّات بعد أيام من اعتلائه العرش. قال: إنَّها أول الشقاق والخروج على السلطان، إنها رغبة الرعاع والمتمردين في مفارقة الجماعة، فما هذه التجمعات الليلية تنتبذ قاعة، وتهيئ ضيافة، وترسل متطوعيها إلى المساجد والأسواق وأبواب المدينة تتوقع الضيوف والرحالة والمنقطعين لتقوم على خدمتهم؟ أهم يتوقعون الضيوف حقاً - تساءل في خبث - أم أنهم ينتظرون شيئاً ما؟ شخصاً ما؟ ثم صرخ فجأة: ما الذي ينتظرونه؟. المهدي؟ ولما رأى صمتهم المصدوم تابع مهدئاً نفسه: أنا أعرف أن ظاهر ما يريدون طيِّب، ولكني أعرف أيضاً أنها تضمر الرغبة في مفارقة الجماعة والبعد عن الطاعة هه... أخية للحدادين، وأخرى للنجارين، وواحدة للطحانين، بل وللنخاسين. ما الذي تريدونه حقاً؟ تمزيق الأمة وتفتيت الملة؟

تتهد برهان الدين، ورفع يده في دالّة، فقد كانت هديته الثقيلة قد وصلت بالأمس فقط إلى السلطان، وكان يشعر أنَّ له الحق في الكلام، فقد قبلت هديته والتي لم تكن حلية ولا جوهراً ولا قماشاً ولا طعاماً، بل كانت من الذهب الأحمر، وهل تردُّ لمهدي الذهب الأحمر رغبة؟

رأى نظرة الود والتفهم في وجه السلطان، ولكنَّه قبل أن يقول ما كان يزمع قوله رأى القلم دار ينحني ويهمس بشيء للسلطان، فإذا بالسلطان يتغير، وبنظرته تقسو، ورأى برهان أنَّ من الأفضل أن يعيد يده إلى غمدها، فمن الواضح أنّ الوقت ليس وقت دالّة ولا اعتراض. وكان هذا الدرس الأول لقنه القلم دار للسلطان حين اختليا. وبدون أن يحضر برهان الدين خلوة القلم دار بالسلطان، فقد عرف النصيحة وبالحرف، فقد كانت من النصائح الأولى تقدّم للسلطان: لا تسمح لأخيك، أو حتى لابنك بأن يعترض أو يعدّل على قول قلته، وإلا فسد الملك، والملك لا يعرف قرابة أو صحبة.... الملك عقيم.

عرفها وتنهد، وتمنى لو لم يرفع يده، فقد كان ثمن رفع اليد هدية أخرى لاستعادة الرضا و.. استعاد الرضا، وحين استعاده قال له السلطان وكانا على خلوة بعيداً عن الحاشية والناس: ما حكايتك يا برهان الدين؟ كيف جرؤت وأنت من أنت في حكمتك؟

وتنهد برهان الدين: ما أغلى ما يكلف رضا السلطان، ولكن لم يكن باستطاعته التخلي عن أخيته، كان قد أنفق عليها الكثير، الزاوية، القاعة الكبيرة، الفسقيات الجميلة والمجالس المفروشة بالسجاد العجمي والخراساني وحتى الصيني. كان قد حدَّث السلطان طويلاً عن حلمه بالسلام الدائم والرضا الدائم. كان ذلك قبل أن يصير السلطان السلطان، وكان السلطان يوافق على كل

آراء برهان الدين. ولم لا يوافق والطعام نفيس تطبخه أعظم طباخات السلطنة، والشراب عتيق عتّقه أكرم ديارات السلطنة، والحضور منتقون ليس فيهم من يلقي بطرفة سمعت من قبل، ولم يكن فيهم من يغني أغنية لا تطرب الحجر، وكان من مصلحته جعل السلطان القائم يسهو عنه ويطلق عيونه وراء الطامعين الآخرين ناسياً الخطر الأكبر عليه فيمن سيصبح السلطان التالي مطيعاً قانون السيه ياسه والذي عربّه العوام فجعلوه السياسة. ومستجيباً لقانون تفضل العرش يا خوند، فقد حزته بسيفك... كان يدمن زيارة برهان الدين محاطاً بالطبلخانات وحاملي الدبادب والأبواق معلناً أنّه مغرم بالجواري والسراري والغواني والمطربات حتى جعل السلطان يبوئه المنصب الأكبر في السلطنة بعد السلطان، فالرجل منغمس في الشهوات لا يطمع في ملك، ولا يتعلق بسلطنة، ولا يثير خوف أحد.

كان يسمع برهان الدين يحدثه في خلواتهما عن سبب الشقاق الأكبر في هذا العالم.... اللغة... وحين لاحظ دهشة من سيكون السلطان تابع: جهلك لغة الآخر وإحساسك أنه يقول شيئاً لا تفهمه هو الخطوة الأولى للعداوة والنفور. تصور يا سيدي أنّا أهل هذه الأرض نتكلم لغة واحدة، ونناجي معشوقاتنا بلغة واحدة، نصلي لرب هذا العالم بلغة واحدة ونتأمل... الغروب بلغة واحدة، وكان من سيصبح السلطان يصغي إلى أحلامه ويكرع من نبيذه في رضا.

قال: ما حكايتك يا برهان وكيف جرؤت وأنت من أنت في حكمتك؟

غمغم متردداً ثم قال: ولكن. ألا تذكر بعضاً من أحاديثنا هناك.... في حديقة الزنبق؟

فنظر إليه السلطان بوجه من زجاج وقال ببرود: السلطان لا

ذاكرة له! ولكنَّه حين رأى الصعقة على وجه برهان الدين والذعر الذي انتابه حين ردَّد كلام القلم دار، تابع مراضياً: وعلى أية حال، فما كنا نقوله هناك في حديقة الزنبق كان حديث سكارى، وهل يحاسب السكارى على هذرهم؟

كان قد زار بلاد الروم في واحدة من سياحاته، وما كاد ينزل عن راحلته حتى تقدَّم منه أحدهم وسأله: عرب شريف؟ فلما أجاب بالإيجاب انحنى على يده يريد تقبيلها، وبالطبع رفض برهان الدين ذلك في حدة. ولكنه ما كاد يتأبطه حتى انقض عليه آخر في ثياب مغايرة، وسأله في لهفة: ضيف شريف؟ وجرّه متأبطه مبتعداً به قبل أن يجيب. ولكنَّ آخر في ثياب مغايرة انقض عليه وكلَّمه بالعربية، ودعاه إلى أخيته، ولم يفهم برهان الدين، وكادت تحدث مشاجرة بين متأبطه وبين سائله بالعربية. وتدخل قاض كان يعبر المكان، فسمع دعوى الطرفين، وأخيراً حكم بأن صاحب الحق الوحيد في قبول ضيافة أخيَّة الخبازين أو أخيَّة السروجيين هو الضيف، ونظر إليه الرجلان في توسل، وحار برهان الدين و... أخيراً فضل أخية متكلم العربية من صانعي السروج.

وحين كان يحدث السلطان عن تجربته تلك في بلاد الروم قال: لا يمكن أن تتخيَّل مبلغ الألم والإهانة والجرح الذي أحسَّ به من تأبطني في البداية. قبل حكمي ومضى منكسراً يكاد يبكي، فقد كانت الإهانة فادحة، ولكن كيف أمضي إلى ضيافة أناس لا أعرف لغتهم ولا يعرفون لغتي... تنهد ثانية وهو يصب الخمر العتيقة لمن سيصبح السلطان، وقال: منذ ذلك اليوم أدركت أهمية أن يكون لهذا العالم لغة واحدة، فضحك من سيكون السلطان، وجرع جرعة كبيرة من طاسه وقال: ووصلت إلى حل؟

حدَّثه في مرة تالية أنَّ حتى وحوش القتل، هؤلاء المسمَّون جنوداً ومحاربين وأبطالاً... ترى لو فهموا ما تقول الأم لتحمي وليدها، هل كان سيقتلها ويقتل وليدها بنفس الحمية؟ ثم أمعن في تساؤله: أفكر أحياناً في هذه الوحوش التي تخرجها الحروب من أغمادها، وأتساءل: ترى ما الذي يشعر به الوحش المسمى بالمحارب حين يسمع امرأة يغتصبها وتقاوم، يسمعها تستنجد وتولول بأصوات لا يفهم معناها؟ هل يشعر بأن هذه الولولات غير المفهومة هي نوع من الغنج يخاطب وحشاً أولياً موجوداً في البشر، أم أنَّ اللغة غير المفهومة تجعله يحس بالانفصال والمفارقة، فينظر إلى المرأة المغتصبة على أنَّها شيء آخر، شيء يختلف عن الأم والأخت والابنة؟ ترى لو فهمها وهي تقول: اعتبرني أختك. اعتبرني أمك. أنا ابنتك المسكينة أتوسل إليك ألا تهين شرفي. لو فهم هذه الأقوال هل كان يستطيع الاستمرار في اغتصابها!!..

ضحك من سيكون السلطان، وجرع جرعة أخرى من طاسه وقال: وما الحل؟

كانت الأخيَّة التي دعي إليها برهان الدين قاعة كبيرة مبلطة بالرخام الأبيض وقد زيِّنت جدرانها بالرخام المجزع، ونشرت فيها الأرائك والطنافس وفي الوسط خوان كبير للطعام وآخر للشراب المعطر، وأنيرت الأركان بمنارات بطول الرجل تنشر مع النور رائحة الشحم المعطر، ثم تقدم واحد يحمل إبريقاً فيه ماء معطر وانحنى أمامه واضعاً ذراعه اليسرى وراء ظهره وقد تمنطق بنطاق من حرير، فغسل برهان الدين يديه، وتقدم أخ آخر يحمل منشفة تفوح منها رائحة النظافة والمسك، فتنشف برهان الدين، ثم قدم الطعام، فأكل طعاماً لم يذق مثله منذ فارق منزل أمه، ثم ختموا الجلسة بشرب الشراب الحلال.

أخيراً تقدَّم فتى أمرد، فغنَّاهم، وأسعدهم، وكان برهان الدين يستعد لدفع الكثير مقابل هذه البهجة التي قدموها له، ولكن المفاجأة كانت أنَّ الأخ الذي دعاه وكلمه بالعربية أحس بما كان برهان الدين سيفعل، فأخذه جانباً وعاتبه عتاباً أشبه بالتأنيب. حدثه عن سعادتهم بوصوله إليهم وحديثه إليهم عن الشام شريف، وعن بيت المقدس وعن بلاد الإسلام. ثم سأله في دهشة: وليس لديكم أخيَّات في بلادكم؟

عند هذا السؤال عاهد برهان الدين نفسه كما سيحدث من سيصبح السلطان أنه سينقل الأخيات إلى مدينته. ولكن ما لم يحدِّث به السلطان وإن عرفه السلطان وعاتبه عليه فيما بعد هو أن هذه الأخيَّات لم تكن لاستضافة الغرباء فقط، بل كانت مكان تجمع أبناء الطائفة المهنية الواحدة بها يقفون في وجه السلطان والأجناد، وبها يحلُّون مشاكلهم المهنية بين أبناء المهنة الواحدة، وبينهم وبين الآخرين، و... بها يضعون نظام وطريقة قبول الأعضاء الجدد من المتدربين في الطائفة المهنية، لذلك كان أول ما فعل السلطان بعد أن قال له كبير المماليك العجوز: تفضل يا خوند، فهذا العرش ينتظرك، أن تلفَّت من حوله إلى هذه الأخيات، وقرّر التخلص منها. ولكن توقفهم عن العمل واعتصامهم بالجوامع وتوقف المصالح جعل السلطان يقبل باستمرارهم على ألا يزيدوا في اجتماعهم على استضافة الغرباء، وسماع الغناء و... الدعاء للسلطان... وقبلوا.

الآن فقط أجرؤ على التفكير. قالها هذه المرة بصوت عال. فلم يعد يخاف عسكر السلطان، ولا شرطة السلطان، ولا عسس السلطان، ولا باذلي دمهم في سبيل نعل السلطان. تنهد في حسرة: لو أنها موجودة حقاً، لو أني أصل إليها وأعيش يومين أخيرين فيها.

كان لا يستطيع أن يسارَّ أحداً بما في صدره فقد كان دون ذلك هدر الدم والفضيحة والتجريس والاتهام بالدين وخيانة الملة. كان يعرف كل هذا، وكان يستغفر ربه كثيراً يرجوه الغفران عما زلّت إليه النفس على غير رغبة منها، ثم يعيد التنهد ويسأل: الحلم حرام؟ الحلم إن لم يخرج عن اللسان والذهن، أهو حرام؟ وكان يعلن نفسه يحذرها مخافة أن تتجرأ وتبوح بأنَّ الحلم إن قارب هذا فهو حرام.

كان قد رأى في سياحاته الديارات والرهبان، وكان قد سمع عن البراهمة في معابدهم، ورأى عباداتهم. كان قد استقبل في أخيِّته الكثيرين وعاشر الكثيرين، وقرأ عن الكثيرين، وكان سؤال خبيث يلح عليه كوسوسة الشيطان: أليس كلٌّ من رأى وعاشر من الناس يعبد إلهاً واحداً؟ ربما يختلفون في صفاته التي يسقطونها عليه من أنفسهم؟ ولكن حين تتبع الجوهر تجدهم جميعاً يعبدون إلهاً واحداً، وبينما كان مستغرقاً في وساوسه هذه قفز مرعوباً، فقد رأى أباه فجأة يقفز ملوحاً بسبابته وتجعيدات وجهه وغضبه بلا حدود.

حاول التهرب منه، ولكنه كان يحاصره، فحيثما التفت في تلك الصحراء العريضة رآه يلوح بسبابته، لم يكن يلوِّح معاتباً فقط، بل كان يذكِّر... وتلفّت برهان من حوله مرعوباً يرفض أن يتذكر. ولكن الإصبع الملوحة ألحت في ارتعاشها، فأغمض عينيه لا يريد رؤيتها، وأمعن يخبط في الرمل ورآها أمامه كانت تقول: في قفص تطير، وفي أرض البياض تطير، وكاد الهلع يقعده، فلماذا ذكرها الآن. لماذا؟ ما الذي جعل بلابل تخرج الآن من سجن الذاكرة. فتح عينيه، ورأى البياض الكبير، السفوح العريضة البيضاء الممتدة بلا نهاية، وتساءل: أتراها كانت تعني هذا البياض؟ ولكني لا أطير...

ثم تمتم: ألعلهما يطيران؟ في قفص يطيران؟ ألعلها النبوءة رفضها وتصدق.

توقف قليلاً يظلّل عينيه، ويمسح الصحراء الكبيرة وتساءل كلمحة: عمَّ يبحث؟ ثم تهانف ساخراً: عن القفص يطير؟

ومن البعيد رآه، ... رآه... كان رجل الحلم لقيه في الجامع، وكان رجل التقى والصلاة لا تتوقف بين الصلاتين، وكان رجل التقى والصوم لا يفطر بين اليومين، وكان رجل التقى لا تنشف دمعته بين الضوءين يتهجد، ويناجي، وتتهمل الدموع حتى فتنهم، فتن برهان الدين، وفتن الأصدقاء حتى تركوا كلَّ عمل، وانهمكوا في مراقبة وانتظار أن يشفق عليهم، ويقبل بضيافتهم.

وأخيراً قبل الضيافة وأكل التمرتين، وشرب كأس اللبن، ولم يرمق ما كان على المائدة من أطايب. لم يعرض عليهم الهجرة في اليوم الأول، ولا في اليوم الثاني، أما في اليوم الثالث وبعد صلاة العشاء فقد تحدث إليهم بعد إلحاحهم الطويل عن مدينة الجهاد، المدينة التي يكرس لها شباب الأمة بضع شهور، أو بضع سنين من عمرهم يجاهدون النفس ويجاهدون العدو. حدثهم عن الجنَّة تحت ظلال السيوف، وحدَّثهم عن الجنة وراء منعطف الشهادة، .... و......افتتنوا الفتنة الكبرى، تلك الفتنة التي سيذكّره بها من سيكون السلطان حين يصير السلطان، ويحلُّ الأخيات إلا ما جعل هدفه الغناء والدعاء للسلطان.

أعجب برهان الدين حتى الذهول بأخيَّات الروم. وقد حرص على أن يتنقل بينها متفحصاً متسائلاً متعلماً، فزار أخية الخرَّازين وأخية النحَّاسين، وأخية السيوفيين، والغريب أنه اكتشف كما سيحدث في حديقة الزنبق من سيصبح السلطان أنَّهم جميعاً كانوا على

الدرجة نفسها من الإخلاص والنظافة والتكريس وحب الغريب وخصوصاً الحجاج، أو من في طريقهم إلى الحج. ولكن ما لم يحدث به من سيصبح السلطان هو ما حدّثه به شيخ أخية السيوفيين من سعادتهم بسلطانهم. قال: السلطان في بلادنا لا يتزوج إلا من جارية مقطوعة الأصل مجهولة النسب. ولما سأله برهان الدين في دهشة لكن. لماذا؟ قال: حتى لا يقع ويوقع البلاد والعباد في المأزق الذي أوقعكم به الأمويون والعباسيون. يرث الحاكم الشاب الحكم فإذا بأخواله وأبناء أخواله، وأزواج خالاته، وأبناء خالاته يتصدّرون الأسواق والوزارات وينازعون الناس معايشهم فهم أهل السلطان. أما ها هنا، فليس للسلطان من نسب إلا من يقربه السلطان لكفاءته وخبرته. وردّ برهان الدين: ولكنّك تحدثت عن الأخوال والخالات وأقرباء الأم، فماذا عن الإخوة والأعمام وأبنائهما. فنظر إليه شيخ أخيّة السيوفيين في دهشة صارخة: ماذا. ولسلطانكم إخوة أو أعمام؟ فلّما أجاب برهان بهز الرأس إيجاباً أخذ شيخ السيوفيين يضرب على يديه في أسف: ولهذا لا يطول لديكم ملك!. ولمّا استمر برهان الدين يحدّق مستفهماً في دهشة تابع شيخ الأخيّة: ألا يعرف سلطانكم القانون الأول في السيه ياسه؟. ولما استمرّ برهان الدين في ارتباكه المندهش. تابع شيخ الأخية: القانون الأول يتبعه سلاطيننا منذ قدموا من بلاد الغز هو ألا إخوة للسلطان، فالإخوة يسببون انشقاقاً في المملكة. وما إن يصل السلطان لدينا إلى العرش حتى يجمع إخوته، ويأمر بخنقهم جميعاً بخيط من شعر ذيول الخيل، وبهذا لا ينزف دمهم ولا تغضب الأرض لانسكاب الدم السلطاني عليها، ولا ينافسونه أو يساعدون أعداءه عليه في قابل الأيام.

هزّ برهان الدين رأسه في أسف ساخر وأخذ يضرب بقدمه

الرمال: المدينة الهاربة! المدينة لا جوع ولا ظمأ ولا حسٌ بالفقد فيها.

تأمَّل الرمال، الرمال، الرمال، ولكن أين تلك المدينة اللعينة التي انتظرها السنين والتي من أجلها أراد أن يفارق الأب والأهل والمدينة والسلطان، ويلحق بشيخ التقى الذي قال: مدينة الثغور بها تجاهد النفس، وبها تجاهد الكفار. ولم ينسَ شيخ التقى أن يلمح إلى مدينة العدل يقيمونها بأيديهم بعيداً عن السلطان والشرطة والعسس، ومضى ومعه ثلاثة من أهل المدينة، كانوا ممن أرقهم الشوق إلى مدينة لا يجوع ولا يظمأ ساكنها. والغريب أنه اكتشف فيما كان يحدِّث من سيصبح السلطان عن تلك الرحلة العجيبة إلى مدينة الهجرة والعدل أن كلٌ من مضى إلى مدينة العدل لم يكن فيهم من جاع يوماً أو عطش، أو أضنته الوحدة، وحين كان يراجع تلك المرحلة كان يسأل نفسه: فعمَّ كانوا يبحثون إذن، وجميعهم من أبناء المنعمين؟ ما الذي كان يشدهم إلى مدينة العدل، وهم ممن لم يعرف الظلم. وفي لقاء ثان سيسأل شيخ التقى هذا السؤال، وسيجيبه، وسيذكر السؤال والجواب لسنين وسنين: الجوع والظمأ ليسا ما يحسه البطن واللسان. الجوع والظمأ سؤال، سؤال سأله بنو الإنسان منذ بدء الخلق، وسيظلون يسألونه حتى يستطيع واحد أن يحققه لبني الأرض.

وصل إلى ذروة رملية وقف عليها واستكشف الآفاق الأربعة ولكنَّ شبحاً لمدينة لم ير، وظلاً لواحد ممن خرجوا معه من المدينة يبحثون عن المدينة الهاربة لم يلحظ، وعاوده السؤال: فعمَّ يبحثون، وهم من أداروا ظهورهم لمدينة الحلم حين قامت، وتركوا الجفتائي الأول يأكلها، وأصغوا الى السلطان يعلن أنَّها كانت وكراً للملاحدة والمنشقين، وما عرف أنَّه وأنَّهم حين تخلوا عنها للجفتائي

الأول فقد فتحوا أمامه طريق مدائن الإسلام كلها.

تنهد ثانية وهو يتذكر في مرارة كيف تخلى عن رجل التقى وتركه يمضي بأصدقائه إلى مدينة العدل، وقال لأبيه: أحس بالخمول يأكلني. فنصحه بالسياحة مع واحدة من قوافله. فمضى وأبعد حتى وصل إلى بلاد الروم، وعرف الأخيَّات وأحسَّ بالغيرة، فقال: سأحمل الأخيات إلى مدينتي. وحقق وعده حين أقام أول أخية في حديقة الزنبق. وحتى يزيل الخوف من قلوب الناس جعل أوائل ضيوفها من رجال السلطان. وحين رأى الناس رجال السلطان يزورون برهان في أخيته اطمأنوا، وأنشأوا الأخيَّات.

كان الليل يقترب والرمل الأحمر يحاصر الآفاق. قال: نفد الماء والخبز، وإن لم أجد المدينة فليس أمامي إلا العودة مهزوماً إلى مدينة السلطان، قال: تشجع يا برهان، واعبر هذا المضيق، فلعل وراءه طريقاً يقود إلى مدينة، أي مدينة، فالعودة ذل.... استجمع ما بقي لديه من همة، ومضى يهاجم الحمرة تغطي الرمل الأبيض، ويمضي، والحمرة تقتم، والسواد يلح، وما إن عبر المضيق حتى رآها، ... لا.... لم تكن مدينة، فليس من سور ولا شجر ولا طرقات، بل جبل يعلوه بيوت صغيرة وسور من نور حاجز. قال: إنها المدينة ولابد أن ألجها الليلة إن أردت الا أكون الضائع الأبدي.

قوة جديدة انتابته، فالمدينة على مرمى بصر، والنور يجذب سيد الفراش و...اندفع. وعند السور من النور رآه. كان رجل التقى الذي لم يصحبه منذ سنوات سعياً وراء مدينة العدل. لم يعانقه، لم يقبّله، بل لم يصافحه، بل أخذ بيده ببساطة وعبر به سور النور، وهو... برهان يعتقد أنه سمعه يقول: تأخرت! وهو برهان يعرف أنه قد قال: ولكني وصلت! بعد سور النور الحاجز رآهم، صفوفاً طويلة، صفوفاً بلا نهاية

بدأت الركوع، فركع رجل التقى، ووجد برهان نفسه يركع. تلا كل ما يعرف من أدعية وصلوات إبراهيمية وتحميدات وتسميعات، ولكن الركوع طال ولم يجرؤ على الانتصاب، فقد كانت كل الصفوف راكعة، وحين أسدلت العتمة كامل سلطانها على المدينة سمع النداء البعيد يعلن: سمع الله لمن حمده، فنصب ظهره، وسمع تأوهات عظامه تتمدد، ولكنه ما كاد يعلن الشكر لرب السماء والأرض حتى رآهم يهبطون للسجود، فسجد، وتلا كلّ ما يعرف ويذكر ويحفظ من أدعية وتلاوات، ثم انحاز إلى قصار السور. ولكن السجود طال حتى عرف أنّ الليل انقضى، وفجأة أشرق كنور ما كان قد سمعه عن مدينة الصلاة جابرصا، تلك المدينة القائمة عند لقاء الأفق، المدينة خالصة الصفاء والنقاء، لا يسكنها إلا القانتون العابدون ركعاتهم أيام وسجداتهم ليال، وتنفسهم دعاء وطلب الغفران. وبدهشة مرتبكة تساءل: أتراه وصل إليها أخيراً، المدينة التي قصدها التقاة والعَبَدَة وطالبوا الغفران، فقضوا العمر يبحثون عنها ولا يجدونها؟ أتراه السعيد المحظوظ الوحيد يصل إليها؟ وكماء المغطس الفاتر الذي اعتاد التسلل إليه في حمام الحارة صبياً، يتسلل إلى المغطس فيتسلل الماء الفاتر إليه يلفه، ويغمره، ويتسرب إلى خفاياه وزواياه وأركانه. وكان في طفولته يتساءل مغمض العينين والماء الفاتر يغمره: هل أستطيع التمييز بين الجسد وبين الماء، هل أستطيع وأنا أحرك إصبع قدمي في الماء الفاتر أن أعرف أين ينتهي إصبعي وأين يبدأ الماء؟ كان يتساءل: أأنا أنا، أم أنا الماء؟ وحين غمر النور صفوف الساجدين، ورفع رأسه قليلاً ليرى صفوفاً وصفوفاً بلا نهاية من ساجدين يعلنون الولاء والتسليم والاستسلام الكامل لفاطر الأرض والسماء. حين رأى النور

والأجساد العائمة فيه تذكّر المغطس والجسد الصغير، والماء، وضياع الحدود بين الجسد وبين الماء، فتساءل وهو يعود إلى السجود: أين تنتهي هذه الأجساد، وأين يبدأ النور الغامر؟

كانت تجربة ضاعت فيها حدود برهان الدين، فأصبح ذرة من هيولى لا نهائية تسبح بالنور، وحين سيذكر تجربته السجودية تلك سيتساءل مندهشاً: أين راح الجوع واختفى الظمأ وماتت الأحلام جميعاً في ذلك السجود الطويل؟

وحين يعود إلى أخيته المهجورة بعد رحلة السجن الطويلة، وقبل أن يصل الجفتائي الذي كان ينتظر هذا اليوم سيحدث الشيخ أحمد ولطفو وأبو القاسم عن هذه المدينة الغامرة المغمورة بالنور التي كان يمكن لها أن تبتلع برهان الدين إلى الأبد، ولكن السؤال صدمه فجأة فجعله يتوقف عن التلاوة والتعبد والتهجد والصلوات الإبراهيمية والأدعية طالبة الغفران للوالدين اللذين ربيانا صغاراً، وعن شكر الله وحمده وطلب الغفران منه، كان يمكن لمدينة الصلاة هذه أن تكون مدينة النهاية لو لم يهبّ السؤال جارحاً كخنجر. أهي مدينة حقيقية، أم أنها مدينة لأشباح وأحلام وظلال؟

رمى بالسؤال بعيداً يستذكر وقاحته وأرضيته ودونيته فقد كانت الهمهمات والتمتمات والأدعية والتسميعات والتحميدات تصل إليه. صحيح أنها تصل مختلطة مشتبكة مرتبكة حتى ليصعب التمييز بينها، ولكنها كانت تصل، وكان السؤال يلح: أهؤلاء الناس بشر حقاً؟ فإن كانوا بشراً، فأين يأكلون، وأين يشربون، ومتى؟ وما كاد السؤال يتجسد في ذهنه مانعاً له من الدعاء والرجاء والتمني، ما كاد يرفع رأسه يريد التوثق بلمس واحد منهم يعيد إليه الحسّ بماديته، حتى وجد الظلمة تنطبق وسور النور يطرد، وهو

يتزحلق أسفل التل، وصراخ شيخ التقى يلاحقه: لا تستحق! فيهتف وهو يعرف أنَّ صوته لا يسمع: أأنا من لا يستحق، أم أنَّه الإنسان الذي لم يصل إلى الاستحقاق بعد؟

حين سفعه نور الصباح وجد الرمل الأبيض يحيط به والخيالات تتناوشه، أكان في مدينة الصلاة فعلاً، أم أنها أضغاث الأحلام! وقال وهو ينظر إلى الآفاق الأربعة من حوله: سأبحث ثانية، فإن كانت قد وجدت بالفعل، فسأجدها وأعرف - ثم تابع حائراً - إن كنت قد وجدت فيها أصلاً - ثم تنهد - أعتقد أنها لم تبتعد.

خبَّ في الرمل في عناد: لن أرجع إلى مدينة السلطان خاوي اليدين، يجب أن أتوثق منها، أو من ضغث حلمها. وأخذ الرمل ينعم ويحيط بالقدمين المتعثرتين، ولكنه تابع السير والبحث والعيون تضيق والنظر يحدُّ ولا مدينة في الأفق.

مع اقتراب المساء وترمد السماء اصطدمت قدمه بالصلابة، فنظر إلى الأرض ليكتشف في دهشة أن الرمال اختفت، والأرض تتحول إلى صخر، فتساءل: ما معنى اختفاء الصحراء؟ ما معنى ضياع البياض وهجوم سواد الصخر؟ سمع همهمة ونداءات بعيدة، فنظر إلى أعلى الجبل ورآهم يطلُّون عليه من شرفات الأسوار. كانوا بعيدين كنمال ولحوحين كنمال، ويلوِّحون بأياد صغيرة كنمال.

أشرق القلب: لقد عثرت عليها. إنها البشرى، فمدينة الصلاة لا يمكن أن تعثر عليها مرتين، فإذا عثرت عليها مرتين، فهي إشارة الرضا والقبول. وبهمة جديدة اندفع يقفز فوق الصخر كجدي. كانت همته أفتى من عمره، ورغبته أكبر من ضعفه. كانت تقترب والأسوار تتجلى والوجوه والأكف الملوِّحة تتبدى. وفجأة تذكر: المدينة الأولى كان سورها من نور، وهذه المدينة سورها من حجر.

فما معنى هذا؟ إنها ليست المدينة نفسها، ولكنهم كانوا يلوّحون، وكان يندفع فوق الصخور كجدي. لم يكن باستطاعته التوقف فقد تعلقت رؤاه وأحلامه وأمانيه كلها بهذا السور من حجر يلوح وينادي. قال: يجب أن أصل قبل الليل، فالليل مخيف و..... اندفع ثانية، وفجأة تجمد مرعوباً، فلقد أحسَّ بذراع تتأبطه في رقة، فالتفت لا يعرف ما لفته، أهو الرعب، أم المفاجأة، أم الدهشة، ولكنه التفت ليجد رجل التقى يبتسم في رقة، فهتف كيتيم وجد أباه بعد ضياع: أنت؟

قال: عرفوا فضلك، فرأوا إعطاءك فرصة ثانية.

غمرته السعادة كنور الشمس، غمرت كل جزء فيه، فالتفت يريد عناقه. وكانت السعادة أكبر من ضبط النفس، ولكنه رأى التفهم والحنان في وجهه فخجل. قال: وأنا ما كنت أشتهي إلا الفرصة الثانية.

وبحياد قال رجل التقى: ليتك انتظرت قليلاً

قال: ولم؟

قال في أسف كبير: كان ميعاد طعامهم قد آن، ولو أنك أكلت طعامهم لبقيت معهم إلى الأبد.

قال جملته الأخيرة في حسرة، وفكّر برهان، فالحسرة لم تكن على برهان بل كانت على النفس. وتساءل وإن لم يصرِّح: أتراه تعجل أيضاً، فلم يأكل طعامهم؟ وقبل أن يسأل ويجيب، أو يتحسر كان قد وصل معه إلى القلعة، وقبل أن يصافح أحداً من الملوّحين كان قد صار في غرفة من الحجر ليس فيها إلا فراش وقنديل وكأس حليب وخمس تمرات. فقال: الحمد لله، وتعشاها واستند إلى الجدار الصخري، وقبل أن يراجع ما فعل في يومه كان قد نام.

مع صياح ديك بدا غريباً يصدي ولا تعرف مصدره قام... قال يجب أن ألحق بالراكعين، فالفرصة الثانية هي الأخيرة، وها أنذا قد أكلت من طعامهم. واندفع إلى الباحة فاغتسل وتوضأ، وتنصَّت يستمع ويتساءل: أين يركعون وينتظرون؟ ولكنه لم يسمع صوت الصلوات، ولا صوت التأوهات، ولا صوت التبريكات، بل كان كل ما يسمع صوت الديك البعيد. لا... لم يكن في المدينة. قال: الديكة تحت في السهوب والوديان. لا، ليست في المدينة. واندفع يفتش في خجل وارتباك: يجب أن أجدهم. ثم تمتم في ضعف: يجب أن أجدهم. كان يصطدم بالجدران وتصدُّه الجدران. يجب أن أجدهم.

وفجأة كانت الباحة، وكان النور الوردي المائع لما قبل الغروب، ولكنهم لم يكونوا هناك. تردد لهنيهة: ما الذي يجري؟ أهي مدينة أخرى. ليس النور السور، وليس من صفوف لساجدين، فأيُّ المدن هذه، وما الذي عناه رجل التقى حين قال إنهم أعطوك الفرصة الثانية؟ سمع حمحمة قريبة، فالتفت ليراه عند الباب تماماً، مسرجاً، ملجماً، مزيناً، وعلى ظهره عباءة وعمامة وإلى جانبه رمح مشكوك بالأرض وعلى يمين السرج سيف في غمده، فتساءل: ولكن. ما معنى هذا، ولمن هذا الحصان الأخضر المسرج الملَّجم المزين؟

اقترب منه فحمحم، وضع كفه على كفله فطأطأ، ولهنيهة راودته الفكرة. الحصان مهيأ في انتظارك، فاركب. وتساءل: ولكن لماذا أركب، الأعود إلى مدينة السلطان التي فارقت؟ هزَّ الحصان برأسه الشامخ متحبباً، وأحسَّ أنه يدعوه إلى ركوبه، ولكنَّه أدار ظهره له في تعفف، ومضى يبحث عن صفوف الراكعين، وما كاد يصل إلى إطار الباحة حتى وجده.

كان رجل التقى الذي رأى حيرته، فقال: وهاهي فرصتك الثانية

تضيع، وحين تساءل برهان عما عنى بفرصته الثانية تضيع لم يجب، واكتفى بتأبطه إلى البرج، وهناك رآهم. لا ، لم يكونوا راكعين، ولم يكونوا ساجدين، ولم يكونوا يتضرعون، بل كانوا يتأملون النجوم ويتهامسون، وسمع شيخاً منهم يقول: دخل المريخ في الأسد، وكوارث كبرى على الطريق.

وقال آخر: انظر إلى الجوزاء. هناك كبير سيموت.

وسمع ثالثاً يملي على تلميذه: واأسفاه. لم يكن المحظوظ، فلقد لمس مركب الوعد ثم صدّه الضعف والعجز، فأضاع فرصة العمر.

أحسَّ أنهم يعنونه، ولكن، كيف عنوه، ولماذا؟ لم يلتفتوا إليه، ولم يروه. أمعن في الاقتراب يريد الحديث، ولكنهم كانوا منشغلين بالسماء يقرأون نجومها ، ويتابعون. وقال شيخ منهم: السماء مرآة الأرض.

وقال آخر: كما البرق مرآة الرعد.

وقال ثالث: محظوظ من عرف المخبّأ له قبل وقوعه

وقال رابع: بائسون نحن من انتظر الفرج على يد أفاق.

وقال خامس: جهّزنا الفرس، وجهّزنا السرج واللجام، وجهزنا الرمح والراية

وقال سادس: وكنا كل صباح نصلي ونهتف: آن أوانك يا منصور، فاركب.

فتنهد سابع: ولكنَّ الضعف والعجز.

وقال ثامن: وقلة السعد.

وقال تاسع: حرمه وحرمنا من الفرج.

وفجأة هتف الجميع: اللهم عجّل فرجك.

صمتوا ، وما كادوا حتى سمع دويّ السنابك، فالتفتوا والتفت

وراه. كان الحصان المسرج الملجم، المحمل بالعباءة والعمامة والسيف يعدو وحيداً ينزل عن الجبل دون أسف. التفت على صوت تأوهاتهم، فرآهم يركعون باكين يتمتمون: لن نعيش الفرج، فلقد هجرنا مركب الفرج، لن نعيش الفرج.

و.... رآها تتسحب بشرفاتها، وطلاقّاتها، بميازيب رصاصها المذاب، بغلايّاتها تقذف بالماء الغالي على محاصريها، بمجانيقها، بجرخييها ذوي الأقواس الرشاشة تقذف السهام الكثيرة على محاصريها. رآها تتسحب بمآذنها النحيلة، وأبراج مراقبتها. رآها تتسحب بطياراتها وحمائمها المدربة جيداً. رآها تتسحب بصرخات محاربيها: اللهم عجِّل فرجه. رآها تتسحب، وتأوهاتها تعلو: لن نعيش الفرج. هجرنا مركب الفرج لن نعيش الفرج.

غابت وراء منحنى الجبل الثاني، ولم يبق منها إلا بعض أثافي وحجارة هشمتها عوادي الأيام والليالي.

من مرقبه البعيد الوحيد على قمة الجبل رأى نيرانهم على رؤوس الجبال توري وتخفت. تتقطع وتتوصل، وتساءل: فماذا تعلن رسالة النيران هذه؟ ماذا تقول هذه الرسائل لأولئك الناس المنقطعين في الجبال والقلاع يعتقدون أنهم ينتظرون الفرج، ويصنعون الفرج، ويهيئون مركب الفرج؟

وقال له رجل التقى وهما يهبطان إلى السهل البعيد أسفل الجبل: عقود وعقود، وربما القرون، ونحن نهيئ هذا الحصان، نجهزه بالعدة والسلاح ننتظر عودته، فما عودته إلا الفرج، ولكن.....

اشتمَّ الحسرة في كلامه، وعرف أنه يتحسر على عجزه عن ركوب حصان الفرج، فادَّعى التغابي، وقال: وهل يعيش الحصان كل هذا العمر؟

أمسكه رجل التقى بذراع قوية، وأداره يواجهه، قال: وهل تظن أنّا استقبلناك عبثاً. هل تظن أنّا نجعل العامة والهوام يقربون من حصان الفرج؟

أصرَّ برهان على التغابي كان مشحوناً بالأسئلة وكان يعرف في جزء منه أنه لن يحصل على الإجابات الكاملة إلا لو قدم الأسئلة الكاملة، الأسئلة البيضاء، الأسئلة لا تعرف لها جواباً قبل هذا السؤال، فقال رجل التقى: نحن نرصدك، نراقبك منذ مضيت إلى مدينة الأخيّات، نحن نراقبك منذ حملت إلى مدينتك الأخيات، نحن عيننا عليك منذ خادعت السلطان، فجعلته يقبل بالأخيات وهو من يخاف اجتماع ثلاثة رجال في صلاة في زاوية لا عاسَّ فيها.

أحس برهان بالفخر، فها هو يرى من يهتم بما فعل، ولكن رجل التقى تابع: ولكن، واأسفاه. أعجبتك الطريق، فنسيت الغاية!

كان برهان لا يتغابى، فهو لم يفهم فعلاً، أدار إليه وجه طفل، فتابع رجل التقى: خادعت السلطان، فخدعك، ورضيت بالأخيّات مكاناً للطعام والرقص حتى صدق فيكم شيخنا القائل:

أرى جيل الأخيَّة شر جيل فقل لهم وأهونْ بالحلول

أقال الله حين دعوتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

حوَّلتم العبادة إلى رقص، وحوَّلتم الأخيات إلى مطاعم ومغان وملاه، ونسيتم الهدف الأول، الهدف الحقيقي والأكبر من الأخيات.

وقال برهان في ضعف: وما كان هذا الهدف؟

نظر إليه رجل التقى في قسوة، وقال: كنت أظنُّك تتغابى- وصمت يكره نفسه على ألا يمعن- قال: قرَّبناك من مدينة الصلاة فعجزت، وقرَّبناك من مدينة الفرج فجبنت. امضِ فلم يبق لك إلا مدينة الأمل! امض! ودفعه، فاندفع، وحين تماسك قبل الوقوع التفت

يريد استكمال الحوار، ولكنه كان قد مضى، كسراب، كشعاع مضى. فقهره الحزن، وتابع التعثر بين الرمال والصخور و.... عند المنحنى الأخير في الوادي... رآها... أشجاراً خضراً عالية، أشجاراً سامقة يستر ثغراتها الكرمة واللبلاب، فحوَّلت الأشجار إلى سور يمسك حتى النور، ووجد نفسه ينجذب إليها، فمشى. قال: أرتاح في الظل، وأصيب جرعة ماء فلا يعقل أن تكون غيضة ولا جدول.

اقترب من الشجر السياج، ولكنه كان الكثيف بحيث لم يجد معبراً منه. تقدم إلى الأمام، إلى الخلف، ولكنَّ السياج كان خضرة صمَّاء، وكاد ييأس لو لا أنَّ الجوع والظمأ والتعب ماسكه، فتقدم، وفاجأه صوت غناء جميل جميل حتى الفتنة يعبر الشجر السياج، غناء يحمل كل نداوة وطلاوة العيش الهنيء، فتشجع. قال: لن أعود إلى الصحراء وكرَّر: لن أعود إلى مدينة السلطان - وتابع - قال لي الشيخ مدينة الأمل، ولا مدينة في الآفاق فلأرتح في ظل هذه الغابة.

اتكأ على شجرة واسترخى، ولكنَّ الجوع والظمأ الطويلين والغناء الطلي، غناء لنساء نديات عذبات، بلغات غير مفهومة منعته من النوم. كان الصوت الأول في غنائهن جلياً، كان نداء الدعوة والرغبة والتأميل. أصغى، فسمع صوتاً يشبه صوت العندليب، أصغى، فسمع صوتاً يقرب من الشحرور، فتساءل: وهل يحتاج المرء إلى ترجمان ليسعده صوت الشحرور؟ أصغى فسمع غناء. كان العندليب، وكان الشحرور، وكان الحسون، وكان حتى صياح الديك، فتساءل: هل الغناء إذن هو الصوت الأول، اللغة الأولى، اللغة التي يسمعها الجميع ويفهمها الجميع...؟ ثم أمعن في التساؤل، فقال: ترى، أللانسان الحق في أن يأمل في لغة توحد العالم، لغة تشبه الغناء حين يخاطب أجمل ما في المرء، المرح والفرح والطرب؟علا الغناء، وعلا

حتى ظنه يخترق الشجر السياج إليه، فامتلأ... همة وقال: يجب أن ألج.

مدَّ ذراعاً نشيطة يخترق سياج اللبلاب، ولدهشته اكتشف أن الشجر السياج لم يكن إلا غشاء ما عليك لتخترقه إلا أن تمد يدك، وتساءل لهنيهة ألا بدَّ إذن من مدَّ اليد.... واكتشف بهدوء أنّه حين عجزت العيون عن الاختراق كان لابدَّ للجسد من الإقدام... تقدم مخترقاً الشجر السياج ليجدها... كانت المدينة... المدينة التي حدَّثه عنها الصديق الشيخ وكانت متنكرة في زي غابة، مدَّ قدمه، واخترق الشجر السياج... وشهق.

من بعيد، ومن مرقبه مستنداً إلى شجرة جوز عملاقة رآهن حيث الجدول الرقراق، رآهن وكنَّ في نداوة الصبح يسبحن، ويتراشقن بالماء... نظر إلى جسده، فرآه رغم الوعثاء والغبار والعرق... جميلاً، قال: ألي حظ مع هذه الغانيات؟... وفجأة تراجع: وأنت تسعى وراء الغانيات؟ أنت من ترك مدينة السلطان، ترك الجواري والغلمان والجنان، أنت تسعى وراء الغانيات؟ ولكن... فكّر ثانية - غابة وأشجار مثمرة وبلابل وشحارير وجداول تسبح فيها الغواني... و... بعد هذه الصحراء القاسية... حسم تردده، ورمى بنفسه في الجدول يقود إلى البركة حيث يعمن في استرخاء ونعيم.

ساقه الجدول المتهادي إليهن. رأى الرمان يعوم ساقطاً عن الشجر، فأبعده بكفه والجدول يسوقه إليهن. رأى التفاح، ورأى الكمثرى، ورأى السفرجل والأترج. كان جدولاً من بهاء.

توقف به الجدول قليلاً، وأحسَّ بجسده الذي امتص الماء وتبلل، أحسَّ بالجسد الغافي الذي طالت تغفيته يتحرك، لم يكن برهان من يتحرك، بل كانت الخلايا المتعطشة للماء والرمان والتفاح والسفرجل، لم يكن هو من يريد القفز فوق مسافات الجدول، بل

كانت الخلايا الظمأى أحرقتها شمس الصحراء الطويلة.

التفَّ الجدول في منحنى تحجزه صفصفافة عملاقة، فتنهد، حاول أن يمسك برمانة فانزلقت، بتفاحة فغطست، وضحك، قال: الجائزة الكبرى وراء حاجز الصفصاف، وتشغلك تفاحة وسفرجلة. واندفع يضرب الماء بذراعين شابتين متجاوزاً حاجز الصفصاف. ورآهن، كن يعمن، يتراشقن بالماء، وبالرمان وبالسفرجل، وكانت أخريات تغنين على أرجوحة، وثلاث يضربن على العود، وينفخن في الناي والسرناي... كنّ كما الأحلام تماماً، وهل حلم الإنسان منذ قذف بآدم بأكثر من هذا؟ جدول رائق كعين الديك، وثمار بنضارة طفل في الخامسة، وحوريات يغنين متبذلات الثياب، وحوريات يعزفن ولا ثياب، وحوريات يتراشقن بالماء.

انتصب من مسبحه، وكانت ثيابه تقطر بالماء وسخّه العرق والتعب وعبور الصحراء، فأخذ يبقبق، مسح الماء عن عينيه، وحدق فيهن يريد بدء حديث وغزل، ولكنه شهق... وفرك عينيه ثانية يتوثق، ولكنّ عينيه لم تخدعاه، فالحوريات كما الأحلام كان الزمان قد غيّرهن، أمعن التحديق ليرى الأثداء المتدلية كقرب أفرغت من الماء، نظر إلى ما كانت ضفائر، ورأى شعراً خفيفاً خالطته الحناء، فتوزع بين أحمر الحناء ورمادي الزمان. مددن أذرعاً طويلة يدعونه إليهن، ولكن ما الذي يجري. كانت الأذرع محطّ البضاضة قد تحولت إلى لحم رقيق ممطوط يتدلى عن عظام الساق والعضد. نظر إلى السوق وكانت قد دقّت حتى صارت كالقصب، وهتف محزوناً: ما الذي يجري. لماذا. أهذه هي حوريات الوعد؟ صدمه الجدول بشيء، فنظر إليه، وكانت تفاحة، قنصها، ورفعها ليجد أنها خفيفة كقشرة بيضة، ضغط عليها قليلاً ليجد القشرة خالية

من كل حياة ونضارة. تناول رمانة، فصدمته خفتها. سفرجلة، ولكن. ما الذي يجري. أهذه مدينة الأمل؟

ترك الجدول بحورياته، خرج إلى البر حسيراً يفكر... ما الغلط، واشتمّ رائحة خمر، فقال: كأس تعيد إليّ صفاء الرأس. اخترق شجيرات رمان قريبة، ورأى جدول الخمر، ولكن ما كان جدولاً تحول إلى مستنقع امتلأت حفره بالخمر جارت عليها الشمس فبقبقت، ومن وراء سياج لأشجار سفرجل سمع همهمات شيوخ، فتوتر. ولكن الهمهمات ألحّت، فأصغى، وسمعهم يتحدثون عن قرب ظهوره، ذلك الذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن امتلأت جوراً، وما عليك حتى تراه إلا أن تتمرغ في جنته لتتوثق أنّه وراء هذه المدينة ينتظر المؤمنين ليحمل بهم على دولة الظلم ويقيم دولة العدل. نفخ في سخرية غير مصدقة، وأمعن في سيره ليرى جدولاً امتلأ بالحليب، ولكنّ طول الزمان عليه خمره، فانبثقت منه رائحة الحموضة وصفرة فقاعات القشدة وهواء الماء الماصل.

مدّ كفاً يريد جرعة يروي بها ظمأه، فصفعته رائحة الحموضة، فانتصب ومضى، وما يدري أنه قد اقترب ثانية منهن، وكنّ خلف سياج الصفصاف يتغنجن ويشهقن، ويدعين، وكان يمكن له لو لم يرهن رأي العين ان ينخدع، ولكنّه عرف عجزهن وشيخوختهن ودقة عظمهن ونحول شعورهن، فأمعن في عبور الغيضة يبحث عن جواب لأسئلة لا يعرفها. وسمعهم على الجانب الآخر وراء شجر الرمان يصلّون ويدعون أن يعجل الله فرجه، وينهي دولة الظلم، ويقيم دولة العدل و...

رأى دخاناً كثيفاً فاقترب، وصدمته روائح الحشيش المنشية فاستنشق ملء صدره، واستراح. ارتخت ساقاه، فاستند بظهره إلى

جذع شجرة، وترك ساقيه تتزلقان. هاجمته روائح الحشيش فاستمتع. انزلقت في خياشيمه، وسمع صوت غنجهن هناك في الجدول، فرآهن ينبضن صبواً وشهوة، ونداء، فقال: إنها مدينة الأمل. أصغى إلى همهماتهم واستطاع أن ينتزع منها قولة أحدهم: هذه هي السعادة، وهذا هو المرح وما عليك لتخلد فيها إلا أن تترك صاحب الفرج يقودك إليها. أصغ إلى ما يريد، وستكون لك المتع كلها.

تحامل على نفسه يريد أن يمضي إلى صاحب الفرج، فرأى جدول الخمر وراه يموج بأطايب خمور العالم، انحنى عليه ليجرع، ولكنه لسوء حظه انزلق على طين جانب الجدول، فهوى، وضرب رأسه بصخرة، فانشجّ. مدّ أصابعه إلى جبينه، فرأى الدم، وحين رأى الدم رأى مستنقع البقبقة، فانتصب، ومضى يتعثر ما بين خُمار الحشيش وخُمار الضربة على رأسه، ورآهنّ ما يزلن في الجدول، ولكنهن العجائز متدليات الأثداء ناحلات الشعور دقيقات العظام، فقال: أف... هل دخلتها متأخراً!!..

تمنى لو لم يقلها... لأنه ما إن قالها حتى اصفرّت الأشجار ويبست الثمار عليها. غار الجدول، وارتمت عجائز الحوريات على الأرض متعبات نسين الغنج وغلبهن تأوه الشيخوخة والتعب.

تمنى لو لم يقلها لأنه ما إن قالها حتى أخذت المدينة تنسحب بجداولها وحورياتها وشيوخها وسور شجرها... وعاد إلى الخبءِ في الصحراء.

الآن فقط أستطيع استقبال الموت بارتياح و... ـ ترددت قبل أن تكمل ـ الآن فقط أعرف أني أدّيت المراد، وأنجزت المهمة التي كان الجميع يؤمن باستحالة تنفيذها، المهمة التي كانت التحدي الكبير للكوركان العظيم.

وقال أيزدمر: ألن تحملي ذهبك معك؟

فردت في حزن هادئ: لا... لن أحمل معي شيئاً من هذه المدينة.

أزاح أريكة، ورفع بساطاً، فانكشفت بلاطة زحزحها بعتلة وقبل أن يكمل رفعها توقف قليلاً، وتركها تستر نصف الفراغ تحتها، وأعاد الانتصاب، وأخذ يتأمل الغرفة الكبيرة. تأمل طنافسها، وتأمل سجاجيدها، تأمل قناديلها، وتأمل مشاكيها. ورأت سحابة من الحزن تعبر وجهه، فابتسمت في مرارة ساخرة، وقالت: ما كنت أظن أنك تكترث لهذه الأمور، ثم ضحكت: بل ما كنت أظن أنَّ لك قلباً. قال: طول العشرة لا ينكرها إلا ابن حرام.

فضحكت في استهزاء: وتظن أن هناك فعلاً أبناء حرام وأبناء حلال؟ وأكملت في استهتار: كلنا أبناء لحظة متعة، لا يهم إن كانت حراماً أو حلالاً.

ونظر أيزدمر إلى وجهها الجديد البارد في دهشة حقيقية. هو يعرفها في المدينة منذ سنوات. يعرفها الجميلة والمتجمّلة، يعرفها المطرية والمتطرِّية، يعرفها المعشوقة والمتدلّلة، يعرفها الصديقة والوسيطة، وأداة الانتقام الحديدية لا تنثني. ولكنها المرة الأولى يرى

فيها هذا الوجه الساخر في ألم، هذه السخرية لا يملكها الإنسان إلا بعد رؤيته انهيار الآمال، وانكسار الأحزان، وسخرية العواطف. كان كثيراً ما يتساءل وهو يرى العشاق المرتمين عند قدميها، العشاق الظرفاء الوسيمين الأغنياء المستعدين لبذل الثروات عند قدميها لا يطلبون إلا الرضا. كانوا يعرفون أنّها الجارية، فهي من أعلنت ذلك للجميع، ولكن من سيدُّها؟. هذا ما كانوا يجهلون، ولو عرفوا لبذلوا الكنوز من أجل شرائها والحظوة بها، ولكنها كانت تماطل. فإذا ما ألحوا أرت من سيوصل أخبارها رسائل سيدها المسافر البعيد ووعوده بأنّه قادم أخيراً لاصطحابها وإنهاء مشاكلها. سيأتي دون ريب لاستعادتها. وكانوا يذهلون: أهناك مثل هذا الولاء لدى النساء والجواري منهن...؟ عرضوا الكثير، عرضوا القصور، عرضوا الخدم والحشم، عرضوا الأموال، وعرضوا الزواج،و... لكنها كانت مصمّمة ألا تخون.

في واحدة من سهرات أبناء الأمراء ادعى ابن السلاح دار وهو يهمس متغنجاً لابن الأمير آخور يغمض نصف عينه مستغرقاً في لذة أنّه نالها. ثم مصمص شفتيه في استياء: إنها لا تستحق كلّ هذا الصيت، فهي امرأة عادية، بل ربما أقل من عادية. واهتاج ابن الأمير آخور، وكذّبه في حدة، ولكنّه أخرج من عبه قطعة من ثوب نسائي داخلي وهو يهمس: أما تزال تشك؟ وكادت المذبحة تتم، فقد أشهر ابن الأمير آخور سيفه، فهبَّ رجال ابن السلاح دار لنجدته. وهبَّ رجال ابن الأمير آخور شاهرين سيوفهم. وأسرع واحد من رجال الخبر المتنكرين بإيصال ما جرى للأتابك كبير المماليك الذي أرسل حراسه، فطوقوا المكان، وأوقفوا المذبحة في بداياتها، فلم يسقط إلا ثلاثة من الحرس وجريحان. ولكنَّ ابن الأمير آخور، بل والأمير

أخور نفسه لم يسكتا على الحكاية، ولم يكن هذا في صالح فرتتى أصلاً، فتسلّلت إلى قصر الأمير آخور تحمل إليه هدايا ورسائل ووعوداً أغرقها بها ابن السلاح دار، وأخفق في كل ما رغب فيه،.... افتضح أمر ابن السلاح دار الصغير، وكان عليه أن يهجر المدينة خجلاً من سخريات أولاد الأمراء لشهور ادّعى فيها أبوه أنه سافر ليتدرب على سلاح البندق وسيتغير اسم الأسرة فيما بعد ليصبح بدلاً من السلاح دار البندقدار.

نزلت الدرجات الستّ وراءه، وكان يضيئ النفق بمشعل، ولم تفاجأ بنظافة النفق، ولا بنقاء هوائه، فهي تعرف أنهم لم ينقطعوا عن استخدامه، مضت بين انثناءات النفق تحاذر الاصطدام بالجذور المتدلية كأصابع تلوّح في يأس. أخذت تشعر بالفراغ، هذا الفراغ الذي يعرفه كل مبدع بعد إنجاز مشروعه الكبير. ورغم أنّ السنين كانت تتقضي في انتظار هذا الإنجاز إلا أنّ كل مبدع ما إن يضع لمسته الأخيرة على مشروعه حتى يبدأ رحلة الفراغ والخواء والشك. ترى هل أضاع كلّ هذا الزمن الطويل عبثاً؟ ترى هل كان هذا المشروع يستحق كل هذا التكريس؟ ترى..... وفجأة يقفز السؤال التالي: ما الذي سأفعل الآن بعد أن أنهيت هذا المشروع؟ هل أستطيع مفارقته، الابتعاد عنه، مراقبته من بعيد، عدم التعامل معه، الإحساس بالغربة عنه، فلم يعد ملكي بعد أن كان أرق الليل الطويل وشغل النهار الملح؟

كان ضوء المشعل المتقدم أمامها يلوح ويختفي مع انحناءات النفق، وكانت رائحة الشحم المحترق تهديها، والجذور تصفعها، والإحساس بمغادرة المكان الذي قضت فيه السنوات الأخيرة وصارت جزءاً منه تلحُّ عليها: كيف سأواجه العالم الآن؟ كيف سأبدأ حياتي

منذ الآن؟ أية لغة ستصبح لغتي منذ اليوم؟ أي مكافأة يعدُّ الكوركان لي؟ أي الأزواج سيزوجني؟ وشهقت: أعوذ بالله/ ولكن... لا...من..؟

حين دخل الجغتائي ذلك الدير أو الخانقاه عالية الأسوار بعد حصار لم يدافع فيه عن الدير إلا الحجارة، أمّا الحراس، فكانوا مختفين، لم يواجهوا جيش الكوركان بالسهام، ولا بالماء المغلي، ولا بالرصاص السائل، كان الدفاع الوحيد أبواباً صلبة وأسواراً تناطح السماء وحجارة لا تستجيب للنطاح ولكن... أيُّ القلاع يمكن لها أن تصمد أمام مهندسي الكوركان من الصينيين والخطائيين، من الفرس والعرب والبخاريين؟

قال الكوركان: أريدها الليلة!! وأخذ النقابُون ينقبون، ولكن الصخور كانت أصلد من مطارقهم وأزاميلهم، وكادوا يسمعون شهقات الشماتة من سكان القلعة: نحن لن نجهد أنفسنا بحريك، سنترك الصخور العاتية تردُّ عليك. ولكن النقّابين كانوا يعرفون عقوبة ألا يستجاب طلب الكوركان. قضوا الليل يبدّلون الأزاميل المصنوعة من فولاذ بأزاميل مصنوعة من حجر الصواعق، ومن رؤوس الماس، ولكن الصخور، أكانت صخوراً فعلاً؟ كانت تقهقه في شماتة... لم يسمع الكوركان القهقهات، ولم يسمع آهات النقابين، ولم ير أياديهم مزقتها الأزاميل المكسورة. كانوا يعدُّون الساعات المتبقية لهم، ويتبادلون الطرق على الأزاميل، ويبدلون الأزاميل. وكانت النجوم تتحرك في السماء تعلن قرب مطلع الصباح. قالوا: هذه ليست حجارة، والقلعة ليست قلعة. إنه السحر.

كلّت أذرعهم وتشنّجت أكتافهم، وتمزّقت أصابعهم، فرمى أولهم بمطرقته في حزن، ومضى إلى حيث الجلاد مستسلماً لقدره،

فهو يعرف ألّا أمل أمامه حين لم تنفذ أوامر الكوركان. ولم يكن مخطئاً، أو واهماً، فحين أشرقت الشمس، وشرب الكوركان كأس حليبه المحلّى بالعسل. وتطاول برأسه من خيمته ينتظر وفود المستسلمين، فرآها ما تزال تناطح السحاب متحدية، رمق الجلاد بعين احمرت للحظتها، وسرعان ما طارت رؤوس النقّابين والمهندسين والحجّارين، وكلٌّ من كان مكلفاً بوضع أنملة لافتتاح القلعة فأخفق.... عبس الكوركان، وتناقل المعسكر هذه الإشارة في رعب. تناقلوها بالجغتائية والفارسية، بالعربية والخطائية، بالكردية والتركية، تناقلوها بشفاه رقيقة وأنوف فطس وشعر مرسل؛ وتناقلوها بشفاه سميكة وأنوف سيفية وبشرات سمر؛ تناقلوها ودبَّ الرعب بالقادة والضباط والأمراء، فهم يعرفون ألّا رأس كبيراً على السيف إن لم تنفذ أوامر الكوركان.

أرسل الأمراء وكبار الضباط جنودهم وعبيدهم وخدمهم ومستطلعيهم قالوا لهم: لابد لهذه القلعة من ثغرة، من ضعف، من مأخذ، جدوا هذه الثغرة ومن وجدها فله الحرية، وله الرتبة، وله الثروة، وله العزة؛ وإلا فالعذاب والموت لنا جميعاً. انتشروا متخلين عن المعسكر ومسالحه ومطابخه ومجالده، انتشروا يتسلقون صخور الجبل، ويتسللون إلى أعماق الكهوف ومنحدرات الوديان يتصيّدون راعياً، أو صياداً، أو عابر طريق، مخلوقاً يدلُّهم على معبر لهذه الصخرة الصلدة المسماة قلعة...

وفي إحدى رسائله إلى فرتنى كتب الكوركان: يضع سره في أضعف خلقه. فتمتمت لنفسها وكأنّما تستحثه: كيف؟ فأكمل: الجرذ.. هذا الحيوان الحقير المنتشر في كل مكان كان فاتح قلعة النساء. فتمتمت وكانت تعرف الجواب: كيف؟

فحدَّثها في رسالته عن مصرف المياه الوسخة يتساقط في الوادي، ويسقط معه الجرذان الضعيفة والضالة، وعن صئيها وصراخها، وتطلعها للعودة إلى جنتها المفقودة، وأسرع المكتشف يخبر أميره الذي سارع بقيادة جنده سراً إلى مخرج الجرذان والمياه الوسخة. حملوه على سلالم من حبال، ثم حملوا المقربين والشجعان من رجاله، ودخلوا القلعة.

كانت مفاجأة الكوركان بسكان القلعة كبيرة، لم يكونوا من المقاتلين الشجعان، ولم يكونوا من الفرسان لا يشقُّ لهم غبار، ولم يكونوا حتى من الأتقياء المحاربين، بل كانوا من القهرمانات والنساء العجائز وبعض الخصيان. وكاد الكوركان يأمر برميهم جميعاً عن سور القلعة صارخاً: ألمثل هؤلاء انتظرنا، وتحدَّينا، وقتلنا نقابينا!!

وما كاد الخصيان يرون القهرمانات يسقن إلى سور القلعة حتى انهار أحدهم، وسجد عند قدمي الكوركان يحدثه عن سر القلعة وجواريها اللواتي يربَّين منذ سن الرضاعة ليكنَّ أداة القتل لا يفلُّ سلاحه. اندفع رجال الكوركان إلى الأقبية والسراديب يخرجون منها جميلات النساء والعذراوات والرضيعات والفتيات الصغيرات، وصرخ الكوركان مندهشاً: هؤلاء الهنود وحماقاتهم، فلماذا يسجنون مثل هذه الحسناوات في هذه الأقبية السراديب، ولا رجال، ولا حراس، ولا أمراء؟ ولكن حين حدثته كبيرة القهرمانات عن سرِّ هذه النساء والفتيات الصغيرات المنتقَيات من أجمل نساء المملكة أمر الكوركان بإعطاء واحدة منهن إلى أحد الجنود يجربها فمات لساعته وعرف أنَّ خبث الهنود لا حدود له، وأنَّ السلاح الذي كانوا يعدُّونه لأعدائهم بهذه الجواري الحسان لا فالَّ له.

كان الوادي غمّاً ورطوبة وخرساً، لم يسمع صوت عصفور ولا نقيق ضفدع، ولا حتى عزيف ريح بين أغصان الحور.. اجتازه مخترقاً الظلال الرمادية والروائح الآسنة والخرس المِمضّ، وحين وصل إلى الذروة التي تتلوه رآها. كانت ما تزال في مكانها لم تتحول، بسورها الرصاصي وحجارته المثقبة بصدأ الأيام، بمآذنها البعيدة تعلوها أنصاف أقمار صدئة، بقبابها الكامدة مثيرة الأسى. وغمغم بصوت لم يسمعه أحد:...... وأخيراً....... المدينة، مدينة السلطان! تنهد في خيبة يحس أثقال الزمن تحطُّ على كاهله حين سمع همهمات فالتفت ليراهم عائدين، عبر الأودية الآسنة عائدين، يعتلون ذرى الجبل الأصلع عائدين، يتسللون عبر السواقي اليابسة، يمشون بظهور محنية وأقدام متكلسة، ونفوس أبلاها المرارة والأسى. هه... عرفهم جميعاً واحداً واحداً، عرفهم رغم اغبرار الوجوه وصدأ العيون، عرفهم وأدرك أنّهم جميعاً انكسروا كما انكسر، أدرك أنّهم جميعاً تتأكلهم الهزيمة كما تتأكله، وتساءل: ألم يكن خيراً لو لم يتركوا مدينتهم ساعين وراء المدينة الهاربة، ثم تساءل في مرارة: ترى كيف كان يشعر أولئك الذين تتحدث عنهم ذاكرة المدينة، أولئك الذين خرجوا من قلعة الموت بعد أن هزمهم الجغتائي الأول، وتخلى عنهم السلطان، هزمهم الجغتائي وتخلى عنهم الخليفة، هزمهم الجغتائي وتخلى عنهم الجميع؟ كيف كانوا يمشون في طرقات الأرض يندبون العمر الضائع والتجربة الحزينة والحلم

المكسور؟ أيّة شماتة احتملوها من أولئك الدكانيين بلا أحلام يدعكون كروشهم، ويعدُّون قروشهم في فرح: الحمد لله على العفو والعافية، وتساءل: كيف كانوا سيستقبلوننا في مدينة الأنهر السبعة.

نظر إليهم يتقرَّبون من مدينتهم: أعوذ بالله كم هرموا، نظر إلى لحاهم الرمادية غير المشذَّبة، وتساءل: ولكن الغيبة كلها كانت يوماً أو بعض يوم، فمتى هرموا، نظر إلى عيونهم الكابية المغلّلة بالقذى، وإلى أظافرهم المكسرة المسودة و... نظر إلى قلوبهم، وأدرك أنهم قد مزَّقوها قبل أن يكتشفوا ألّا قبر لهم إلا في مدينتهم.

قال: ترى من سيكون في استقبالي عند أبواب المدينة؟ قال: كيف سيفرح السلطان بعودتهم بعد أن يئس ولا شك من رجوعهم؟ قال: هل أقدم على اجتلاب ساكنين جدد لمدينتهم التي هجروها كما هدَّد؟

قال: هل سأجد بيتي مسكوناً وزوجي قد تزوجت وأبنائي قد تأبوا آباء آخرين؟

قال: هل سيهرُّ كلبي ويرعش ذيله لرؤيتي، أم سيقفز ويلعق كفي في فرح؟

قال: أما زالت الحمائم تهدل في أعشاشها، أم أنَّ اللصوص والقطط وبنات عرس قد أجهزت عليها؟

قال:... وفرتتى؟ أما تزال تغني السلطان أغنية الحب التي كانت تتخفى وراء الأترج والياسمين، فيطرب لها راكباً فراشاً من ريح فوق بحر من زئبق؟

اقتربوا من المدينة، فتضامُّوا كفراخ دجاجة أرعبها ظل الصقر. اقتربوا، فشمَّ روائح الخمر الرديئة تفوح منهم، فتساءل: أتراهم

صاروا السكيرين؟ اقتربوا، فشمَّ روائح حشيشة الفقراء. فتساءل: كيف ومتى تعلموا تعاطي الحشيش. اقتربوا، فشمَّ روائح قلوب محترقة، وتساءل: ومن يستطيع تحملَّ كل هذا الحزن؟ اقتربوا، ورأى ومضة سعادة في غابة الحزن على وجه واحد منهم، فنظر إلى كفه ليرى مزقة من ثوب امرأة، فقال: مسكين سيظل يتبلَّغ عليها حتى يمضي إلى عالم الظلال. اقتربوا، ورأى في عبٍّ واحد منهم قطعة خبز يجمع عليها يديه كمن يحمي كنزاً من لصوص، فقال: مسكين يخاف ألا يصدِّقوه حين يحدثهم عن مركب الخيبة الذي سقط منه.

اقتربوا. ورأى واحداً منهم يغلق خياشيمه في إصرار فقال: مسكين. يريد ألا ينسى روائح المدينة التي أسقطته. اقتربوا ورأى واحداً يخاصر الريح، فقال: مسكين يريد ألا ينسى تلك التي خاصرها قبل أن تطرده المدينة لم يئن أوانها.

كان الباب المصنوع من خشب الأرز المنقوع بالقطران لسنوات حتى يقاوم إلحاح الزمن، مقوى بمسامير من حديد بحجم قبضة طفل تجمع طبقات الخشب المتعاكسة، فلا تنحني تحت صفعات الليل والنهار، وتشدُّ أزر الباب أمام ضربات الرماحين ونطحات الكباشين والدبَّابين، وعصفات الريح.

كان الباب موارباً، ولم يكن له بذلك عادة، فهو إمَّا مغلق محكم الإغلاق لا تعبره نملة، وإمَّا مفتوح على مصراعيه للعربات والقواطر والبغال.

اقترب من الباب يتساءل: أفلم يعرفوا بعودتنا؟ أليس من استقبال للعائدين بعد السفر؟ ثم أطلق نفثة سخرية - وأي سفر!!

اقترب من الباب متبوعاً بطابور من القابضين على جمر الذكرى

والزامّين الخياشيم على روائح مدن السقوط، والمنكفئين على روائح الخمر الرديئة ينسون بها انكسارات الزمان.

عبر الباب السميك جداً، وما كاد حتى قبضت على كتفه يد قوية ودفعته بعنف إلى غرفة مجاورة، وقبل أن تعصب عيناه سمع صرخات الدهشة وآهات الألم، وتنهدات الرعب من أولئك العائدين بعد طول غياب... إلى مدينة السلطان.

لم تكن زنزانة بالمعنى المألوف، ولم تكن قاووشاً كما يسمى السجن الجماعي، ولم تكن قاعة مسوَّرة بالحجر والحديد يعبرها جديول ماء به يتنظفون، ومنه يشربون كما رأى في إحدى زياراته لصديق في السجن، بل كانت بئراً عميقة غطيّت فوّهتها بالحديد المشبك.

تلفت من حوله حالما تسلل نور الصباح إلى البئر فأناره. تلفّت من حوله يستكشف موقعه الجديد، فلقد كان إنزاله إلى البئر في الليل، ولا شاهد إلا الحبال والعتمة والصفع المهين. هو لا يعرف كيف قضى ليلته، وليس واثقاً إن كان قد نام بالفعل، وليل السجن طويل لكنه ربّما نام، على أي جنب لا يعرف؟ علام توسّد لا يعرف؟ كيف تسلل إليه النوم؟ هل رأى أحلاماً، هل بكى على المدينة التي قطع الصحراء واحتمل الصهد، وأيقظ أدعية الليل وأحلام النهار وقدم التملقات والتنازلات من أجل يوم يستطيع أن يقول فيه لقد ساعدت في بناء مدينة الحلم...؟ وتنهد في أسى: فها هو قد وضع ذيله بين ساقيه، وعاد يرجو الغفران من سلطان المدينة.

توقع كل شيء، ولكن أن يستقبلوه وراء الباب مباشرة بالصفع والعصب واللعنات، ولم يحصل على إجابة عن استفساراته إلا أنّه من رعى ودلل تلك المرأة التي كان اسمها فرتتى.

تنهّد وشعاع الشمس العمودي يخترق البئر إليه ليرى بساطاً مكوّماً في جانب البئر، وجرّة صغيرة خضنّها ليجد فيها بعض الماء

فيشرب لا يكترث لرائحة أو طعم أو لون، فقد أنهكه العطش. في الجانب الآخر من البئر كانت جرة لا تخطئ هدفها، فقد كانت روائح المخلفات البشرية واضحة فيها. تنهد يتلفت من حوله: أليس من ماء للوضوء؟ أليس من مكان طاهر للصلاة؟ أليس من طعام للمساجين لا يعرفون لسجنهم سبباً إلا أنهم تركوا المدينة بحثاً عن حلم حمله إليهم ضائعون ثلاثة؟

كان يسمع النداءات والصرخات، وأحياناً صفرات السياط وآهات الألم، وكان يحدُّ أذنيه ليكشف ما يجري هناك في الخارج وتساءل: أين زوجي، أين وكلائي، أين رؤساء قوافلي، أين المكاريين يسرحون بحميري وبغالي، أين العبيد والجواري، أين الإخوان ورجال الأخيات؟ ولكن جواب الأسئلة كلها كان الصمت.

تساءل: أتراهم نسوني والبئر مغرية بالنسيان؟ تساءل: كم بئراً توجد في هذا السجن، وكم سجيناً في كل بئر؟ فالبئر واسعة وتحتمل الكثير من السجناء. فأي ترف، وأي كرم، أو سعة في السجن جعلتهم يكرمونني بإعطائي سجناً خاصاً لا يشاركني فيه آخرون؟ أصدر نفخة سخرية، فها دعواته تستجاب، فقد كان أشد ما يكره في الحياة هو مشاركة أحد له في مكان نومه. لم يرض أبداً لجارية، أو حظية، أو زوجة أن تشاركه مكان نومه أو غرفة نومه، وهو يعرف أن للنائم ضعفاً من أحلام مريكة، أو أصوات مخجلة لذا حرص دائماً على النوم وحيداً. وأصدر نفخة سخرية، فها رجاؤه يتحقق فلا يشاركه سجنه أحد. ولكن.. تلفّت من حوله: لو أحد، أحد ما يقدم لزيارته الآن، لو أحد يسأله عن الأخبار، عن المدينة وما حلَّ بها، عن صديقه السلطان، عن بيته وجواريه وزوجاته، عن زاوية الإخوان.

مع أذان العصر الذي وصل إليه بعيداً أحسَّ بالجوع، فبحث عن بقية من الرغيف اليابس يتبلَّغ به. ولكنَّه كان قد أجهز على آخر كسرة منذ ساعات، فصرخ: أيها الحراس، أيها العسس، يا رجال السلطان، أنا برهان الدين، فليردَّ أحدكم فأجعله الغني لما بقي له من عمر! لكن صوتاً لحارس أو لعاسّ لم يصله. كل ما استطاعت أذناه الوصول إليه كان صوت تأوهات بعيد، وتضرعات من الواضح أنها تضرعات، ولكنه لم يفهم كلمة واحدة منها. وألحَّ عليه السؤال: علام يعاقبه السلطان؟ على أنَّه خرج يبحث عن المدينة الهاربة؟... ولكنَّ معظم رجال المدينة خرجوا معه. ترى هل سجنهم جميعاً، وأي سجن يمكن له أن يتسع لكل هؤلاء الناس؟ لو يستطيع لقاءه، لقاءه مرة واحدة؟ إذن لشرح له كل شيء ولتفهم السلطان. إنَّه صديقه القديم، وكل منهما يعرف ما يسرُّ الآخر ويعلن، وصرخ: أيها الحراس، أريد مقابلة السلطان، ولكنه لم يسمع رداً، فكرَّر الصراخ: أيها الحراس. يجب أن أقابل السلطان.

تردد قليلاً، ثم قرر أن يكمل: لديَّ أسرار يجب أن يعرفها! ولكنَّ أحداً لم يرد، فكرر الصراخ: أيها الحراس ستستفيدون ويفيد السلطان، ثم صرخ مهدداً السلطنة في خطر!!... ولكنَّ أحداً لم يردَّ.

أصيب بالرعب. أتراهم نسوه، هنا في هذا القبر العميق؟ ثم ألحَّ السؤال: أتراهم لا يسمعون نداءه لعمق مستقره؟ تحوَّل الرعب إلى ذعر، فاستجمع كلَّ ما لديه من قوة، وصرخ: أيها الحراس: لعلكم نسيتموني، أنا برهان الدين صديق السلطان، أنا شيخ الأخيات!

توقف قليلاً ينتظر نأمة، صوتاً يعلن أنَّهم سمعوه، وأهمَّهم ما يقول، ولكنَّ كل جواب حصل عليه كان الصمت، فصرخ: أنا

صديق القلم دار، وحبيبي السلاح دار، ورفيق سهراتي الأمير آخور. أيها الحراس اس اس كان نداؤه الأخير استغاثة، ولكن... لا مغيث.

فجأة أطبقت الظلمة على البئر، أطبقت إطباقاً كاملاً، فكاد يشله الذعر، وصرخ: هل حلّ الليل؟.. ولكن ما يزال الوقت مبكراً قبل حلول الليل... ثم... أنا لم أتوضأ، ولم أصلّ، ولا أعرف في أي وقت أنا... و... صرخ مكروياً مهاناً: أنا جوعان...... وعندئذ أحسّ في قلب الظلمة حركة، فارتعب: فما معنى هذه الحركة... هاه... ما معناها... أهناك باب سري في البئر دخلوا إليه؟ وتوترت عضلاته، توترت حتى مسام الجلد، وقفّ شعر رأسه وبدنه، وصرخ يتظاهر بشجاعة لم تكن يوماً لديه: ما هذا؟ من هناك؟. أنا أحذرك أياً من كنت، أنا لست نكرة، أنا برهان الدين، ورائي فتيان الأخيات جميعاً، ورائي وكلاء القوافل وقباطنة البحر... ولكنّ الصوت استمر يتردد في العتمة، فعاود الصراخ: أنا برهان الدين، صديق السلطان، أنا أعرف أنّ هناك خطأ ما، أعرف أنّ ضابطاً أحمق... ثم أحسّ بالخطأ فسحبها بسرعة - أعني متسرعاً قد تسرّع بالقبض علي، ولكن السلطان حين يعلم سيعاقبه، ويعاقبكم جميعاً. انتبهوا.

اصطدم شيء ثقيل بالأرض، فانتفض برهان متمسكاً بالجدار مرعوباً، ولكن الشيء لم يتحرك. كان برهان يتنفس بصعوبة، فقد أحسّ بأن العدو قريب، وسينقضّ. تمنى لو كان معه سلاح، أي سلاح، عصا، ولكن، الصوت عاد والطقطقة تتكرر. كان شيء ما يصطدم بجدار البئر، فتمتم وإن لم يسمع أحداً: ما الذي يجري؟ وما كاد يتم السؤال حتى توقف الصوت وانجلى الظلام، ورأى عبر الحديد المشبك السماء التي صارت رمادية، فتمتم: يا رب. ما الذي يجري؟ في أي مكان أنا. هذا ليس سجناً، وهذا الليل والنهار،

العتمة والنور، والطقطقة التي لا أفهمها، وقضبان الحديد تغلق فم البئر.

نظر إلى الأرض، فرأى جرة وسلة. اقترب منهما متردداً: ما الذي جلبهما. لم تكونا هنا قبل العتمة. كيف وصلتا إلى هنا... تلمّس الجرة، فوجدها باردة، حملها وكانت ثقيلة هزها، فخضخضت بالماء. سكب منها قليلاً على الأرض. ماء جديد. كيف وصل إلى هنا. حرّك السلة، قربها منه ليرى رغيفاً وبعض الجبن. هاه. لم ينسوك إذن. هذا هو الطعام والشراب، ولكن من؟ كيف؟ من حملها إليه وكيف...؟ وفجأة ذكر العتمة الكاملة والطقطقة. هاه، لابد أنّهم أنزلوها بحبل، ولكن لم لم يكلموه؟ لم لم يواجهوه بتهمته؟ لم لم يحدثوه عن السلطان وزعله، والسلاح دار وعتبه؟ والأمير آخور وغضبه؟ و.. لكن الجوع أسكت الأسئلة، فأكل وشرب، واستند إلى جدار البئر ولم تلبث العتمة أن غطّت، والنجوم أن ظهرت في السماء البعيدة، البعيدة.

أيام عديدة انقضت، لم يعد يعرف عدّها، نسي موعد صلاة الفجر من صلاة العشاء، اضطرب الزمن، ولم يعد هنالك من رابط بالزمن خارج البئر إلا العتمة المفاجئة تحلُّ على البئر فيعرف أنهم غطّوا الفتحة، فلا يعرف من يطلُّ عليه، ولا يعرف من يحمل إليه الماء والطعام. وصار حالما تحل العتمة يبدأ الأسئلة الكثيرة عن أهله، عن السلطان، عن قوافله، عن سفنه، عن أصدقائه، ثم يبدأ إطلاق الوعود الكثيرة بالمال والشراء والعبيد لمن يقدم له أجوبة، عوناً، شيئاً، ولكنّه الصمت المطبق، فلا سؤال، ولا جواب.

أخذت الوحدة تلحُّ عليه، فصار يتمنّى أن يرى جرذاً، والجرذ أشد الحيوانات قذارة. تمناه، تمنى الخنفساء، وتمنى البزاق، وتمنى كل

ما يكره في هذا العالم، تمنى شيئاً يكسر هذه الوحدة التي لا يفهم لها سبباً، الوحدة المطبقة والصمت المطبق والقبر المطبق، ولو لم ينزلوا إليه الطعام والماء كلّ عصر لظنّ أنه في قبر دفن فيه حياً خطأ كما يسمع في الحكايات عمن، دفنه أهله حياً، ثم أفاق في القبر، فقتله الرعب. ولكنه ما يزال حياً. وقرص نفسه، فصرخ من الألم، حياً، ما أزال حياً، وإذن، فهذا ليس القبر، ولكن، لم يفعلون بي هذا؟ ولم سألوني بعد صفعة الباب الأولى عن فرتتى...؟ ما علاقة هذا كله بفرتتى...؟

في الليل، وكان يتقلب، وكلمات لا يريدها تتردد في الذاكرة: السلطان، ثم وعلى كره منه، الجفتائي، لعله الجفتائي، وأخيراً تتسلل رغم طردها من الذاكرة: فرتتى... فرتتى.

من بعيد سمع صدى خفيفاً لأذان بعيد. سمعه، وكان يتسرب كتلونات نقطة زيت على سطح ماء راكد. كان الصوت يتلون خفيفاً، ثم يتجلّى، ثم يخفتُ، وفجأة ـ ولا يدري كيف ـ انهمرت دموعه وبكى، لماذا بكى لا يعرف. أهو تراكم العذاب؟ أهو الإحساس بالضياع؟ أهو الصلة بالخارج؟ هو لا يعرف، ولكنه بكى، وبكى، وبكى، بدموع حقيقية لم يفعلها منذ عقود، بكى، وكأنما يخرج كل القهر الذي حط على قلبه بكى، وما كاد صوت الأذان يبتعد حتى توقف سيل الدمع، وأحس، كأن، أحمالاً سقطت عن قلبه، وآمن أن شيئاً سيحصل، وكان على حق، فما كادت الشمس تمد لسانها عبر مربعات الحديد على فتحة البئر حتى سمعهم، فالتفت ورآهم يتحلقون حول فوهة البئر فتنهد في فرح وآمن أنه الحظ الطيب حين رفعوا القفص الحديدي عن فتحة البئر ودلوا إليه سلماً من حبال وسمع صوتاً يقول: اصعد.

كان اللقاء مع حميد مربكاً إذ ما إن رآه حتى استبشر خيراً، فحميد صنيعته هو من ربّاه وأطعمه حين كان جائعاً، وكساه حين كان عارياً، وربت على ظهره حين كان يتيماً يشتهي كفَّ الأب الرابتة فكان له الأب والمطعم والرابت.

نظر إليه في أمل وهم يدفعونه إلى حضرته، وذكر بسرعة لقاءهما الأول وكان الطفل الضائع في الجامع يبحث عن لقمة ووسادة، فضمّه إليه، وهو يذكر - وفكّر: ما أعجب الاعيب الذاكرة، فكيف وهو في هذا الموقف يذكر؟ كانت نظراته مشوبة دائماً بشيء غير الشكر والعرفان، وكان يواسي نفسه: مسكين، يتيم ضائع لا يعرف من يحب ممّن يكره. كان يرى في نظرات الذعر، نظرات الحيوان المتوحش لم يؤلَف، ولم يؤنّس في عينيه، فكان يبالغ في إكرامه والتحبب إليه. كان يريد أن يجعل منه ابناً، ولم لا، أفلم يقولوا دائماً: الإنسان عبد الإحسان ولكنه كان كالقط مهما أكرمته، فلن يزيد على أن يخطف اللقمة من يدك، ثم ينتحي جانباً يربر متحدياً مؤمناً بأنه انتزع اللقمة من يدك، وكان يقول لزوجته وأصدقائه حين يلمحون إلى نظرات الذعر والتوتر في عينيه: سيتأنسُ أخيراً. لابد أنه ذاق الكثير من الصفعات حتى فقد الثقة في الناس، ولكني سأعيد إليه هذه الثقة.

كان يبالغ في إكرامه حتى أثار الغيرة في زوجه وبناته، وكان يقول: افعل الخير وارمه في البحر - وكان يكتم ولا يكمل قولته -

فلابد أن يعيده الله إليك أضعافاً مضاعفة. لم يكن بحاجة إلى هذه الأضعاف، ولكنه لم يكن يريد أن يكون الخاسر. وكان يقول لزوجته التي تنظر إليه في أسى وتقول: هذا الولد عجيب كلما غذّيته ازداد ضآلة، وكان يطمئنها: لا بأس لا بأس غداً حين يبلغ الحلم سيأكل الفول، ويرجع للأصول. وسيصبح الرجل يملأ العين.

لكنَّ حميد أكل الفول والفاصولياء والحمص ولم يصبح الرجل يملأ العين، بل كان كلما تقدمت به المراهقة ازداد ضآلة وصفرة في اللون، وكانت الزوجة تعلق ساخرة: كأنه يأكل من زيت الجامع. وكانت تعني أنه يأكل من مال حرام لا يثمر فيه. ولكنها أبداً، ولاحترامها لبرهان الدين لم تجرؤ يوماً على القول إنه ربما كان ابن حرام.

فجأة اختفى حميد، اختفى من حياة معلمه وسيده. اختفى من الأخيَّة واختفى من البيت، واختفى من مربط الحمير والبغال المؤجرة للمكاريين والمتنزهين والراغبين بالرحلات القصيرة.

قلق برهان الدين، وأرسل المنادين والسعاة يبحثون عنه وينادون متوجساً من شر أصابه، ولكن المنادين والسعاة عادوا يؤكدون ألّا أثر له في المدينة. وانشغل برهان كما انشغلت المدينة بالجغتائي ورسالته والثمار الرؤوس والرؤوس الثمار. انشغل كما انشغلت المدينة في البحث عن المدينة الهارية، ونسيه برهان في زحمة الانشغالات، وها هو فجأة في انتظاره.

أشرق وجه برهان، فها ابنه وقد صار من رجال السلطان، ها ابنه الذي لم تنجبه زوجه يكون الوجه الأول يلقاه بعد خروجه من القبر البئر، ورأى في وجهه الأصفر كلَّ جمال الرجال والفتيان، بل ربما حتى النساء.

حاول التملص من مرافقيه للانقضاض على حميد.. ابنه.. يعانقه، ولكن وجه حميد الأصمَّ وأذرع الحراس القاسية احتفظت به على مسافة من حميد الذي أصبح دوره الآن المحقق، ومع من؟ مع من كان سيده وأباه ومربيه والرابت على رأس يتمه.

قال: قل كل شيء تعرف عن فرتنى.

فرتنى، ردد برهان الدين. أفكل هذا العذاب والضياع إذن من أجل هذه الجارية؟ ردَّد جامد الوجه يحاول ألا يظهر صدمته لابنه من غير صلبه، والمحقق معه في غير وقته.

تجمَّد وجه برهان يتأمل غرابة ما يحصل، وتجمَّد وجه حميد المنتظر آملاً راجياً داعياً للرب في جزء غير واع منه كي يرى الصنم الكبير سيد المدينة والأخيات ينهار أخيراً، يتصدَّع، ويبدأ الرجاء بالسماح والغفران، كان حميد أكثر من يعرف أنَّ علاقة أبيه برهان بفرتنى لم تكن بالشديدة ولا المتعمقة ولكنه كان... يعرفها، ولذا كان على حميد كما ادَّعى لسادته أن يتابع كلَّ الخطوط. كان يمكن له أن يتجاوز ويتجاهل حكاية برهان معها نهائياً لو لم يداعبه شيطان صغير مزروع في القلب يقول: إنها فرصتك، فاهتبلها! إنها فرصتك تثأر فيها لأيام الذلة والضعة ولقمة اليتيم المرة.

حين تجمَّد وجه برهان تحت وقع السؤال كان ذهن حميد يعمل بسرعة متمنياً داعياً ربه ينتظر الانهيار، ولكنَّ الانهيار لم يقع، فقد كان السؤال صادماً لدرجة أنَّ برهان لم يجد الجواب، بل ربما لم يفهم السؤال. كانت الصدمة كبيرة، ابنه يحقق معه، ابنه الذي أطعمه وكساه، وربت على رأسه، وحماه من مخاطر الحارات والنوم في الجوامع والخانقاهات وأمام الأسبلة. وكانت الأخبار عن أولئك

الذين يكمنون للصبية في الملاجئ يستغلون ضعفهم وعجزهم ورعبهم من العالم، فيهاجمون براءتهم. حماه وأحلّه محل الابن الذي لم يرزق به، ولكن... بعد هذا اللقاء؟... وبعد الغيبة الطويلة، والمكافآت الكبيرة بذلت للمنادين والسعاة يبحثون عن الابن الضال. ولكن... فرتنى... فرتنى. ماله ولفرتنى وهو المهموم بالمدينة والأخيات وإيقاظ همة الناس التي انحطّت منذ حل السلطان أخيات الفتيان والثغوريين والمجاهدين والباحثين عن طريقة يمكن فيها للمدينة صدُّ الجغتائي لو جاء، واستبقى أخيات الرقص و(الله، الله، هه، هه).

استبقى القلندرية الذين أداروا ظهورهم للأرض والناس، فالسلطان والجغتائي لديهم واحد، والمسلم والكافر واحد، وما يهم هو الرب خالق هذا العالم. ما يهم هو إذلال هذا الجسد الحاجز ما بين الإنسان والذوبان في نور الرب الإلهي. كان يرى اقتلاعهم عيناً من عينيهم، وتحطيمهم أسنانهم، ونتفهم شعورهم وسبالهم، وجدعهم لأنوفهم. بل كان فيهم من يربط ذكره بالقيود، فلا يدعوه إلى فاحشة. كان يرى إعزاز السلطان لهم، فهم الوحيدون لا ينافسونه على تسيُّد المدينة، ولا يفكرون. وكان برهان يعرف أنَّ الجغتائي سيحبهم وأنَّ ري الفرنجة سيحبهم وأنَّ قيصر روميه سيحبهم، ولم لا، وهم أنصار كل الملوك ضد الأرض ومحبيها؟

صرخ حميد بصوت حاول أن يجعله كالرعد: أين هي فرتنى؟

ونظر برهان إلى حميد الذي يتشبه بالرجال بهذه اللحية الرقيقة يحيط بها وجهه كالح الصفرة، والعينين البنيتين الغائرتين، وتعوَّذ بالله: ربما كانت زوجي على حق، فكلُّ هذا الطعام والعناية كان يمكن لها أن تربي بغلاً، ولم تربِّه، ولم تثمره، فظل الضئيل الكالح. وأشار حميد إلى الحراس، فدفعوه باتجاه مجلس حميد

الذي فحّ هذه المرة مدركاً بأنَّ الصراخ لا يفيد مع سيده السابق. قال: الصمت لن يفيد، والقضية كبيرة، والجغتائي على الطريق، ويجب أن نعرف كل شيء عن فرتتى.

ـ الجغتائي؟ تمتم برهان الدين في ضعف، وهزَّ حميد رأسه مؤكداً.

ـ على الطريق؟ أكمل برهان الدين وقد استيقظ فيه شيخ الأخية، ورجل الفتيان والحالم بمدينة عادلة على الأرض ـ وفجأة صرخ في ثورة ـ وتسجنونني؟ الجغتائي على الطريق وتسجنون العائدين من المدينة الهاربة، ثم في هستريا: الجغتائي على الطريق؟ ولكن. أين السلطان؟ خذوني إلى السلطان. يجب أن نجمع كل القوى، أن نجند كل الطاقات. إنه الوحش لا يرحم.

كان يمعن في ثورته، ويخطب، ويهدد، ويصرخ، لا يلاحظ الوجوه الجامدة المحيطة به، ولا يلاحظ البرود الجليدي والنظرات الميتة والسخرية الخفية في عيونهم، فعمَّ يتحدث هذا الأحمق، وأخيراً فحَّ حميد: السلطان قادر على الوقوف في وجه الجغتائي وهزيمته، ولا اعتقد أنّا، أو أنَّ السلطان في حاجة إلى سماع تعليمات ونصائح سمجة. ثم تنحنح ينظف حلقه، وتابع يفصِّص الكلمات: والآن. قل. أين فرتتى.

النصائح السمجة؟ كرر برهان لنفسه، النصائح السمجة؟ ولمثلي يقال هذا. وممن كنت أعتقد أنه ابني؟ إيه... تنهد مردداً لنفسه المثل القديم: يا مربي في غير ولدك، يا باني في غير أرضك.

ضرب حميد الطنفسة الجلدية بقسوة: أين فرتتى؟

فقال برهان في هدوء مسلماً نفسه لقدره: ومن أين لي أن أعرف؟ إنها في بيتها. ثم تحمَّس فجأة: ولم يهتم أناس خطيرون مثلك بجارية مثل فرتتى؟!.

عبرت بسرعة خاطفة بسمة رضا عن النفس، ولكنه سرعان ما قمعها المنصب والناس من حوله. وأسعدته الخاطرة: فهاهو الرجل الكبير، مَنْ نحنحته ترعب عشرين عبداً، وأربعين جارية يعترف بأنه رجل خطير...

كانوا عشرة شبان بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة، عشرة شبان بلديين لم يكن فيهم مملوك واحد. وسيعرف حميد فيما بعد أن المملوك لا يصلح لهذا العمل، فلون بشرته، وشعره الأشقر، وتعثره باللغة العربية لن يسهّل له أبداً هذه المهمة. كانوا عشرة شبان بلديين، والمدهش أنّ العشرة كانوا متشابهين وكأنّهم لأب واحد وأم واحدة، أو أسرة واحدة، فكلهم كانوا شاحبي البشرة، نحيلي الجسم ضئيلين بين الرجال. كانوا من أولئك الناس الذين لا تستطيع عينك إلا أن تتجاوزهم، فليس فيهم ما يميز أو يشذّ. وربما كان هذا جرحهم السري فبالإضافة إلى يتمهم وفقرهم ونحولهم وصفرتهم كانت ضآلة القامة سبباً أساسياً في تقحم العيون لهم وعدم اكتراثها بهم. كانوا وحينما تصارحوا فيما بينهم في ليالي الأرق القمراء يعيشون كالأشباح لا يراهم الآخرون ولا يسألونهم خدمة، ولا تراهم النساء، فيتقبلن غزلهم أو تحرشاتهم. كانوا كلهم من عرف الجوع ضيفاً يومياً أو أسبوعياً. كانوا كلهم ممّن عرف الصفع واللطم والتجاهل. كانوا كلهم كما تصارحوا فيما بينهم يحلمون بأن يقوم أحد لاستقبالهم إن دخلوا مكاناً، أو يبتسم لمرآهم حين يمر بهم، أو يرد على سلامهم وتحيتهم إن سلموا، أو تمسح إحداهن على شعرها محيية إن مر، أحدهم بها، أو تبتسم له من وراء مشربيتها، أو تسقط زهرة ياسمين خطأ من نافذتها حين يمرون بها.

كانوا ببساطة غير خطيرين. وحين قال برهان الدين عن حميد

إنـه مـن النـاس الخطيريـن لم يـدرك أي بهجـة دفعهـا إلى قلبـه وأي إحساس هائل بالنجاح أشعره به، فلقد شـعر لحظتئذ أنـه لم يخطئ أبداً حين استجاب لصاحب الخبر، وانضمَّ إلى العاملين معه، فها هـو يجعل رجـلاً في أهمية برهـان الـدين يجعله في مجموعـة النـابهين ذوي الخطر، وكان هذا هو الحلم الذي سعى من أجله منـذ أن ربـت علـى رأسه اليتيم أول متعطِّف، ومنـذ أن مـدّت أول امـرأة يـدها إليـه تحمـل لفافة من خبز وجبن وهي تتمتم بالدعوات حتى يحتسب الله لها عنـده حسنة إطعام اليتيم.

كان تدريباً صعباً وطويلاً أحيطوا به بدءاً من تسلق الأسوار على حبل في نهايته خطاف، وانتهاء بتعلم الانزلاق عبر النوافذ والفتحات، وحين اعترض أحدهم بأن هـذا شغل اللصوص. قال صاحب الخبر: هذا هو العمل الذي ينتظركم. وحين رأى الحيرة على وجوههم تـابع: لن تسرقوا دنانير ولا مجوهرات بل ما هـو أهـم. ستتسللون إلى بيوت الأمراء، والقادة وسيقدِّم لكم رجالنا من العبيد والجواري الممنوعين مـن الخـروج مـن البيـوت الـتي يعملـون بهـا المعلومـات جـاهزة، وستحملونها إلينا هاهنـا. كيـف ستدخلون إلى هـذه البيوت إذن؟ هـه تقرعون الأبواب؟ بالطبع لا، ولكن بواسطة هذا المفرد والحبل - تنهد كمن سيفضي بسر - انتقيناكم خفيفي الوزن حتى لا يسمعوا دبيب خطواتكم على الأسطح واخترناكم ضئيلي الحجم حتـى تستطيعوا العبـور مـن الطاقـات والنوافـذ الـصغيرة. ولكنـه لم يقـل لهـم إنهـم اختاروهم من أبناء الحارات الأيتام الضائعين الـذين لا قيمـة شخصية لهم في هـذه الحيـاة، فـلا عائلـة، ولا مـال، ولا علـم، وستـصبح كـل قيمـة لهم نابعـة مـن عملهم مـع صـاحب الخبر. ولـو تخلـى عنهم يومـاً فسيعودون إلى الغبار وإلى عالم التفاهة ولا حاجة لهم بها، فقد عرفوا

طعم الخطورة والأهمية والثراء السهل.

علّموهم الكتابة بالحبر والكتابة بماء البصل، علّموهم الرسم وعلموهم النسخ بالبيض المسلوق بعد قشره يديرون البيضة على النص المطلوب سرقته دون أن يعرف صاحبه بسرقته، ثم يديرون البيضة على الورق الأبيض، فينتقل النص إلى الورق الجديد. علّموهم البنج والحشيش والتكتيف السريع، كما علّموهم الطعن بخنجر من بعد عشرة أذرع فتقتل المطلوب قتله. أرادوا أن يصبحوا المرئيين فازدادوا بتعلمهم خفاء وشبحية، وكانت شبحيتهم هي المطلوب. وحين وصل رسول الجغتائي المتحدي أحسوا بالتوتر. فلقد نقل إليهم معلموهم هذا التوتر. قالوا: لمثل هذا اليوم ادخركم وربّاكم السلطان، وحين تساءل حميد، وكان قد بدأ يتقن الكلام مع رؤسائه: ما المطلوب منا بالتحديد؟

غمغم المعلم، ولم يصرح: ستعرفون في الوقت المناسب.

وكان على حق، ففي الوقت المناسب طلب إليهم الانتشار بين الحارات والنوادي والمقاصف يتسمّعون، ويعرفون كيف يفكر الناس أمام هذا الوحش المسلح بأحجية والمسمى بالجغتائي. وحين سمع حميد أبو عبد الله وهو يصرّح بأن الجواب هو أبو عبد الله نفسه حمل حميد الملاحظة إلى صاحب الخبر، لتبدأ رحلة المبارزة المشؤومة، وبدأت رحلة صعود حميد. ولكنّ صعوده الحقيقي كان حين استخدم أنفه كما يجب وعرف سر مقتل السلطان.

وصرخ برهان الدين غير مصدق: مقتل السلطان؟ أقتلوا السلطان؟ من؟ ثم بانهيار: أفعلها الجغتائي الحقير؟

كان حميد ينصت إليه في صبر بينما كان برهان يتدفق فيما يشبه الهذيان. كانت صدمة حقيقية. لم تكن مفتعلة أبداً، فقد

كان آخر ما يحلم به برهان هو موت السلطان، هذا السلطان الذي طال به العمر كسابقه حتى ظنَّ أنه لن يموت. كان برهان يعرف بالحيل التي ابتكرها ليبعد ملاك الموت عنه. عرف عن طعامه الذي لا يذوقه قبل أن يذوقه الجاشنكير المشرف على طعامه، فإن سمَّ فعليه أن يسمَّ نفسه أولاً. ويعرف أنه لا يشرب شيئاً أبداً قبل ان يتذوقه الشراب دار. وكان يضع على كأسه سمة يعرفها بها فهو لا يحب أن يخطئ كما أخطأ سلطان سبق، فشرب كأس السمِّ التي أعدَّها لغيره. كان يعرف عن عادات لباسه وحمامه، عرف عنه لبسه الزرد تحت الثياب، فلا يغدره طاعن، ولا يرميه خائن، وهمس كالمرعوب: كيف؟ ومن استطاع طعنه؟

وفح حميد: لم يطعنه أحد.

- وإذن كيف قتل؟

- السم.

- السم. كيف؟ وقد أعدَّ لكل سم ما يصده؟

وفحَّ حميد ثانية: فرتتى!

- فرتتى؟ كيف؟. أنت تذهلني.

حين عرف صاحب الخبر بالمصيبة كاد يقع ميتاً لساعته، فهو قد حسب كل الحسابات وسدَّ كل الثغرات، فمن أين نفذ العدو إليه؟ تفحص الجسد مع خيرة أطباء السلطنة. شدُّوا شعره، فانفرط بين أيديهم قالوا مسموم! ورفض صاحب الخبر وقاضي القضاة. قالوا: مستحيل. فشدُّوا ظفراً من أظافره فانفك عن اللحم، وكأنه لم يكن يوماً جزءاً منه. قالوا: مسموم! فصرخ كبار السلطنة رافضين ومن يجرؤ! وفجأة همس حميد المرافق الصغير المقرب من صاحب الخبر: إنه الجغتائي.

انطلق الحجَّاب والجنود والفرسان إلى المضافة حيث كان رسول الجغتائي يستضاف، ولكنهم فوجئوا بخلو القاعة، ونظر حميد إلى صاحب الخبر بعين خجولة تضمر الفخر.

في المساء كان التحقيق مع رجال القصر واحداً واحداً، ولكنَّ واحداً منهم لم يثبت أنَّ له علاقة بالسم، أو عرف به. استدعوا النساء كلهن، الجواري والمحظيات والقهرمانات والخادمات وتمَّ التحقيق معهن واحدة واحدة، ولكن لم يثبت أنْ لواحدة منهنَّ علاقة بالجريمة. وفي آخر الليل قال حميد لصاحب الخبر، وكانا يشعران كل، على طريقته بأنَّ لحميد دالة ما على صاحب الخبر: مولاي. لم لا تتفقدون العاملين والعاملات بالقصر، فالفاعل لا شك أنَّه هرب أو اختفى من القصر. وهكذا عرفوا باختفاء غلام السلطان المقرب جداً أيزدمر ومغنية السلطان الجديدة فرتنى.....

وانطلق حميد إلى خارج المدينة يتفحص سورها، أبوابها، ومخارجها يسأل الحراس والبوابين والفلاحين في البساتين المحيطة، ولكنَّ أحداً لم يعطه الجواب. فكيف خرجوا والأبواب محكمة الإغلاق؟ وانطلق المنادون في جادات وحارات المدينة يدعون كل من يعرف شيئاً عن فرتني أو ايزدمر أو يعرف مخبأ لهما، فعليه أن يقدم ما يعرف لصاحب الخبر، وله المكافأة السنية.

في البدء لم يربط صاحب الخبر، ولا صاحب الشرطة، ولا الشِحْنَة، ولا حتى قاضي القضاة بين ايزدمر وفرتنى، فما الذي يربط بين غلام القصر زرع وكبر ونشأ في القصر، وجارية لم تعرف القصر إلا منذ أسابيع. وحتى أكثرهم ريبة لم يربط بينهما وبين رسول الجغتائي، فليس من رابط منطقي يربط بينهما أو بين أحدهما ورسول الجغتائي إلا اختفاؤهم جميعاً وفي يوم واحد هو يوم مقتل

السلطان، ولكن هذا غير كاف.

كان المنادون ينادون، ورجال صاحب الخبر يعسّون، وصاحب الشرطة ورجال الشحنة ينتشرون، ينقبون في كل زاوية وركن. والوحيد لم ينضم إليهم في بحثهم كان حميد الذي ترك المدينة وأخذ يتقفى أنهارها وسواقيها وجداولها ومداخلها، وكانت كلها مسدودة بالحديد المشبك، وكانت كلها سليمة. قال لابد من معبر يربط المدينة بالخارج، وهكذا استعان بأنفه كما تفعل الكلاب المدربة، وانطلق. قال: فلنفتش قناة الماء تحت الأرضية، موزعة الماء ما بين البساتين وحارات المدينة. ومضى إلى صاحب الماء، فدلّه على الأقنية المكشوفة مداخلها ومخارجها، والأقنية لا تعرف إلا مداخلها، أما مخارجها فبعيدة عن المدينة عند المستنقع الأسود. وكاد ييأس فكلها محكمة الإغلاق، وكاد ييأس لولا أن رأى كلباً يطارد كلبة، والكلبة تتهارب وتتوقف تشجعه على مطاردتها، وراقته المطاردة المسلية، ولكن الكلبة اختفت فجأة. فاندهش حميد، وحار الكلب الذي أخذ ينبح مستغرباً اختفاءها. ولكنه فجأة عثر على مخبئها فاختفى. وقفز حميد من مجلسه وقد ركز عينيه على مكان اختفاء الكلب، وهكذا عثر على مخرج النفق المحفور ليصل ما بين خارج المدينة وبيت فرتنى السري والذي يصل بينه وبين بيت فرتنى المعروف للجميع باب مغطى بسجادة من جانب ولبلابة من أخرى.

هاجم رجال الخبر بيت فرتنى عبر الباب المغطى بسجادة ليجدوا بقايا رجال الجغتائي الكثيرة، وانجلى شطران مهمان من أشطار الأحجية، فقد عرف الجميع الآن كيف كان رجال الجغتائي يتجددون أحياء بعد قطع رؤوسهم وترمد جثثهم مبعثرة بين المقابر.

عرفوا الآن أنهم لم يكونوا الخالدين، ولم يكونوا من بقايا يأجوج ومأجوج، بل كانوا يعبرون ببساطة من خارج المدينة إلى بيت فرتتى ومن بيت فرتتى كان النفق الموصل إلى قاعة الرسل التي يشرف عليها ايزدمر في قصر السلطان، حيث كانت الأبواب تغلق لتمنع اتصال رسل الجغتائي بكوركانهم غير عارفين بان ايزدمر وفرتتى... كانا الجغتائي.

قال برهان: أعوذ بالله. أيزدمر الذي اشتري غلاماً في الثانية عشرة كان الضبع المتغّنم في قصر السلطان، الضبع الكامن لعشرين سنة؟ وقال حميد: وكانت فرتتى العذراء التي حملت سمّها معها إلى السلطان. والآن - وعاد إلى الصفير من بين أسنانه- أريد كل شيء، كل شيء تعرفه أو سمعته عن فرتتى، وأين يمكن لها أن تكون.

دوّى الذعر في المدينة فأن يتسرب إلى الناس على الرغم من كل محاولات التكتم أنّ السلطان المحتمي وراء أسوار قصره المحتمي وراء أسوار قلعته، المحتمية وراء أسوار الألوف المؤلفة من المماليك وأسوار المدينة. أن يعرفوا أنّ هذا السلطان رغم كل هذه الحمايات قد... قتل... كان الخبر مرعباً ومدوياً ومذعراً، فلقد شعر الناس فجأة أنهم عراة، فالسلطان قد قتل، والعجائز منهم يذكرون معارك الحارات والشوارع بين المماليك بعد وفاة كل سلطان، وقبل اختيار السلطان الوارث.

تحصن الناس ببيوتهم، جمعوا المؤونة التي يستطيعون جمعها، أغلقوا أبواب الحارات، ملأوا الجوامع الصغرى في الحارات المغلقة بالمصلين والمتهجدين والمتوسلين أن يخفف الله عنهم، ويزيل هذه الغمة ويعيد الأمور إلى نصابها. وفجأة اكتشف الناس كم كان

السلطان القتيل نبيلاً، أفلم يحمِ المدينة من حروب الشوارع والحارات؟ اكتشفوا كم كان السلطان القتيل مباركاً، أفلم يهطل المطر على المدينة وأراضيها وبساتينها طيلة حكمه فلم يعرفوا جدباً؟ اكتشفوا كم كان قوياً، أفلم يرهب الجغتائي، وسلطان الروم من بني عثمان ويحمي السلطنة من أذاهم؟ اكتشفوا كم كان تقياً، أفلم يمنع بصلاة واحدة أسراب الجراد من النزول إلى أرض السلطنة؟ اكتشفوا كم كان مرضياً عليه من الله، أفلم يحم السلطنة من الأوبئة والطواعين طيلة حكمه؟ وصرخ شيخ بقلب مقروح: ليته بقي لنا... ليت الله أخذ من أعمارنا، ومدَّ في عمره.

أما في القصر فقد توقف الكبراء والأمراء مذعورين، فها هو السلطان يفاجئهم ويموت قبل أن يحسموا أمورهم، ويقرروا من سيكون السلطان التالي بينهم. صحيح أنّه أوصى لابنه بالعرش من بعده، ولكن من ينفذ وصية ميت كان مملوكاً؟ ولابن ما يزال في الثالثة عشرة من عمره ولو أنّ اسمه كان فرج؟

كان التحقيق عن غياب فرتنى وايزدمر ورسل الجغتائي وسيلة لإطالة فترة ما قبل مبايعة السلطان الجديد... وأرسلت فرق التفتيش إلى الجهات الأربع تحاول العثور على الهاربين، ولكن السؤال الممض ظل يلح على صاحب الخبر: كيف سممته، وهي من فتشتها القهرمانة جيداً، وغسّلتها، وعطّرتها، ودهنتها بنفسها، فلم تترك لاحتمال أذى مكاناً؟ وهو على ثقة من صدق القهرمانة، فهي واحدة من أعوانه، وهو على ثقة من أن فرتنى لم تدخل معها سماً أو جسماً يحمل سماً إلى فراش السلطان وإذن، فكيف سممته؟

انطلق السؤال يحوم في أنحاء المدينة التي ارتفع عنها الذعر حين لم يسمعوا قعقعة السيوف ولا حفيف السهام، بل النداء المطمئن يتلوه

المؤذن والمنادون بالدعاء للسلطان الجديد ابن السلطان القديم حامي المملكة والدين، سيد المدن المئين، وقبطان البحار والنهرين. تنفس الناس الصعداء، وخرجوا من أنفاقهم، صعدوا من أقبيتهم، واندفعوا من حاراتهم، وقد عاد إليهم الصفاء والنقاء والراحة فهاهي السلطنة تنتقل إلى السلطان الجديد دون قتال في الحارات، ولا حرق للبيوت ونهب للأسواق، ولا اغتصاب للغلمان والفتيات.

كانت الرسائل تترى، وتتسلل وتتواصل بحكم العادة، رسائل لاتعرف أنَّ من كان سيستلمها قد مات. كانت تنساب انسياب الماء في الجدول لا يعرف ألا بحيرة تنتظره في نهاية الرحلة. رسائل تتواصل من الهند والسند، من بلاد الرسّ، ومن بلاد الروم، بل حتى من تركستان والصين. كانت الرسائل تردد جملة واحدة: الوحش أفاق فاستعدوا، الضبع في طريقه إليكم فتهيأوا، المسخ قد جمع لكم الجموع.

كانت رسائل لا يستقبلها عادة إلا السلطان، وهاهي تحول الآن إلى صاحب الخبر، فهذا عمله كما صرّح وأصرّ. وعادت الأمور إلى طبيعتها، وصار صاحب الخبر من يستلم رسائل الضباع الكامنين في قلب العدو. كانت رسائل يفهم بعضها صاحب الخبر، فلغاتها مفهومة، وبعضها بلغات اصطنعت خصيصاً لرسائل السلطان، فلا يفهمها غريب. وبعضها بلغات لم يعد هناك من يفهمها فقد ماتت الشعوب التي تتكلمها بعد إرسالها. ولكنَّ صاحب الخبر كان يستطيع تخمينها فالرسائل كلها لا حديث لها إلا عن الجغتائي الذي عرف بمقتل السلطان، وهاهو يستعد لتنفيذ ما حلم به العمر.

اجتمع السلاح دار والأمير آخور، وشاد الطبلخاناه، وشاد الزردخاناه والقلم دار، وقاضي القضاة. وقالوا: نتداول للأمر قبل

وقوعه، وقبل أن يعرف العوامُّ فيهيجوا ويفلت الأمن. وهكذا أفاقت المدينة في الصباح التالي لترى العُرضيَّ بكامل بهائه، الفرسان بأسلحتهم ورياشهم الجميلة. رأوا البندقداريين وراميات البندق معهم، رأوا القواسين وسهامهم الكثيرة ورأوا رماة المجانيق والمجانيق تدرج أمامهم بألوانها الحمر والذهبية، رأوا المشاة الكثيرين وسيوفهم الهلالية، وتنفس العوام والتجار الصعداء، فالدنيا بخير والفرسان كثيرون والسلاح وفير، وهتف واحد من العوامِّ في تحد: فليرنا الجفتائي مالديه وسيرى مالدينا. وسينقل هذا الكلام حرفياً إلى الجفتائي فيرسل إلى جروه المتغنم أن احفظ اسم هذا الدعيِّ فسنحتاج إليه! وهذا ما كان، فالبقال المتحمس كان أول من تحوَّل إلى منادٍ يدعو إلى التسليم للكوركان.

أراد الأتابك الجديد الأمير آخور أن يبدي حسن النية، فأعلن على لسان السلطان الفتى إطلاق سراح كل من اعتقل بعد عودته من الرحلة الغبية بحثاً عن مدينة أزهى من مدينة السلطان، وهتف المنادي ساخراً: كأنَّ هناك مدينة أجمل أو أزهى أو أعدل من مدينة السلطان!

عادوا إلى بيوتهم، ولكن حميد نبَّه صاحب الخبر إلى أن هؤلاء الناس ملوثون بالحلم، والحلم خطير خطورة السمِّ. فسأله صاحب الخبر: ما ترى؟ قال: يوضعون تحت المراقبة، فما يدريك أي سمٍّ لوثهم أثناء رحلتهم عن المدينة ...؟ ما يدريك لعلهم لقوا الجفتائي. وصاروا من أعوانه، ما يدريك؟

عادوا إلى بيوتهم، وما عرفوا أنهم متبوعون وما كانوا ليهتموا لهذا. فبعد العري العظيم، وبعد الانكسار العظيم ما عادوا يهتمون لشيء فلم يهتموا لعناقات الزوجة، ولا لبغام الأطفال، بل ... وهذا ما

رفع في التقارير إلى صاحب الخبر: انزوى كل منهم في ركن من بيته جعله بيت الأحزان يبكي خيبته، والحلم الذي ضاع، وأيام العمر السود التي ينتظرها دون أمل.

وانقسمت المدينة إلى ثلاثة شعوب، العوامّ المبتهجين بالعُرضيّ يقيس شوارع المدينة كلَّ صباح، ثم يخرج إلى خارج المدينة كل عصر، فيستعرض قوته، ويطلق سهامه، ويرمي بقنطارياته، ويسابق فرسانه وجمّاليه، ثم الخائبين ممن ساروا وراء مدينة الحلم الهاربة، فمنهم من صافحها، وخيَّبته، ومنهم من جال الآفاق ولم يتمكن حتى من مصافحتها. وفوق كل هؤلاء كان العارفون الحقيقيون والمطمئنون الحقيقيون إلى أنهم سيهزمون هذا الحراميَّ الجغتائيَّ المتسللَّ إلى حرم الملوك، ولا يستحق اسم الملوك.

تنهدت تنظر من حولها في أسف، فلقد أبهظها الخواء، وما كانت تعتقد بوجود مثل هذا المكان وإن سمعت أخباراً عن مكان كهذا كانت تتسرب عبر الحكايات، أسراب الطواويس الملونة والطواويس البيض، الإوَزّ العراقي والبط الأحمر، الغزلان العربية والأيائل الجليدية، الدجاج الهندي والرومي والفرعوني، الحمائم واليمائم والقماري. كانت تسعى بين يديها تلتقط ساقط المشمش والخوخ والكرز، ولا تمس ثمرة معلقة على شجرة فقد كانت مدربة على ألا تلتقط إلا الساقط. كان دجلة يهدر أمامها وبذا فقد عرفت أنها ما تزال البعيدة عن الكوركان، ولكنْ منْ يعرف حقاً أين يوجد الكوركان الآن؟ كانت الحمائم تحمل إليه أخبارها، ثم تعود تحمل إليها رسائله. وقد قرأت السعادة الكبرى في رسالته إليها بعد أن عرف أنها أنجزت المهمة. قال: عقود طويلة انقضت وأنا أنتظر سماع هذا الخبر، وكمن يفتح قلبه لعزيز. وما للكوركان عادة بهذا، ولكنّ كثرة الرسائل بينهما، والنصائح يعلّمها فيها كيف تسلك حتى تصل إلى بلاط السلطان. وهي تعتقد أن، بعض هذه الرسائل كتبها بنفسه وفي وقت متأخر من ليل الأرق، فهي تذكر قولته: كان رعبي أن أموت قبل أن اسمع هذا الخبر. كنت أعرف أنه سيموت فكلنا ميت، ولكن أن أعيش يوماً، يوماً واحداً بعد أن أجلس على عرشه، وأعلن أنّي سيد البرور السبعة وخاقان البحور السبعة وخادم الحرمين. كان الحلم الذي طالما جعل الليالي بيضاً بلا

نوم، والنصر وفتوح المدن أجوف دون لذة.

وفي رسالة أخرى قال: حين تنجزين المهمة، ستكون الجنان كلها تحت قدميك، لا تمنعي نفسك من لذة يا ابنتي، يا أنا الكامن في قلب العدو.. اكتبي على ورق خاص بك كلَّ المتع، كلَّ اللذات، كل البهجات التي تعتقدين أنها ستعوضك عن سنيٍّ الرهبنة في قلب العدو، وستكون لك.

قال: قرأت في إحدى المخطوطات التي حملوها من قلعة الموت عن حديقة أقاموها لمن يريدون إغراءه بالطاعة، حديقة جعلوا فيها كل المتع الأرضية، الرياض تجري من تحتها الأنهار، الجواري، الغلمان، الأشجار الدانية قطوفها، جعلوها كلها للمريد يريدون إقناعه بأن السعادة في متناول اليد، وما عليه ليصل إليها إلا أن يطيع الأمير. كلفت العسس، كلفت رجال الليل، طلبت من الرحالة في الآفاق، والباحثين عبر الورق أن يجدوها فلم يجدوها. ولكني حين فكرت بالأمر وجدته مغرياً، ولم لا، لم لا أجعلها المكافأة لمن يهب عمره مسبقاً في خدمتي؟ و.. أنت يا من حرمت نفسك من كل البهجات لتخدميني سأهبك هذه البهجة.

التفتت من حولها ورأت الجداول والسواقي والنواعير تنقل الماء بين دجلة وأعلى الوادي الجنة التي وجدت نفسها فيها بعد طول مسير في الصحراء، التفتت من حولها، ورأت أعجب الشجر وأغرب الطير، وسمعت أجمل ألحان الشحارير والحساسين والعنادل.

تنهدت تقلب في كومة الرسائل التي تجرأت أخيراً على إظهارها فهي لم تتلفها رغم إصراره على إتلافها حتى لا تكون سبباً في تلفها لو عثروا عليها، ولكنها كانت تحسُّ أنَّها كنزها الخاص. فهذا الرجل الذي كان رعب بني الإنسان لعقود طويلة، فقد كان القتل،

وكان الحرق، وكان الغصب، وكان الدمار، هي تعرف أن الناس سيذكرونه لمئات من السنين القادمة صورة مجسدة للقتل المجاني والحرق المجاني والدمار المجاني. ولكن ما فاجأها في رسائله أنها كانت تتغير رسالة إثر رسالة، وسنة إثر سنة لتشفّ هذه الرسائل، وترقّ وتتحولّ من رسائل من أمير إلى مأمور، ومن سيد إلى جارية، إلى مناجاة بين صديقين يجمعهما الحلم نفسه والألم نفسه، ثم إلى رسائل أشبه بالاعتذار، فأن يغتصب منها شبابها ومتع شبابها وحلمها بالأم والزوجة والمعشوقة. كان في بعض تضاعيف رسائله يرقُّ فيسقط عنه الوحش، ويعود الطفل المشترك بين بني الإنسان.

قال: ما كان لعقل بدوي مثلي أن يصل إلى هذا الخبث، لا. هذا الخبث بحاجة إلى حضارة، وحضارة مدينية طويلة، كان بحاجة إلى علماء ومؤرخين وكهنة صبورين يدربون ويجربون حتى يصلوا إلى مثل هذه المعجزة من المكر والخبث والقدرة على النكال بالعدو.. كيف استطاع هؤلاء الهنود الفظيعون أن يحولّوا المرأة، الأم، الحبيبة، المعشوقة، الزوجة، الابنة إلى... أفعى.. أعوذ بالله، حين أفكر بأنا نحن الذين يسموننا إهانة بالجغتائيين ما كان لنا أبداً أن نصل إلى مثل هذه القسوة.. نومة واحدة فإذا بك ميت، وإذا بالأفعى قد لدغتك لدغة العمر... أنا آسف يا ابنتي، فما كنت أشتهي أن اجدِّد أحزانك وأذكِّرك بما فعل أولئك الكفار بك، وبالعشرات من الجواري اللواتي عثرنا عليهن في قلعة النساء.

وفي مرة أخرى وبعد أن شكرها على خداع السلطان وتجديد رسل الجغتائي بعد قتلهم إلى حضرته، قال: شهوة طفلية ـ أعرف ولاشك ـ ولا تليق برجل مثلي، ولكنَّها كانت الشهوة، أن أرى وجه هذا السلطان حين رأى رسلي يبعثون بعد موتهم في حضرته. ثم

أكمل يقول - ترددت كثيراً في استعمال هذا السلاح الخسيس، ولكنه أصرَّ. فاوضته مراراً على الحرمين الشريفين، ولكنه أصرَّ. رضيت باقتسام هذا الشرف معه، ولكنه أصرَّ، بل كان وقحاً فشتمني في أمي، وسماني بالحرامي والجغتائي.. حسن.. تجاوز حدود الملوك في خطابه، فوجب الرد عليه بما يناسب مقامه، ولكن.. أنا أعرف أنك حزينة الآن، فرسائلك الأخيرة كانت تتضح بالحزن، ويحق لك الحزن. فامرأة تعرف أنها صارت أنثى العقرب ما إن يمسَّها الذكر حتى تقتله، كيف لها أن تتجب؟ وما يدريك أنها إن أنجبت لن تقتل وليدها كما قتلت ذكرها؟ ولكن.. لديَّ لك مفاجأة صغيرة، أنا أقدر تضحيتك، وأعرف أنك تعرضت لمئات الإغراءات من شبان وسيمين، فكهين، ظرفاء، وأنت من أنت في صباك، وجمالك، وظرفك، ولكنك امتنعت عليهم جميعاً حتى لا يفتضح السر قبل تحقيق الغاية...سأعوضك، صدقيني، سأعوضك عن كل يوم حرمان قضيته.

رفعت رأسها عن الرسالة حائرة، فكيف يعوِّضها، وبم يعوضها، وهي الملعونة منذ اختارها مهراجا ملعون لهذا الغرض، وكانت الرضيعة ما تزال؟ إنها الملعونة منذ وصموها بالوصمة لانجاة منها. كيف سيعوضها، وهل من قوة على الأرض قادرة على تعويضها؟ ثم تنهدت: عريسي سلطاني كان الموت. كانت اللذة الأولى الموت الأول والأخير. كانت السعادة الأولى شهقة النهاية.

استعادت المشهد، الصبية العذراء المليئة بكل الشهوات المكبوتة تقتل عريسها السلطان تقتله للحظته لتكون لذَّته شارة النهاية.

استعادت المشهد، وافتقدت لحظتها لذة الإنجاز، أو لذة النصر، فقد كان الألم والخوف من القبض عليها أكبر، وكان على

العذراء التي لم تعد عذراء أن تنسحب من فراش زفافها، تنسحب لتبدأ رحلة الهروب التي اجتازت فيها مع الأدلّاء وأيزدمر مزالق في الصحراء، ومسارب في الوديان، وأنفاقاً في الجبال، ولم يكن لها من رفيق إلا أيزدمر. صحيح أنه كان الشاب، وكان العفيّ، وكان الجميل، وكان الشهوة في فيافي الوحدة والعزلة والصحراء، ولكنها كلما همّت به أشفقت عليه، فطردته من حضرتها تذكره بالكوركان الذي سيقدمان عليه، فيبتعد. وكان أن اكتشفت أنّ سرها كان خفياً حتى على أيزدمر، فقد كان الكوركان حريصاً عليها وعلى مهمتها، فأبعد كل من عرف بسر قلعة النساء إلى أرض الموت، ليس هذا فحسب، بل قتل كل الجواري والقهرمانات والخصيان. ولم يستبق إلا السر الوحيد تلك المرأة التي ستحمل عند وفودها إلى مدينة السلطان اسم فرتنى.

قال: كانت رسائلك التي سمّيت لي فيها أسماء أعوانه المخيفين كلهم أهمّ ما أرسلت، فالجنود سيموتون، أستطيع قتلهم بالمجانيق والحريق والسيف، فإذا بهم وكأن لم يكونوا. وهؤلاء لم يخيفوني يوماً، فلديّ من هؤلاء القتلة أسوأ بني الأرض، جمعتهم من كل الأمم، ثم انتخبتهم، فاستبقيت أشدهم وحشاً، وأكثرهم كرهاً لبني الإنسان، هؤلاء لم أحسب لهم حساباً أبداً، فمقابل جمال السلطان لدي جمال تركستان، ومقابل فرسان السلطان لدي فيّالو الهند وملتان، ومقابل مشاة السلطان لديّ جنود علمتها أن تنسى اسمها وأهلها وقبيلها وعشيرها ولا تعرف إلا اسم الكوركان. لا يا ابنتي لم أخف يوماً من جند السلطان، ولكنّ ما أخافني دوماً وعرف السلطان فنكلني بهم هم هؤلاء الذين جمعهم في بلاطه، فأفرغ ديار الإسلام منهم. ما أخافني دوماً كان هؤلاء الفقهاء مناجو الليل

ومراقي الأرض إلى السماء. ما أخافني دائماً كان هؤلاء المؤرخون أصدقاء الزمن وأنفاق اليوم إلى الغد، جمعهم من حوله، وهددني.. وإن لم يقلها بهم. قال: هؤلاء سيكونون من سيجعل أسمك وكل منجزك وسخة وفضيحة لن تزيد عما فعله كل وحوش العالم من قابيل حتى أتيلا وهلاوون. وأنا ما أريد هذا، فأنا لم أكن القاتل، بل كنت المطهّر، لم أكن مبيد البشر، بل كنت الساعي إلى تقليم الشجرة من غصنها اليابس سعياً وراء شباب جديد لدولة الإسلام. ولكن من يصدق، من يصدق وبلاط السلطان ما يفتأ يكتب إلى الملوك عن القاتل بلا عقل، والوحش انفلت قيده؟ و... أشكرك أن أرسلت إلي بكتب وفيات المدينة كلها، وبذا أعرف أولاً بأول من سقط من أعدائي، ومن بقي، أتعرفين.. سأجمعهم جميعاً، العلماء والفقهاء والمؤرخين، وسأنقلهم إلى عريني. لن أخيفهم، ولن أعذبهم، ولن أطلب إليهم أن يكتبوا عني تاريخاً مزوّراً لإرضائي، لا، فهذا غير مفيد لأني ما إن أموت حتى ترتفع يدي عنهم، فيمحوا كل ما كتبوا، ويضاعفوا من سوء الصورة التي سيتركونها للقادمين من بعدي.

لا. سأشتريهم، سأقدم لهم المتع التي يشتهون، سأجعلهم يحبونني ليكتبوا عني بحب، بعدالة، بإدراك، لنبل مقاصدي في تطهير هذا العالم من الفساد، من الضعف، من الجبن، ومن مساوئ الإنسان حين يبتعد عن مشعل المثل. أنا أعرف أنهم سيخافون في البدء حين أضمهم إلى قوافل القادمين إلى عريني، سيعتبر بعضهم الأمر عبودية، وسيعتبرها البعض التهجير الظالم، وسيعتبرها البعض الإذلال، ولكني سأعوضهم حين يصلون.

ثم وكأنما يهمس بسر لمعشوقة أضاف: هناك سرّ لن يعرفه

سواك، وأنا أعرف أنه لن يعرفه سواك لأنك ما إن تقرئي هذا الكتاب حتى تحرقيه، لأنه سيكون الخنجر المسلط عليك، ولا أظن إنساناً في هذا العالم يحب أن يرى الخنجر مسلطاً على رقبته، هه. سأقول السر، لا بأس.. أمرت ببناء حديقة سأسكنهم فيها، حديقة سيكون لهم فيها كل ما يحلمون ويشتهون، ولكن.. أتعرفين؟ ستكونين أول من يسكنها، فأنت كنت مفتاحي إلى تحقيق أهم حلم حلمت به منذ أن سموني بالجفتائي والحرامي، ورموني بسهم في صلبي جعلني أعرج إلى الأبد. إيه يا ابنتي اكتبي لي كل أحلامك، كلَّ شهواتك، ولا تخجلي، فكلها ستستجاب، وستجدينها في انتظارك في الجنة التي أعدُّها لمن يخدمني بإخلاص.

قال: تأخرت رسالتك الأخيرة، فقلقت، قلقت أكثر مما تتخيلين، أقلقني الاعتقاد أن رسالتي إلى السلطان مع كيس الحيرة، ربما كشف سرك. ولكن. الحمد لله، لم يكن التأخر إلا للانشغال في التحضير للحركة الأخيرة في لعبة الشطرنج الطويلة بيني وبين السلطان. أسعدتني رسالتك تقولين فيها إنك استكتبت قصيدة حب لم تكتب، ولحَّنتها لحناً لم يعرف من قبل، وستدخلين بها على السلطان وأنك قررت أخيراً أن تقولي له كما علمتك، وقبل أن يلفظ نفسه الأخير: (كش ملك).

قال: منذ وصلت رسالتك الأخيرة المختصرة (كش ملك) هذه الرسالة التي استخفَّتني، وما لحاشيتي عادة بخفَّتي، ولكن أعتقد أن للمرء الحق ببعض الخفة بين الحين والآخر، فحملتها إليهم وأقرأتها لهم، ولم يفهموها بالطبع، ولكنَّ تجهم وجوههم غير الفاهمة أعادني إلى معتزلي.. قال... ها أنذا أسمع أذان الصبح، ولم أنم بعد، لا ليست الفرحة بـ (كش ملك) فقط، لا. بل كنت أفكر

في المكافأة التي تستحقين.. إه.. الحمد لله، أعتقد أني وجدت الجائزة، ولكنَّها بحاجة إلى موافقتك. أتعرفين، منذ أيام كان في حضرتي راهب روسي كان ممّن أسروه من مدينة كبيرة لهم تدعى كييف، حين هدأ الراهب، وأكل، واطمأنَّ إلى أني لا آكل لحم الآدميين حدثني عن النصرانية، ثم عن الروس قبل النصرانية، فقال إنَّهم كانوا يسمحون للمرأة بالموت حرقاً مع زوجها كما يفعل الهنود. ولما لاحظ أنَّ حديثه لم يثر انتباهي حدثني عن المرأة نفسها وقبل أن تحرق، وكيف كانوا يستجيبون لكل طلباتها، فكلُّ طعام تطلب يكون لها، وكل شراب تختار يأتونها به، وكلّ الرجال الذين اشتهتهم، أو حلمت بهم يقدمون إليها، فإذا ما أشبعت كلَّ شهواتها أحرقوها لتلحق بزوجها.. أنا لا أقول هذا أدعوك إلى الحريق أو الانتحار لا. فأنت من قدم إليَّ كل هذا الفرح بقولة _ كش ملك _ تستحقين الحياة والبهجة والسعادة، ولكني اعرف أن المهراجا قد وصمك بالموت، قد وصمك بالأفعى، وجعل دمك سماً أرضعوه لك منذ كنت الرضيعة فاعتاد جسمك السم، وصار على كل من يقاربك أن يموت بالسم. أنا أعرف أنك تأبَّيت على الكثيرين شفقة عليهم ورحمة بهم، ولكن. أنت شابة وتستحقين السعادة، لذلك اسمعي ما وصلت إليه الليلة وهم يؤذنون للصبح.. لقد قررت إسعادك كما أسعد الروس الأرملة المخلصة، ولكن دون أن تنتهي نهايتها ودون أن يكون الحريق من نصيبك.

اسمعي، في حديقة الفرح التي سأهبها كلها لك، وقبل أن يحضر العلماء والمؤرخون والفقهاء ستجدين شباناً كثيرين، لا تخافي عليهم، فكلهم محكوم بالموت، فإن لم يمت بين ذراعيك، مات بين ذراعي الجلاد. ستجدين، فيهم من يشبه الروسي، وفيهم من يشبه

الصيني، وفيهم من يشبه العربي والفرنجي والزنجي، ولكنهم كلهم ابن راجا أومهراجا. هه. ما رأيك بهذه الجائزة؟.. اسعدي يا (كش ملكي) ولا تترددي.

بصعوبة كان يتسلق درجات المئذنة، كان يتسلقها تسلق شيخ في الثمانين معلناً أن الدرجة السابعة عشرة لن تخدعه هذه المرة، ولم.. تخدعه فعلاً هذه المرة، فقد كانت حواسه كلها مركزة على وضع خطواته موضعها الصحيح، كان يتسلق مثقلاً بحزن لم يعرفه من قبل، لم يكن حزن الفقير وهو الفقير، ولم يكن حزن الخائب وهو الخائب منذ عودته من مدينة الحلم، ولم يكن حزن من اكتشف أنَّ حلمه في الخروج من عالم التفاهة بوضع كتاب من خمسين حديثاً جيدة الرواية والأسانيد لن يخرجه من عالم التفاهة. فلكي تخرج منه عليك أن تضيف شيئاً إلى المكتبات التي رآها بعرض الأفق بأهمية البويطيقا، أو البيان والتبيين، أو.. صحيح البخاري، ولكن. كيف، وكل ما يعرفه عناوين، صحيح أنه كان يبهر العوام وأنصاف العوام بها، ولكنه حين رأى نفسه في مدينة الكتاب عرف كم أضاع من عمره في الهراء.

تسلق درجات المئذنة، وكان من القلائل الذين لم تعجبه هذه الاستعراضات اليومية، ورغم أنَّ التجار والباعة لم ينزعجوا كثيراً من تعديات الجند لدى عودتهم من استعراضاتهم، لم ينزعجوا متسامحين، بل ربما ابتهج البعض رغم السرقات الصغيرة، يسرقها الجند حيلة أو غصباً، وكانوا يتمتمون فيما بينهم: حماة المدينة. وكان آخرون يقولون: شبان طائشون، وربما جائعون. كانوا يرون أطباق الهريسة، وحلل الحمّص تستباح من جنود وقحين، فيتمتمون

يهدئون أنفسهم: مساكين، سيدافعون عن المدينة حين يجيء الجفتائي، وما يدريك، ربما تكون وجبتهم الأخيرة.

لم تعجبه هذه الاستعراضات، فقد كان فيها شيء مثير للتشاؤم، كان يحسُّ بالمبالغة فيها، وقد سأله لطفو الذي أقلع عن الضرب على الطنبور بعد أن عاد ليجد أمه قد ماتت، وفرتتى قد هربت بعد أن سممت السلطان، وأصابعه وقد أصيبت بالخرس لا تستجيب لطنبور، ولا يستجيب لها: ولكن. من المقصود إرهابه بهذه الاستعراضات؟ وصمت، فقد أرعبته الفكرة حتى عن إعلانها أمام صديق عمره الشيخ أحمد، ولكنَّ الشيخ فهمها ولم يعلنها، فقد كان لديه الإحساس نفسه: أتراهم هم المقصودون بهذه الاستعراضات إذن؟ ولكن الجفتائي على الطريق، فالرسل والجواسيس والتجار والعابرون والخائفون على سلام السلطنة أسرعوا بأنفسهم، أو برسائلهم إلى المدينة، يحدثونهم عن الجفتائي وجموعه اللانهائية. وقال أحدهم: أعوذ بالله، كأنه جاء بأهل الأرض جميعاً لغزو السلطنة.

تسلق الدرجات يلهث: الجامع في حاجة إلى زيت للقناديل - وتتهد - والحصائر بليت في غيابك يا شيخ أحمد، يجب العمل على تجديدها - تسلق الدرجات - الأمير آخور مطمئن، هكذا نقل إليهم برهان الدين. قال: الأمير آخور يقول إن لدينا الجيش الأفضل - وأكمل برهان الدين وإن لم يكن صوته مبتهجاً والسلاح دار يقول: إن لدينا أفضل السلاح المخزن - وتنهد الشيخ أحمد - والمنادي يعلن أن النصر لنا، وأنَّا طالما هزمنا هؤلاء الكلاب الجفتائيين، ثم إن اسم سلطاننا فرج، واسمه كما يقول المنجمون يحمل الفرج والفرح.

تسلق الدرجات يتنهد: نوري صاحب الحمام لم يعد يقدم إلى

الأخيَّة، ولم يعد يحمل إلينا الأخبار الجديدة، من يتآمر على من، ومن تحالف مع من، ومن يخامر مع من، ومن يخفي المفاجأة الحقيقية حين يقفز على العرش مطيحاً بالسلطان الفلام فرج معيداً الأمر إلى نصابه.

نظر إلى أعلى المئذنة، ما يزال الفجر بعيداً، والسماء تتبدى من الكوى صغيرة سوداء. قال: هؤلاء المماليك الثلاثة المجانين كيف خدعونا بادعائهم العثور على مدينة لا يجوع، ولا يظمأ، ولا يأرق ساكنها؟ ثم تراجع أم لعلهم وجدوها، ولم أجدها. تنهد يتسلق الدرجات يتحسسها بقدمه بهدوء: أبو مصطفى لم يبدأ الأذان بعد. يبدو أني استيقظت مبكراً هذه المرة!. هذه المرة؟ وهل أستطيع أن أزعم أني أنام كما ينام الناس منذ تلك الرحلة الملعونة. الملعونة؟ تساءل:الملعونة؟ صحيح أني عدت الخائب. ولكني عدت وقد تغير العالم من حولي، الملعونة؟

هه. لقد عدت لأجد العمل الكئيب الممل في انتظاري، هه. لم ينتزعه مني أحد في غيابي، ولم يتقدم أحد لشغله، ومن يبحث عن عمل مؤذن، وخادم جامع، وكانس جامع، ومشعل قناديل جامع، ومنظف بحرة جامع، وبأجر لا يتجاوز نصف أجر طيان!.

تسلق الدرج بهدوء: لقد قبضوا على برهان ثانية، رغم أنهم أطلقوا سراح كل من مضى يبحث عن مدينة المماليك الهاربة. قالوا إنه عاد للاتصال برجال الأخيَّات، وأنه ينشر الذعر في المدينة بالحديث عن هذا الجغتائي الذي لا يخيف صغار المماليك في بداية تدريبهم وحتى قبل أن تطرَّ شواربهم. قالوا: إنه صار يحدث رجال الأخيات السابقين عن كارثة بغداد وأصفهان وسيواس وماردين. قالوا: إنه يخون الأمانة ويتعاون مع الجغتائي في إرهاب الناس وإذعارهم، ولكنهم أطلقوا

سراحه بعد يومين، فقد تدخّل واحد من أعوان صاحب الخبر واسمه حميد، ووعد بالنيابة عنه أن يدفع للسلطان ألف دينار كل يوم تعيشه المدينة قبل قدوم الجفتائي. والأمير آخور يأمل أن يستنزف بهذا الشرط أموال برهان الدين التي يقال إنها لا تستنزف.

تسلق الدرج بهدوء: ما الذي عنوه بقولهم: فيه كسل، وفيه جبن، وفيه ضعف في الروح... أعوذ بالله أنا جوهر الشجاعة والنشاط والقوة لو، لو أحصل على فرصتي فقط، و.. تنهد يصعد الدرجة التالية: .... لو.. لو.. فرصة فقط، ولكن. ما الذي عنوه بقولهم" لا بد من محرقة كبيرة لتطهير هذا الصّغَار.. أين الصّغَار هه. أين الصّغَار؟! لأن اسمي أحمد بن محمد بن عبد الله. إن كان الأمر ضرورياً، فسأغيره. ما الغريب في هذا.. سأغيره. هه، ترى لو غيرته، هل سأتغير؟

ولكن.. ما الذي عنوه بقولهم: النار التي طهرت هومير الأعمى، ومن هذا الهومير الأعمى الذي طهره حريق مدينة؟

وصل إلى صحن المئذنة، نظر إلى النجوم: لقد بكرت يا أحمد بن محمد بن عبد الله.. ما يزال أمامك ساعة حتى يأزف الفجر، وتنهد في تعب: أسأنزل هذا الدرج، ثم أصعد ثانية في ساعة!!

اتكأ على سور المئذنة يتأمل الظلام: بالأمس أعادوا أربعة مماليك كانوا قد تسللوا من المدينة على الحبال. اعتقدوا في البدء أنهم كانوا جواسيس للجفتائي، وانتفضت المدينة مرعوبة: جواسيس من أهل المدينة يعملون للجفتائي؟.. ولكنهم أقرّوا بعد الضرب والتعذيب أنهم كانوا قد اشتاقوا إلى مصر، وأنّ الأمر قد طال بهم بعيداً عن معشوقاتهم، فقرروا زيارة صديقاتهم وخشداشيتهم قبل وصول الجفتائي، فربما لن يروهم ثانية إن وصل.. بردت الفتنة،

ولكن الخوف والذعر الذي اصاب الناس كشف أي خوف يعيشون وإن لم يظهروا.

إيه يا أحمد بن محمد بن عبد الله الطامح إلى الخروج من عالم التفاهة، لقد قالوا إن فيك الضعف، وفيك الجبن، وفيك الكسل. وهذا ما جعلك تلتصق بهذه المدينة الضائعة عن درب التاريخ، وتلتصق بهذه المهنة التي لا تجيع ولا تشبع، بل تبقيك على حد الكفاف في كل شيء وحتى في طموحك إلى أن تصبح شيئاً اكبر من خادم جامع.

منذ ليلتين حدثه لطفو عن رغبته في الانضمام إلى القلندرية، ولما لم يعرف الشيخ أحمد من هم القلندرية لم يأبه لحديثه، وقال: لماذا تريد ترك أخية الشيخ برهان، فحدّثه عن سأمه من مراقبة رجال الوالي، ورجال الشحنة، ورجال صاحب الخبر له ليل نهار. وكانت المفاجأة اكتشاف الشيخ أحمد أنه مراقب أيضاً، وأنهم كلهم مراقبون، وأنهم لن يقنعوا بأنهم مسالمون ولا ينتوون شراً للسلطان إلا إن انضموا إلى القلندرية. وأصرّ الشيخ أحمد على عدم الفهم. فما الذي يعنيه بالقلندرية. ولما حدثه لطفو عن المتصوفة، يقلعون عيناً، ويجدعون أنفاً، وينتفون سبالاً حتى يذلوا الجسد، ويطلقوا الروح من إسارها أصيب الشيخ أحمد بالصدمة، واصر على اصطحابه إلى برهان الذي استبقاه لديه تلك الليلة. وفي اليوم التالي حدثه برهان عن الحال التي صارت عليها المدينة، فالقلندرية الذين كانوا يعدون على أصابع يدي بضعة رجال قبل موت السلطان، ها هم يعدون الآن بالمئات، وتساءل: ما الذي أصاب هذه المدينة، فجعلها تتصرف عن متع السيارين والنبيذ الديراني والسلطات تحمل عشرين اسماً بدءاً من التبولة والفتوش والبابا غنوج، وانتهاء بالكبب والكباب، إلى

قلع العيون وجدع الأنوف، ونتف السبال، والاصطفاف وراء أهتم أعور أجدع يقفز عن الأرض حتى تظنه سيطير، ثم ينحطُّ حتى تظنه سيلتصق بالأرض وهو يهتف: هوه هوه، هوه..

تتهد يراقب قنديلاً في آخر المدينة يتحرك ببطء، وفجأة أشرقت الفكرة: لقد تغير كل شيء منذ وصول رسالة الجفتائي اللعينة، تلك التي دبت الرعب والذعر والحيرة في المدينة، الرسالة التي أربكت الجميع، السلطان والمسلوطين في وقت واحد، رؤوس ثمار، وثمار رؤوس، ولكن... ما الذي كان الجفتائي يريد من هذه الرسالة، الحيرة؟ الذعر؟ أم صرف النظر عن الغاية الأساسية، فرتتي وتسميم السلطان.. أووف. هل كان هذا هو الهدف منذ البداية؟

عند هذه الخاطرة فقط لمحها، أضواء وأضواء تتحرك عند نهاية الأفق.. أحدَّ النظر، ولكن الظلام والبعد.. أهي قافلة وصلت مبكرة؟ ولكن أي القوافل تحمل كلَّ هذه المشاعل؟ أهم مماليك آخرون يتسللون شوقاً إلى معشوقاتهم؟ أووف يا أحمد بن محمد بن عبد الله أي مماليك متسللين يحملون كل هذه المشاعل؟ وفجأة صدمته الفكرة... إنه الجفتائي.. قالها متمهلاً.. لقد وصل أخيراً.

وللمرة الأولى يطلق الشيخ أحمد أذانه قبل الأوان. يطلقه ليس الله أكبر، الله أكبر، وإنما أفيقوا أيها الناس، أفق أيها السلطان، أفق أيها السلاح دار، أفق أيها الأمير آخور، أفيقوا أيها القلندرية.. لقد وصل الجفتائي يحمل معه الموت.

ايييه...... كانت طويلة حارقة محروقة.. أييه، وأخذ يتأمل ورق الشجر اليابس المزويع أكواماً في الباحة، خيام العنكبوت المتدلية والمعلقة والممتدة من شجرة الأترجّ، من شجرة المسك، من أغصان الدالية اليابسة، رأى نقباً في الجدار الطيني سقط عنه البياض الحواري، وانكشف بطن الطين الأحمر المخلوط بالتبن، ورأى مزقة قطن متدلية، فقال: هنت يا نوري. هنت حتى صارت العصافير تعشش في حيطانك، والعناكب تدافع شجر بيتك وأزهارك.

فتح باب الغرفة الكبيرة، فصعقه ما رأى، كانت الغرفة وكأنها كانت لتوها ساحة حرب، فالطنافس ممزقة والسجاد مثقّب والستائر تحولت إلى خيطان متدلية. أزاح بقايا الستائر، فهاجم النور القوي المكان، ورأى البعر الكثير في كل مكان، وشم روائح عفونة المكان المغلق والبعر المتعفن، وحين حرك طنفسة بقدمه رآها تركض حائرة في الغرفة، فلقد هوجم هدوؤها وسكونها، رآها تعدو وتصيء، وكأنها اهتدت أخيراً إلى فتحة وكرها، وإلى باب الغرفة المفتوح، فتسربت واختفت.

قالوا: لا دواء للفئران إلا الهر، فقال: ائتوني بهر، وجاؤوه بهرٍ ما إن رأى الوليمة المفترضة حتى انقض، وتحول البيت إلى ساحة معركة مرة أخرى، ولكن مع الدماء الكثيرة، الدماء لوثت الطنافس والجدران والسجاد، ولكن.. الفئران أخلت الساحة، قال: أحب الهررة.

في اليوم التالي عاد إلى عادته القديمة، وقبل أن يكون صاحب حمام السلطان، التسكع في الحارات والأسواق. وتسكع حتى وصل إلى سوق الحمام، ورآها، كانت جميلة في أقفاصها، حمائم بغدادية ورومية وتركية وهندية ومصرية، حمائم بيض وحمر وبلق، حمائم بمناقير منمنمة لا تكاد ترى، وحمائم بمناقير عملاقة، حمائم بأنوف أخفاها الريش، وأنوف متدرنة متضخمة حتى لتكاد تغطي العينين. شغله المنظر وأمتعه. كان يتنقل بين الدكاكين والأقفاص، وكان الباعة يرحبون به، فما زالت ذكرى نوري صاحب حمام السلطان، مشتري أحسن الحمام، ومدرب أحسن الحمام، والقادر على تحويل حتى الحمام البلدي إلى زاجل يسافر مئات الفراسخ، ثم يعود حاملاً رسائل الملوك، ورسائل العشاق، ورسائل القوافل الضائعة في الصحارى البعيدة.

سمع أذان العصر، ورأى الباعة والدكانيين ينسحبون إلى الجامع لصلاة العصر، ورأى تحرُّج صاحب الدكان الذي يقلب حمائمه، فخجل وانسحب.

مضى إلى البيت، فأدهشه الشعور الجديد يعيشه، كانت متعة صغيرة تداعب القلب، متعة كان قد نسيها منذ عقود، منذ أن ذبح بيده جهد عشر سنين من عمره حين استولد الحمام الذي لم تعرفه الأرض من قبل، الحمام الزنا كما سماه السلطان والذي استولده من زواج الرومي بالهندي فأنتج الحمامة المعجزة، قطعة البياض الملتوية إلى الوراء تأكل مما بين ريش الذيل، مطرزة الرقبة والصدر بالريش المقلوب. كان قد نسي هذه المتعة منذ أن نتف ريش أول وآخر زوج صنعته يدا نوري، وقدمه في طبق للسلطان، فأكل، وعفا. ثم استعمله صاحباً للحمام فأقنع نفسه بأنه المحظوظ، وأقنعه الأصدقاء

بأنه المحظوظ، فلقد صار صاحب حمام السلطان.

كانت متعة صغيرة تداعب القلب، فملمس تلك الحمائم الدافئة وتخبطها بين الأصابع تحاول الإفلات والطيران، ملمس ما تحت الرقبة الطري القاسي، وأنت تثبت الرأس، وتجبر العينين على السكون لمعرفة الذكر من الأنثى من حركة الأهداب، نشر الأجنحة وعدّ القوادم لمعرفة قدرة الطير على الطيران الطويل، النفخ على أصول القوادم لمعرفة يباسها من طراوتها الدموية.

خبرات وخبرات استعادها وأحبها وهو يقلب ويقلب في تلك الطيور، وهو يرى وإن لم يرفع رأسه ليرى نظرات الرجاء والأمل في عيون الباعة، فأن يرضى صاحب حمام السلطان والذي رغم أنه لم يعد صاحب حمام السلطان منذ غادر بحثاً عن المدينة الهارية، ولكنه الخبير الأول والمعلم الأول في نقد الحمام، وقراءة الحمام، ومعرفة أصيله من زائفه.

قلب نظره في الباحة التي خلت حتى من بعر الفئران، ولكن نتفاً من ورق الشجر مالبث أن انتشر على البلاط الرخامي الأبيض، تنهد: هه. حكاية لن تنتهي، يأتون فينظفون الباحة والبحرة، وينفضون ورق الشجر اليابس عن الشجر، ثم.. ما إن تدير ظهرك حتى ييبس ورق جيد، ويسقط ورق جديد، و.. رأى الأقفاص القديمة، الأقفاص المهجورة منذ زمن طويل. كان معتاداً على ألا يراها وهو يراها، فلقد شغله منصب صاحب الحمام عن الحمام، وأكرهه منظر زوج الحمام نتفه بأصابعه ليقدمه إلى السلطان محشواً بالفريكة والصنوبر والفستق، أكرهه أعشاش الحمام، والتجارب الطويلة على الحمام ولكن.. ها هو الآن وحيد في بيت أكل الهر فئرانه، وكنس الخادم ورق شجره، وأخلى السلطان أقفاصه من كل حمام.

اقتعد كرسياً قريباً، وأسند قدميه إلى حافة البحرة تتدفق بالماء يبدأ أخضر، أخضرته الطحالب والعشب المائي لم ينظّف، ثم يتحول أسود ينزلق على حافة البحرة الخارجية سوّدها يباس الطحالب لسنين وسنين، حتى إذا ما وصل إلى الساقية الصغيرة تحيط بالبحرة، وتؤدي إلى البالوعة تحول أبيض مبقبقاً بفقاعات صغيرة ما تلبث البالوعة أن تشرقها كما تشرق مزق ورق الشجر المنساقة مع ساقية البالوعة.

تنهد يرفع رأسه، فرأى الأقفاص المعلقة بعيداً وعالياً عن باحة البيت، فقال وإن لم يقل: ولم تظل الخالية.. دعنا نسكنها سكاناً جدداً. وما إن كان الصباح التالي حتى كان في سوق الحمام يتقبل التحيات والترحيبات، فيطلب إليهم أن يأتوه بالحمام ينتقي منه، وانتقى، وعاد بالحمام إلى البيت، وأسكنه الأقفاص، أطعمه وسمع هديله وكنس ساقط ريشه، ولكنَّ مكاناً في القلب ظلَّ فارغاً لم يمتلئ، لا. ليست هذه هي الحمائم التي يريدها لبيته، عاد في اليوم التالي، واشترى أنواعاً أخرى أسكنها الصناديق، ولكنَّ المكان الخالي في القلب ظل خالياً.

نثر لها الحب، ملأ الطست بالماء تشرب وتستحم، فتطاردت وتحممت وتغازلت، وتسافدت، ولكنَّ المكان الخالي في القلب لم يمتلئ امتلاءه قبل أن يجره السلطان إلى شبكته، وفجأة هطلت ثانية الفكرة، لم لا أكرر التجربة فأزوجٍ الرومي من الهندية، واستعيد الحمامة المعجزة التي لم ينجزها مربٍ من قبل.

حاصر الحمام يريد إعادته إلى أقفاصه، ولكنه تقافز بأجنحته القصيرة، فأمسك ببعضها، وهرب الكثير، وأدرك أنه لن يستطيع إعادتها إلى الأقفاص قبل أن يغلق السوق دكاكينه، نظر إلى حيث

القط، فرآه يتثاءب ينظر إلى السماء، فقال: إنه شبعان، ولا حاجة به إلى مزيد من فضلات اللحم يأتيه بها من دكان اللحام، قال: إنه شبعان وجيد التربية ولن يقرب الحمام، ثم.. المشوار قصير، ربع ساعة أكون فيها في السوق أشتري زوجي الحمام الرومي والهندي و.. أعود..

أغلق الباب الخارجي، مشى إلى السوق يتعجل، فلا مكاريون على الطريق، ولا فرس أو حمار لديه منذ تركها في الإسطبل السلطاني، ومضى يبحث عن المدينة الهاربة.

كان قد اعتاد المشي رغم نظرات الاستغراب والدهشة بل الاستنكار في عيون أهل الحي، ولقد سمع أحدهم يتمتم: وإن شكرتم لأزيدنكم، فتصامم، ثم في مرة تالية سمع آخر يقول لجاره ويريد سماعه: إن الله يحبُّ أن يرى آثار نعمته على عباده.

هو يعرف أنه يستطيع امتلاك الخيول والعربات والحمير الأحسائية الفارهة، ولكن شيئاً فيه تغير منذ عاد، شيئاً يشده إلى المتسكع القديم. لماذا؟ لا يعرف، أهو لاستحلاب رحيق المدينة التي طردته منها، أم لمعاقبة النفس واستدرار الشفقة عليها، فقد طرد وكان يتمنى ألا يطرد.

مشى وهو يعرف أنَّ الشفاه تتمصمص حسرة على هذا الذي كان يرتع في حمى السلطان، ثم اختار لسوء حظه أن يتخلى عن جنة السلطان، ويسعى وراء حلم لم يعرف عن ابن امرأة أنه وصل إليه، وها هو يعود خاوي الحلم خالي الجيب، ولم لا، فلو كان ممتلئها لركب حماراً أحسائياً أو بغلاً فارهاً، ويرطع في الحارات، ولكنه يمشي بحذاء أغبر وعينين ساهمتين يضرب في الحارات لا يعرف ولا يعرفون ما يريد.

مشى. قال: سألغي سنوات السلطان الميت من عمري، سأبدأ من

جديد، سأستعيد سنوات الإنجاز، سأستعيد أفراخ الحمام ضعيفة اعوجاج العنق واستدارة الذيل، قليلة كشكشة ريش الرقبة، سأستعيدها من جديد، وأصالبها، وأعيد تصالبها حتى أصل. وتتهد - إن امتد بي العمر - إلى الحمامة الكاملة، لن أكتفي بزوج واحد أنغلق عليه، بل سأستكثره، وأنشره في المدينة ليعرف باسمي. قال: كان خطأً الاقتصار على زوج وحيد ولو بلغ الكمال، فلقد استطاع السلطان أكله، فألغى جهد السنين، لا سأستكثره وأنشره في المدينة.

كان يعرف أين يجدها، تلك الحمائم التي كان يريدها، فلقد كان قد سبر السوق أكثر من مرة لذا لم يطل به السوم ولا الانتقاء، فاشترى الزوجين الرومي والهندي، واتجه بهما إلى البيت.

لم يكترث لتخبطهما في الكيس، كان يهمس: اهدئي، فلديك الآن الباحة الكبيرة والأقفاص المريحة والبحرة تستحمين في ساقيتها، ولديك الحَبُّ الكثير، ولكن عليك أن تستجيبي لما هو مطلوب منك. أريد الحمامة الكاملة منكما. لن أضيع الوقت في التجارب الفاشلة كالمرة الماضية، لا. ما تزال ذاكرتي نضرة، وأعرف متى اصالب وكيف أصالب، ولم أصالب. يجب أن ننسى ما فعل السلطان، ونبدأ من جديد.

وصل إلى الحارة، حيًّا من رآهم يحدقون في العينين مباشرة، وتجاهل المنشغلين في عملهم.

فتح الباب وتوقف يريد سماع الهديل، وسماع الرفيف، وسماع الاصطفاق. قال: لم يبق لنا من بهجة إلا بهجة الفرجة على هذه الحمائم، ولكنه لم يسمع هديلاً، ولم يسمع رفيفاً، ولم يسمع اصطفاقاً. قال: لعلها طارت إلى أقفاصها، أو إلى.. ثم تراجع: ولكن

أجنحتها قصيرة، وأنا من قصَّرتها حتى لا تطير.

اندفع إلى الباحة، وكانت الصدمة الثانية بعد نتف زوج الحمام، ثم تقديمه إلى السلطان في طبق من ذهب. كانت الباحة ساحة مذبحة حقيقة، دماء في كل مكان، ورياش في كل مكان، رؤوس لم تؤكل، وأمعاء ممتدة عبر الباحة. لم يستطع أن يصرخ، لم يستطع أن يحزن، لم يستطع أن يبكي، فكل ما فعل هو أنه انزلق مسنداً ظهره إلى الجدار، وارتخى على الأرض يتأمل آثار المذبحة. عرف خصمه وإن لم يره، عرف أنه القط لم يستطع احتمال مشهد هذه الوليمة تمتد أمامه ولا يقربها، أقسم على قتله. وضع الحمائم الجديدة في قفص عال، جاء بمن نظف الباحة من آثار المذبحة، وسعى إلى السوق، فجاء بفخ ثعالب وضع فيه طعماً من لحم، و.. قتل القط.

لكن ما فجعه هو أن غيظه لم يبرد، فالجريمة التي ارتكبها القط أكبر من أن يكون ثمنها دمه فقط، ولكن. ما الذي يستطيع فعله، فالقاتل قتل، والأمر انتهى، والعوض على الله.

قال: لن أطلق هذه الحمائم من بعد، سأجعلها تتوالد في الأقفاص المعلقة.

في اليوم التالي لمقتل القط مباشرة رأى الفأرة الأولى، وفي اليوم الذي تلاه رآها تعود، فقد عرفت أن المكان آمن، كانت فئراناً كثيرة. كيف نبتت؟ من أين نبعت؟ لا يعرف، ولكن المزق تكاثرت، والخبز تلوث، والبعر انتشر. وكان لا بد من هر. الكل قالوا: لا بد من هر، ولكن كيف يأتي بالهر ولديه هذه الحمائم الأمل. كان لا بد من حل، وأخيراً حدثه شاب رآه في سوق الحمام قال: لكل مشكل حل، فقال نوري: وما الحل؟

قال الشاب متردداً: ولكن الحلَّ غال بعض الشيء. ـ كيف؟. قال: في باب الأبواب يدربون القطط تدريباً يجعلها تأكل الفئران ولا تقرب الحمام! فصرخ نوري مذهولاً: كيف؟... رفع الشاب كتفيه، ونشر كفيه في حيرة: كيف؟ لا أعرف، ولكنهم حدثوني أنه الحل.

فكر نوري قليلاً، وقال: لا بأس.. إن كان هذا هو الحل، فلا بأس، ولكن كيف سأعرف أنه القط المدرب، قال: سترى بعينيك.

في اليوم التالي حملوا إلى بيت نوري قفصاً كبيراً، وكان في القفص هرٌّ ضخم يشبه الفهد وحمامة، وكانا متوافقين، فلا الهر يلتفت إلى الحمامة، ولا الحمامة تكترث بالهر، بل كانت تأكل حبها في هدوء.

أعجبه المشهد، اشترى الهرَّ بالثمن الغالي، أطلقه في البيت، حمله إلى غرفة المطبخ حيث الفئران، وما إن شمَّ رائحة الفأر الأولى حتى شخر، فهربت، حمله ثانية إلى حيث الحمام، فلم يكترث بالحمام، قال: الحمد لله، الآن أستطيع الاطمئنان على حمائمي.

أنزل الذكر الرومي وأنثاه الهندية من قفصهما، أطلقهما في الباحة تغازلا، استحما، أكلا، تسافدا، واكتملت سعادة نوري، جمعهما ثانية وأعادهما إلى القفص. أنزل القفص الثاني، أطلق الذكر الهندي وأنثاه الرومية، فقاما بطقوسهما كاملة، وكان القط يلعق الماء من ساقية البحرة في وداعة، فأسعده المنظر، قال: الآن. لا مشاكل. ها هو القط يخلِّص البيت من الفئران.. وحين رأى القط يشخر في تهديد التفت ليرى قطاً متشرداً يمر بالبيت، فيهرب القط الأفاق، قال: الحمد لله، وها هو القط يحرس الحمائم من أعدائها.

في الليل ترك القط يسرح في البيت، ونام مطمئناً، فالحمائم تحرسها مخالب أمينة.

في الصباح التالي كانت الكارثة، فنوري الذي اطمأن للقط يشخر في وجه القطط الغريبة، فيهربها، كان أحمر الفم والمخالب، أما الأقفاص فقد كسرت، وأما الحمائم الرومية والهندية فقد مزقت، وأما القط فكان يقف فوق قفصها في شموخ فهد، وحين اقترب نوري منه شخر، وكشر عن أنيابه، فارتاع وتركه يهرب إلى بيت الجيران.

لم ينطق بكلمة، بل ترك الباحة على حالها، ومضى إلى السوق يبحث عن الشاب الذي باعه القط في قفص يؤاكل حمامة ويشاربها، ويتركها تنقر رأسه مداعبة، فما الذي حوله إلى الوحش.

في السوق كان الشاب قد اختفى، ورآه شيخ السوق في حيرته، فدعاه ليسمع قصته ويهز رأسه في تعاطف، وأخيراً قال: وأنت كنت من ضحاياه أيضاً، وأنت من أنت؟ فصرخ نوري في غضب: ولكن كيف؟ كان القط في القفص في وداعة يمامة، فما الذي حوله إلى هذا الوحش؟

ضحك شيخ السوق وهو يصبُّ له شراب التوت بالثلج، قال: أعجب كيف استطاعوا خديعتك وأنت من أنت.

قال نوري: وكانت خدعة؟

هز شيخ السوق رأسه في تسليم: بالطبع، ولكنها الخدعة يخدعون بها الهواة والسذّج، فكيف نجحت معك.

تنهد نوري مستسلماً، ثم قال بهدوء: حدثني. ما الخدعة؟

قال شيخ السوق: يأتون عادة بقط من قطط الشوارع لا قيمة له، ثم يضعونه فيما يشبه البرميل الذي يدور حول نفسه.

تنهد نوري يحثه: هه.

أكمل شيخ السوق: ثم يأخذون في إدارة ولف البرميل لساعات

طويلة يخرج القط بعدها دائخاً سكران لو وضعته في فم ضبع لما اكترث، وعندئذ يضعونه مع حمامة في قفص، ويبيعونه لـ.. بعض الخبراء!.. قالها مبتسماً.

قهقه نوري، قهقه قهقهة لم يقهقهها منذ سنين، فكيف نجحت مثل هذه الخدعة معه وهو سيد الحمائميين، وصاحب حمام السلطان لسنين.

قال الشيخ يواسيه مازحاً: لا يقع إلا الشاطر.. ثم عرض مساعدته: أتريد أن ابحث عن الفاعل لاستعادة مالك!. فأشاح نوري بكفه ومضى، فليس المال بغيته.

عاد إلى البيت ليفاجأ بالصراخ والعويل في الحارة، فالقط الذي تركه يهرب من بيته تحوَّل إلى شيطان مَريدٍ انقض على حمائم الجيران وعلى أطفالهم ودجاجتهم.

أحنى رأسه في هزيمة، ومضى يبحث عن أصدقاء لم يرهم منذ عاد وعادوا من بحثهم عن المدينة.. الطاردة.

وصل إلى الشارع الكبير. رأى العُرضِيَّ السلطاني، الفرسان الباذخة بذهبها ورياشها، الرماة بأثوابهم الزاهية وأقواسهم الملونة، وجعبهم السود، رأى البند قدارية، ورأى الجمالين، ورأى المجانيقيين، وكان الناس يهتفون ويهللون.

مضى إلى البيت لم ينظف من آثار المذبحة، اتجه إلى فراشه، وغط في نوع عميق لم ينمه منذ أمد طويل.

مع الفجر استيقظ على صوت الشيخ أحمد يصرخ بديلاً عن الأذان: أفيقوا أيها الناس، أفق أيها السلطان. أفق أيها السلاح دار، أفق أيها الأمير آخور. أفيقوا أيها القلندرية. لقد وصل الجغتائي ووصل معه الموت.

أنصت في انجذاب، وفجأة هبط عليه الفهم كبرق، وهبط عليه

السؤال الفهم: هل تفيق قطط المدينة أخيراً من دوارها الطويل.

ثم قال: لا بد من بعض الكوارث للحصول على الإجابات.

وأخيراً هزَّ رأسه ثانية يستعد للخروج من البيت. وتنهد: هل تفيق قطط المدينة... من دوارها الطويل.

كان في مزاج المزاح والمعابثة، ولم لا يكون، وها المدينة الحلم تنتظره ليضمها إلى المدن التي ستحمل اسمه، رأى الجيش العظيم يخرج من باب المدينة بفرسانه الثقيلة ورماحهم القنطارية بطول عشرة أذرع والثقيلة كقنطار، رأى الفرسان المدرعين بالحديد السابغ كقلعة فابتسم، وسأل مستشاره عنهم، فقال: هؤلاء من هزموا الفرنجة الصليبيين، ثم أخذوا عن المهزومين هذا الشكل من التسليح يخيفون به أعدائهم، قال: سنراهم في الحرب. ولما خرج الفرسان الخفيفون بدروعهم الزردية وسيوفهم الهلالية يستعرضون مهارتهم بالفروسية، عبس قليلاً، ولكنه حين رأى الرجال في القنابيز المخططة يركبون الجمال، فسأل عنهم، وعرف أنهم العربان هزَّ رأسه في فهم.

كان يتأمل الجيوش تخرج، يرى رماة المجانيق، ومجانيقهم المطلية بالأحمر والذهبي، ثم رأى الجرخيين وأسلحتهم ترمي السهام رشاً، قال لمن حوله: من أجل هؤلاء جئنا لجنودنا بدروع من درق السلاحف، ثم خرج القواسون المدربون على إصابة الدرهم في السماء، وأخيراً رأى أحد الفرسان ينفرد، ويبدأ التحدي داعياً للمبارزة، فابتسم، وقال: كأني أرى شبح السلطان. ثم أشار بكفه، فاندفع أحد ضباطه، وأنحنى يتلقى الأمر، قال: عابثهم كما عابثنا الهنود، فنطرد شبح السلطان.

وبدلاً من قبول التحدي ومهاجمة الفرسان هجمت جمال

تركستان تحمل بين سناميها جمّاليها على ميمنة السلطان، فأمر الأتابك الجمال العربية والجمّالين بصدها، ولم يحتمل الأمر إلا مناوشة صغيرة سقط فيها جملان تركيان وجمالاهما حتى هربت جمال تركستان مذعورة، وانطلقت الزغاريد والدبادب والطبول تحيي الجمّالين، فها هي بشائر النصر تعلو، وصرخ السلطان الصغير: ليتك موجود الآن يا أبي لترى النصر على عدوك الجغتائي.

لم يحتمل الجمّالون رؤية الجمال التركية تهرب، فانطلقوا يطاردونها، ولم تكن الجمال التركية سريعة، فأرجلها القصيرة وجسمها الممتلئ يعطيها مزايا كثيرة ليس بينها السرعة، وهكذا هجم الجمّالون وهم يزغردون زغاريد تشبه صرخات ابن آوى مهيئين رماحهم للطعن وسيوفهم للبتر حين لاحظ مقدموهم أنّ الجمالين على الجمال التركية يرمون سلاحهم وخناجرهم وها هي تلمع في ضوء الشمس أثناء سقوطها، وصرخ كبير الجمالين: لاتقتلوهم. السلطان يريد الأسرى، أكبر عدد من الأسرى، لا تقتلوهم.

وما كاد ينهي جملته الأخير، حتى تعثر جمله وهو يرغي ويصرخ، وبينما كان كبير الجمالين يسقط عن ظهر جمله المجنون ألماً رأى الجمال الأخرى في المقدمة وهي ترغي من الألم وترمي جمّاليها، ورأى الجمال والجمالين الترك وهم يلتفون من ورائهم، وبينما كان يجهز سيفه للقتال، راجلاً نظر إلى الأرض فرأى ما ظنه الخناجر والسيوف تلمع في ضوء الشمس ولم تكن إلا أشواكاً ثلاثية الرؤوس من الحديد يرمونها فتتدحرج رافعة أشواكها إلى السماء يدوس عليها الجمل فيتحول إلى معين ألم.

من مرقبه البعيد رأى السلطان جماله وجمّاليه البعيدين، يؤسرون ويقتلون، ولا يملك لهم حماية.. أمر الأتابك بعودة الجيوش إلى المدينة

يفكرون في المأزق الجديد لم يخطر لهم على بال.

هذا المشهد الفظيع الذي افتتحت به الحرب بين السلطان والجفتائي لم يصب السلطان ورجاله بالذعر فقط، بل أصاب المدينة كلها، حرفييها وفتيانها السابقين، ورجال أخياتها المعتزلين. وكان الوحيدون لم يغيِّروا من عاداتهم اليومية القلندرية، فقد أداروا ظهورهم للسلطان وللجفتائي، للحرب والمحاربين، للجمال والجمّالين الذين قتلوا أو أسروا، واكتفوا بإقامة حلقتهم يرقصون، ويهمهمون: هوه، وهوه، هو الله.

قبل غروب الشمس بقليل انعقدت حلقتان كبيرتان في المدينة، وكل منهما تحاول إيجاد حل لمشكلة الحرب التي بدأت بهزيمة، حلقة السلطان الصغير والأتابك الأمير آخور، والسلاح دار، والزردادار وشاد الطبلخاناه، والألفيين، وحلقة أخية برهان الدين التي انعقدت للمرة الأولى منذ ذلك الخروج الشهير خرجت به المدينة تبحث عن المدينة الهاربة. وكان جدال، وكان ذعر، وكان أمل، و.. أخيراً اتفقت الحلقتان، وإن لم تلتقيا على أنَّ رجال الجفتائي لا يمكن أن يقارنوا بفرساننا، ولذا فإن على فرسان السلطان أن يطلبوا المبارزة منذ الغد حتى يلقنوا الجفتائيين الدرس الذي يستحقون.

في اليوم التالي برز فارس المماليك يلبس الدرع السابغة، ويحمل القنطارية، ويستفز الجفتائيين للمبارزة، فهمس الجفتائي لضابط من حاشيته: دعهم يلهون قليلاً.

اختار الضابط واحداً من أسوأ فرسانه، وأمره بلبس زي الفرسان الأمراء، ثم أمره بالخروج لمبارزة فارس المماليك، وما كاد الجفتائي يقارب المملوك حتى طعنه المملوك بقنطاريته، فقلعه من سرجه، وطبق عظام صدره في ظهره.

هلّل الجيش المملوكي في سعادة، ولكن ما أدهشهم أن قهقهة انفجرت من جيش الجغتائي، قهقهة لم تكن لرجل، ولا لمئة، ولا لألف، بل كانت قهقهة جيش كامل في صوت واحد، وأصيب الجميع بالدهشة، فكيف استطاعوا هذه القهقهة وفارسهم قد قتل.

أمر الأمير آخور فارساً آخر بتحدي الجغتائيين، فقبلوا التحدي وأرسلوا فارساً لم يصمد إلا لدورتين، فإذا بالرمح يخرج من صلبه، وهلّل المماليك ثانية، وقهقه الجغتائيون قهقهة طبقت الجبال المحيطة بالمدينة.

استجاب رجال السلطان للاستفزاز، واستجاب الجغتائيون للتحدي، وما إن أرخى المساء عباءته حتى كان فرسان السلطان قد قتلوا أكثر من خمسين من الجغتائيين، ولكن ما حيّر السلطان، وحيّر الأتابك الأمير آخور، وحيّر السلاح دار، وحيّر الزردار، وحير حتى العوام الذين دفعوا نقوداً ليقفوا على الأسوار، ويتفرجوا على غبار المبارزات أنّ الجغتائيين كانوا يطلقون هذه القهقهة التي تحولت إلى رعب كلما سقط فارس منهم.

كان نصراً ملتبساً، نصراً لم يستطع ضباط ورجال السلطان التأكد إن كان نصراً، فإن كان، فلماذا كان رجال الجغتائي يطلقون هذه القهقهة الموقعة المدوزنة المضبوطة التقطيع والدوي لم يسمعوا مثلها من قبل؟ ولمّا لم يستطيعوا تفسير كيف أمكن لكل هذه الآلاف المؤلفة أن تطلق هذه القهقهة الموحدة تقدم أحد الرحالة ليعلن أنّ من قهقه لم يكن الجند، بل كانوا الجن، وتابع: الجن فقط هو من يستطيع إطلاق هذه القهقهة المرعبة تدوي بين الجبال السبعة. لكن الأمير آخور الأتابك المسؤول عن الحرب خاف من تأثير هذه الشائعة على الجند، فأخرس الرحالة، ومنع الحديث في الأمر.

قال: يكفي أنّا قتلنا خمسين من خيرة فرسانهم. أليس هذا بالنصر الجميل؟ ثم تابع: ومن يدري ربما أبدناهم بهذه الطريقة.

كان يمكن لهذه الأمنية أن تتحقق، وكان يمكن لرجال السلطان أن يبيدوا رجال الجغتائي لو سار الأمر كما قرروا، ولكنهم فوجئوا في الصباح التالي رغم الحرس والرصد والكمائن المتقدمة برسوم هائلة سوداء مرسومة بتراب أسود منتشر على ما يمكن أن يكون أرض المعركة، فخاف البعض، وقال: إنه سحر الجغتائيين، ولكنّ رجال الخاصة من المماليك، وتنفيذاً لأوامر الأتابك نخسوهم، فعبروا فوق التيجان من تراب أسود، عبروا فوق العرش من تراب أسود، ومشوا فوق أسوار وفرسان وأفيال وجمال من تراب أسود، ولما رأوا ألا سحر للتراب الأسود سخروا منه، وقام بعض خاصة السلطان بكنسه بمكانس عملاقة، فضيعوا الرسم، وبقي التراب الأسود.

اندفع يلبغا الألفي في درعه الزردية وسيفه الدمشقي، فاستعرض مهارته وفروسيته، ركب حصانه بفخذ واحدة، قفز إلى الأرض، ثم قفز، فاعتلى حصانه، ألقى بسيفه في الهواء، واندفع بحصانه يصنع دائرة، ثم اختطف السيف قبل أن يصل إلى الأرض. قدم كل مهاراته التي اشتهر المماليك بها، ثم وقف في منتصف المسافة بين الجغتائيين ورجال السلطان، وهتف باللسان التركي يستفز الجغتائيين، ولكن فارساً واحداً منهم لم يتحرك من مصفّه، فتشجع الألفي وهجم على مصافّهم، فلم يتحركوا. طعن واحداً منهم فجرحه، ولم يتحرك المطعون، دار دورة كاملة يراقب ما يفعلون، ولكنهم ما إن رأوه يقف في منتصف الساحة تماماً ليبدأ استفزازه حتى أطلق الجيش القهقهة المدوية الموحدة الموقعة، فارتبك الألفي. ثم تحت تأثير

صرخات التشجيع والتهاليل المنطلقة من جيش السلطان اندفع في اتجاه جيش الجفتائي يريد طعن فارس آخر، وعندئذ سمع شهقة كبيرة أطلقها جيش كامل. لم تكن الشهقة شهقة الجفتائيين، بل كانت شهقة رجال السلطان، فتوقف، والتفت ليرى نهراً من نار يلتف حول الجيش السلطاني، نهراً يتشكل في لهيبه على شكل تاج، وعلى شكل عرش، وعلى شكل أسوار وفرسان وقنطاريين، فارتبك.. اتجه إلى جيش الجفتائيين فانطلقت القهقهة الموقعة، اتجه إلى جيش السلطان، فرآهم يفرون تحت مطاردة سياط النار المحاصرة تمنعهم من العودة إلى المدينة وتسوقهم إلى حيث الجفتائي وجنوده ينتظرون.

كان التراب الأسود السحري المنتشر وراء وأمام وبين أقدام جيش السلطان يشتعل، وكان عليهم أن يفروا أمام النار.

أخلى الجفتائي الطريق أمام رجال السلطان الهاربين مرعوبين وصرخ المتفرجون والحراس على الأبواب وأسوار المدينة مذعورين، وتحت أنظار المتفرجين المتحسرة على الأسوار، ورأوا الجيش يبتعد متبدداً، ورأوا الحراس يسارعون إلى إغلاق الأبواب.

لم يعمد الجفتائيون إلى مطاردة رجال السلطان، بل اكتفوا بالانتقال بمعسكرهم صانعين منه سوراً يفصل بين رجال السلطان والمدينة.

استجمع الأتابك الأمير آخور والسلاح دار والزردار قواهم، وما تبقى من إرادة للقتال، فطاردوا الفارين وجمعوا المنهزمين وكردسوهم، وعاد الجيش جيشاً ولكن مع تغير المواقع، فلقد صار رجال السلطان من يحاصرون الجفتائيين، أو هذا ما يتبدى لعين الجاهل.

قال رجال السلطان: نبيت الليلة ها هنا، ونحمس الرجال، ونرتاح، وغداً نهاجمهم فنحصرهم بين مقاتلينا وبين رجالنا في المدينة، وكانت خطة معقولة لو لم يسقط أحد رجال السلطان ثلاث حمائم من عشر خرجت من معسكر الجغتائي، فيحمل الحمائم ورسائلها إلى السلطان، وكانت الحمائم تحمل رسالة واحدة موجهة من الجغتائي إلى رجله في مصر يوافقه على استلامه عرش مصر بينما يشاغل الجغتائي السلطان الصغير ورجاله.

انتشر خبر الرسالة في المعسكر، وأصيب الجميع بالذعر، الجند والأمراء.. و.. السلطان، فأن تضيع مصر يعني أن يصبحوا معلقين في الهواء، فمصر هي القلب، وقبل أن ينبلج الفجر كان الجيش السلطاني قد ترك خيامه المنصوبة ونيرانه المشتعلة وبغاله الاحتياطية وانسحب إلى مصر تاركاً المدينة للجغتائي.

كانت الحيرة مزلزلة، حاولوا ابتلاع الفكرة، هضمها أو فهمها، ولكنها كانت أكبر من كل فهم أو هضم، فالسلطان يهرب تاركاً خياماً وسرادقات تثمن بالآلاف وآلاف الآلاف، وهو من كان يقطع يد من يسرق أترجّة من حدائقه، أو رغيفاً من مطبخه،.. يترك كل هذه الثروات والسرادقات ومخازن الأسلحة والبغال والخيول والجمال والحمير، يتركها كلها للجفتائي، ويـ.. يهرب.

استطاع الجريئون الوصول إلى الأسوار، ورأوا، وحكوا، فعرف الزبّالون والعطّارون، والسيّافون، وزارعو البقدونس على ضفاف الجداول، عرفوا أن السلطان قد مضى، وهتف أبو عبد الله: وبعد.. هل أصبحنا عراة أمام الجفتائي، لا سلطان ولا سلاح دار ولا أمير آخور! .. وفجأة صار يولول: إنها القيامة.. إنها القيامة.

كانت الحيرة كبيرة، فبقايا المماليك من الجند غير المحظوظين الذين وجدوا أنفسهم يحرسون أسواراً لا يستطيعون حراستها وحيدين أمام سيول الجفتائيين الذين لا عمل لهم منذ صاروا جيراناً للأسوار إلا ضرب الطبول الآلاف ضربة واحدة موقعة يسمعها آخر طفل في آخر غرفة في آخر حارة في المدينة حتى إذا ما تعب الطبالون انطلقت القهقهة الموحدة الموقعة المدوزنة سخرية وتهديداً وتوعداً.

جمع برهان أصدقاءه في الأخية، فاجتمعوا مذعورين متحمسين، فلقد ارتفع عنهم ظلُّ السلطان، وقضوا النهار يتجادلون فيما يجب صنعه، ولكن برهان اكتشف حزيناً أنَّ طول عطالتهم جعلهم

الحكائين ولا عمل، كانوا جميعاً ممتلئين بالمشروعات والأفكار عن وجوب ضرب العدو وطرده، ولكنّ جزءاً صغيراً فيهم لم يشعر به إلا المعثرٌ أحمد بن محمد بن عبد الله، هذا الجزء الذي سيكتب عنه كتابة تبدأ ساذجة، ثم يخمّرها الزمان لتصبح الكتاب الذي سيخرج به من وهدة التفاهة، وتجعل اسمه يرن في الآفاق تحت الاسم الذي وهبه له الجغتائي (ابن ملك العرب).

كانوا يشعرون أنهم باجتماعهم هذا إنما يعتدون على حق السلطان، فالسلطان وحده كان صاحب الحق والقرار والقتال والدفاع، صحيح أنهم كثيراً ما كانوا يثرثرون ضمن الأبواب المغلقة عن مظالم رجال السلطان، وعن تقصير السلطان، وعن وجوب استعادة دورهم القديم فتياناً وثغوريين، وتطرّف لطفو، فقال: وفداوية أيضاً.

ولكن نظرات الخوف والتهديد والإحساس بتجاوز ما لا يجب تجاوزه جعله ينكمش على نفسه ويتمنى لو لم يقلها.

كانوا يشعرون أنهم حين يناقشون مصيرهم ومصير المدينة، إنما يخترقون حراماً لا يحق لهم اختراقه، ولكنّ تجمعهم في الأخية بعيدين للمرة الأولى عن رجال السلطان، ورجال الشحنة، ورجال صاحب الخبر جعلهم يشعرون بطمأنينة فراخ الدجاج حين تتجمع مذعورة فتشكل كتلة يضيع فيها الرأس في الذيل، فيتضخم الجمع ويضيع الفرخ.

كانوا يشعرون أنهم يتطاولون على حق ليس من حقهم، فما لهم وللجيوش والقتال والحرب، إنهم الرعية الذين يدفعون الزكاة والمكوس والضرائب والجزية والخراج للراعي المكلف بالدفاع عن رعيته، ولكنهم تجرأوا وتحدثوا تورية عن هروب السلطان، ثم

تجرأوا تحت وقع طبول الجغتائي وقهقهاته على الحديث تصريحاً عن السلطان الذي محضوه كل ثقة، فتخلى، وهرب، وتركهم للجغتائي.

انتصف الليل، وانتهى كل حديث إلا حديث الخوف والعجز والرعب الخفي، وفجأة انفجر لطفو: ولكن ما الذي يحيِّركم إلى هذه الدرجة؟ ما الذي يمكن للجغتائي أن يفعله ولم يفعله السلطان ورجاله؟ النهب؟ السلطان نهب كل شيء إلا ما يبقي النعجة حية لتدر الحليب. القتل؟ السلطان اخترع واكتشف، وقام بكل شكل من أشكال القتل بدءاً من زرع الرأس منكوساً في التراب، وترك الساقين ترفرفان في الهواء حتى دسِّ الأنف في صحن الرماد، وإجبارك على تنفس الرماد الصافي والموت اختناقاً برمادك الخاص.

أمَّن البعض على قوله، واحتجَّ البعض، وهتف واحد: لا. هذا كلام الجواسيس. لعلك عميل للجغتائي.

فشخر لطفو ساخراً في لؤم وقال: رجال الخبر غير موجودين هنا - وأشار بكفه إلى الحلقة - فإن كنت تتوقع أن ينقلوا خبر دفاعك عن السلطان إلى السلطان، فقد خاب فألك.

وصعق الآخر مخجولاً، فقد كان هذا النوع من الأجوبة جواز الخروج المعتاد من مأزق أن تسمع من يشتم السلطان في حضورك، ولكن كما قال لطفو، فرجال خبر السلطان غير موجودين، و.. تابع لطفو دون أن يرمقه بنظرة في قسوة: أما إن تحمَّس أحدكم للسلطان، وكره الجغتائي فأنا أسألكم: ما الذي يميِّز السلطان عن الجغتائي. الإسلام؟ كلاهما مسلم - وتابع في سخرية - وأيُّ إسلام؟ - وتابع ثانية - ابن البلد؟ كلاهما غريب عن البلد. شرعية الولاية؟ وكلاهما غاصب للملك، فإذا ما وازنت المزايا بالنقائص فاز

الجفتائي، فهو الرجل الناضج المجاهد، صحيح أنه دمّر المدن التي اجتازها وقتل أهلها، ولكن كل السلاطين السابقين ليس فيهم من قصر في القتل والحرق.

لم يعجب هذا الكلام الشيخ أحمد، فانسلّ من المكان، ومضى يضرب في الحارات والجادات والشوارع. كان يتخبط لا يعرف إلى أين يمضي، أو لماذا. كانت قدماه تقودانه لا إلى هدف أو غاية، وبعد سنين وحين سيذكر تلك الليلة سيذكر أنّه كان أبيض الذاكرة خالي المخيلة حتى كأن طبول الجفتائي وقهقهاته لم تكن تصل إلى أذنيه، وكأن الفكرة الجديدة عن الولاء لسلطان لم يختاروه لأنه كان أفضلهم أو أعلمهم أو أتقاهم، بل كان هو من اختارهم رعية له حين وضع السيف في رقابهم؛ هذا الولاء الذي طرح للجدل فجأة، وطرحت المفاضلة بينه وبين الجفتائي، وكأن لا دور للمدينة وأهلها ومصائرهم وثرواتهم وحيواتهم في الأمر؛ هذه الفكرة التي سيناقشها الشيخ أحمد عشرات المرات فيما بعد بينه وبين نفسه، وبينه وبين الآخرين؛ هذه الفكرة نفسها لا يذكر إن كان قد ناقشها في ليلته تلك، أو فكّر فيها، فكل ما كان يفعله الجسد هو ان يتحرك إلى الأمام وغير مهم إلى أي أمام.

فجأة وجد نفسه يقف عند الدرجة الأولى في المئذنة ما الذي جاء به إلى الجامع، لا يذكر، كيف فتح باب الجامع، لا يذكر، ما الذي يريده من الجامع والوقت ليس وقت صلاة. لا يذكر. ولكنه خضوعاً لعادة عضلية محضة وجد نفسه يتسلق الدرجات، وينظر من الكوى إلى المدينة.. لم ينتبه في البدء إلى الأنوار المتقدة، ولا إلى الفوانيس المشتعلة، بل تابع التسلق في هدوء، وفجأة انتبه، المدينة ما تزال مستيقظة وفوانيسها مشتعلة والناس مرعوبون، ولديهم الحق

كله في الرعب، فضربات الطبل الموقعة في ضربات موحدة ما إن تنتهي حتى تنطلق قهقهة واحدة كبيرة بحجم جيش لا بد أن تثير الذعر، فما بالك إن كنت تعرف أنَّ صاحبها الجفتائي وأنَّ السلطان قد سرق الجيش، وترك المدينة عزلاء وهرب.

أنصت في تعمد يريد سماع صوت المدينة، ولكن صوت الطبل المدوزن منعه من سماع تأوهات رعبهم، وأنين خوفهم وصلوات خضوعهم.

استعاد رأسه من الكوة، وتابع الصعود وضربات الطبل تتسرب إلى جوف المئذنة بعيدة مصدية نظيفة، وكأنها ضربات قلب. قلب من؟ بالطبع ليست ضربات قلب المدينة، أهي إذن ضربات قلب الجفتائي؟ جيش الجفتائي؟ الجيش المحاصر؟ جيوش العالم مجتمعة؟ ولكن كيف فعلها السلطان وتخلى عنهم؟ صعد درجتين، ولطفو؟ ما الذي غيَّره حتى يقدم هذا التفسير، ولكن،أعوذ بالله. الاقتراح ليس خاطئاً تماماً، فمن هو هذا السلطان فرج، ما الذي قدَّمه، وأخَّر الجميع، ما المميز فيه جعله السلطان، وجعل الآخرين المسلوطين. ماالذي يجعل الرعية تقدم روحها له؟ وهل سنسمع يوماً أنَّ هناك من سيوالي الجفتائي إن صار السلطان؟ وهل سنرى من يفديه بروحه إن صار السلطان؟ أعوذ بالله. أي مستنقع أمشي فيه، مالي ولهذه الحكايات، مالي، ولهذه الأسئلة لم أعتد سؤالها.

نظر إلى الأعلى، فبدا له نور الليل الداكن يتسرب عبر فتحة الصحن: لقد اقتربت من صحن المئذنة. تابع تسلق الدرجات الأخيرة يسمع صوت خطواته تدب على الدرج. تدب؟. توقف. ركز سمعه وأحاسيسه، فسمع نواحات، وسمع بكاءات، وسمع تضرعات،

وعرف أنها المدينة المذعورة، ولكن.. طبول الجغتائي.. قهقهاته؟...
لقد توقفت لماذا. أهي ترتاح؟.

وصل إلى صحن المئذنة، تنفس عميقاً، لاحظ أضواء البيوت وفوانيسها. حاول أن يحزر البيوت من فوانيسها وقربها من الجامع أو بعدها. هذا بيت أبو محمود، وهذا بيت أبو سعيد؟ لا. فانوس أبو سعيد أكبر، إنه فانوس أبو عثمان. وفجأة انتبه إلى أنه يتعمد التشاغل بتأمل المدينة ولا يريد النظر إلى الخارج، إلى معسكر الجغتائي.. كانت رقبته متشنجة في انحناءتها تتأمل الحارة والحارات المجاورة، ولكنها تأبى النظر إلى البعيد، هذا بيت.. بيت.. بيت. أعوذ بالله. ماالذي يخيفك من معسكر الجغتائيين؟ ورفع رأسه، كان الجيش كله قد نام، لقد أنهى الطبل والقهقهة، وليس من نور في المعسكر إلا بضع مشاعل هنا وهناك.

ركز النظر، ورأى.. أعوذ بالله. إنهم يقتربون من المدينة، لقد انتظروا ركون الناس إلى النوم ليضربوا ضربتهم، لقد أنهكوهم بالطبول والقهقهات الشيطانية، وها هم يمنحونهم فرصة النوم، وإذا بفرصة النوم وثبة الوحش. ركّز النظر، رأى الأشباح الكثيرة، ورأى وميض الأسلحة الواهن تحت التماعات النجوم البعيدة.

نظر من حوله في ذعر يطلب عوناً، يطلب نجدة، وفجأة وعلى غير رغبة منه أو تحضير وجد نفسه يؤذن، ولكنه الأذان المختلف، وجد نفسه ينادي بصوته العالي. الله أكبر، أفيقوا أيتها النعاج بلا كبش ولا راع. الله أكبر، أفيقوا أيها الرعية فقد هرب الراعي وترككم للضبع، الله أكبر، أفيقوا أيها المساكين أسلموا مقاديرهم للذئب فباعهم للضبع، الله أكبر، أفيقوا فالجغتائي يهاجم أسواركم، الجغتائي على الأبواب، أفيقوا.

سمع اصطفاق الأبواب. رأى المشاعل تتقد، وتتجمع مشكلة كتلة ضوء كبيرة، سمع المآذن الأخرى وقد اعتلاها مؤذنوها وهم يؤذنون في غير وقت الأذان، يؤذنون، ولكن بـ... أفيقوا أيها الناس، أفيقوا أيها الحرافيش، أفيقوا يا أصحاب المدينة الحقيقيين، فلا مدينة أخرى لكم، أفيقوا فالجفتائي يعدُّ السكين للذبح.

سمع الهمهمات، سمع التمتمات، ثم الهدير، ورأى الفوانيس تتحرك باتجاه أبواب المدينة، ورأى المشاعل تتوالد وتتكاثر على الأسوار وفوق الأبواب، ورأى كتلة الأشباح تنسحب، وفجأة سمع الجميع قهقهة منذرة بعرض الآفاق.

مع انبلاج الفجر رأى الجفتائي من معسكره البعيد الأسوار تعج بالناس، كان أهل المدينة كلهم يحرسون أسوارها، فقال: نداعبهم! وأمر بصف الجيش في كراديس استعداداً للحرب. قال: سيرتعبون.

لكنَّ ما أدهشه هو انفتاح أبواب المدينة وخروج أهلها يحملون العصيَّ والرماح والسواطير والسكاكين والمدى والمناشير والمذاري.

قال: اتركوهم يقتربون، ثم يهجم الفرسان! لكن ما لم يخطر على باله أبداً أن يصطدم فرسانه لدى انقضاضهم بشيء جديد لم يعرفوه من قبل، اصطدموا بأناس لا خبرة لهم بالجندية ولا القتال، ولا الفروسية، ولا حمل الرماح القنطارية ولا السيوف الهلالية، ولكن لديهم شيئاً جديداً لم يعرفه الجفتائي وأمراؤه وهو عدم الخوف من الموت.

قتل كثير من أهل المدينة لدى الصدمة الأولى، ولكن الآخرين الكثيرين قتلوا، وعرقبوا، ومزَّقوا الكثير من الفرسان حين حاصروهم بينهم، ففقدت خيولهم حرية الحركة. وصار الناس وجثثهم ودماؤهم واندفاعهم مستنقعاً تخبط فيه فرسان الجفتائيين،

وبدأوا يتساقطون تحت ضربات السواطير وسكاكين المطابخ، واضطر متخلفو الفرسان إلى الانسحاب خوفاً على خيولهم الثمينة، ومن موت تافه بيد عوامٍّ لا شرف كبير في قتلهم. وما إن انسحبوا حتى تضاعفت الشجاعة لدى الحرافيش والفقراء والزبالين والحرفيين وزارعي البقدونس والكزبرة على حوافي الجداول، فهجموا، وأمر الجغتائي بفتح ممر لهم، ولكنهم لم يندفعوا وراء الفرسان والهاربين، بل تحركوا كوحش ذي آلاف الأذرع يحرق الخيام ويقتل من يقبض عليه من جريح أو كسير أو متخلف من الجغتائيين، وأمر الجغتائي بالانسحاب إلى الجبل.

إحساس غريب تسلل إلى حرافيش المدينة مع مقدم الليل، إحساس لم يعرفوه، ولم يعرفه آباؤهم وأجدادهم من قبل، إحساس بالعزَّة والمسؤولية جديد، إحساس كان المماليك قد حرموهم منه حين تقاسموا معهم المهامَّ فللناس العمل ودفع المال والخراج والمكوس، وللمماليك أحسن اللباس، وأفره الخيل، وسكنى أنعم القصور و.. الدفاع عنهم إن هاجمهم غاز أو معتد. ومع تقدم السنين صار الناس ينظرون إلى المماليك، فيرون فيهم مخلوقات أخرى مباركة وهبت نفسها للموت دفاعاً عنهم. ومع تقدم الزمن صار السلطان مخلوقاً فوق البشر، ولم يعد هناك من يتساءل: من أين جُلب، وبكم اشتري؟ بل صاروا يرونه المانح المعطي، أفلا يملك الأراضي كلها فيقطعها لمن يشاء؟ أفلا يملك الثغور كلها، ويمكسها كما يريد، ويعطي منها ما يريد؟ كان يقدِّم للحرافيش طعام الإفطار في رمضان فيدعون له بطول البقاء، ويعطي الفقهاء والقراء العمائم والجباب في الأعياد، فيدعو له الجميع، وهكذا صار المملوك السلطان سيد المنح والمنع والحياة والموت و.. الدفاع عن البلد..

ولكن.. ها هو السلطان الجديد يخل باتفاق التقاسم هذا حين يأخذ كل شيء، ويهرب متخلياً عن الأمانة، وها هو فقير منهم لم يروه يوماً يلبس جبة جديدة، أو قمبازاً دون رقاع يصعد المئذنة فيدعو الناس إلى الجهاد والدفاع عن البلد، ثم يتجرأ، فينزل عن المئذنة ويصعد المنبر، فلا يحتجُّ الخطيب ولا المحتسب، ولا القاضي، فلقد استحق الصعود على المنبر بدعائه الناس إلى الجهاد والاندفاع يحمل سيفاً صدئاً ما لبثت الحرب أن أزالت عنه الصدأ.

اكتشف الناس أنهم بشر، وأنَّ من حق البشر أن يأخذوا المبادرة بأيديهم، واكتشفوا أنَّ المماليك عادوا المملوكين، فقد تسرب من بقي منهم في المدينة واحداً إثر الآخر، البعض أخذه الجغتائي أسيراً، والبعض وهب نفسه للجغتائي دليلاً.

في اليوم التالي هاجم الحرافيش والفلاحون والزبالون وزارعو الخس والبقدونس جيش الجغتائي، فطردوه إلى الجبل الشرقي، ورغم الطبول والقهقهات إلا أن الجغتائي تعكر، فلقد تغير في خططه شيء لم يكن يخطر له على بال. كان يعرف أن هناك سلطاناً، وأنه إن هزم السلطان استسلمت المدينة، ولكن ها هو السلطان يهرب. فلم لم تستسلم المدينة....؟ وفي ليل الأرق عاد السؤال إلى الإلحاح: هل السلطان في كل المدن التي فتحها كان الحامي، أم مانع الناس من المبادرة للدفاع عن النفس؟ ثم ماج السؤال كبقعة زيت على سطح فسقية فتحول إلى: هل السلطان نعمة، أم نقمة؟ ثم إلى: غاب السلطان فتحولت الرعية إلى ذئاب، ولم تعد رعية ولا نعاجاً للحلب. ثم إلى: يجب أن يرجع السلطان، ويجب أن يهزم، وعندئذ تنتقل الرسالة إلى الرعية فيعرفون أنهم مهزومون، وتكون قواعد اللعبة واضحة.. ثم تتهد: ولكن من يأتي بالسلطان، لقد صار في

مصر أو يكاد.. وتابع: حسن، نعطيهم سلطاناً، ولكن.. كيف؟

وقال له رجل من حاشيته وأمَّن على كلامه مماليك المدينة الذين انضموا إليه: للحرافيش فورة ما تلبث أن تنطفئ. فقال: ننتظر ونرى.

لكن اليوم الثالث جاءهم بما لم يتوقعوه، فلقد هاجم الحرافيش الذين استطابوا طعم دم الجغتائيين، وهاجموهم، وطردوهم مدمرين خيامهم ومعسكراتهم، ذابحين خيولهم وجمالهم، ومن استطاعوا الوصول إليه من فرسانهم ومشاتهم، فطردوهم حتى الجبل الغربي.

في الليل قال الجغتائي الكبير: يكفي. سألوه: ما العمل. قال: النعجة تنطح إن عرفت أنها مذبوحة ولا راعي يحميها، ولكن إن جاء الراعي وأقنعها أن المطلوب منها بعض حليب فقط تركتك تحلبها.

صابح الجغتائي أهل المدينة بوفد يحمل راية بيضاء ويعلن إعجابه بشجعان المدينة الذين ذكروه بالصحابة الأوائل عليهم رضوان الله، عرض الصلح، وما كاد كبراء المدينة يسمعون بكلمة الصلح حتى أعلنوا الموافقة السريعة، فقد أخافهم الحرافيش ونظراتهم الجديدة بأكثر ربما مما أخافهم الجغتائيون، فلقد رأوا في عيونهم للمرة الأولى حس المزاحمة والمدافعة و.... الحسد. سألوا وفد الجغتائي: وما الذي يريد الكوركان؟ فقالوا: قليلاً من المال يعوضه عن سفرته الطويلة، وعن رجاله الذين خسرهم في الحرب.

ضحك الكبراء في عبهم حين عرفوا المبلغ الذي يطلبه الكوركان، فالمدينة شديدة الثراء، وثرواتها مشهورة في الآفاق، ومكوس تجارها والعابرين منها تغطي عشر أضعاف ما يطلبه الكوركان، وضحك الكوركان في عبه، وقال: الآن سينجبون السلطان، وسيسلم السلطان المدينة! شكر الكبراء حظهم السعيد، وجمعوا للكوركان المبلغ الفدية، وأرسلوه مع قطعان من الغنم،

وأكوام من الورد والياسمين، ودمجانات من العطر الثمين، لكن المفاجأة كانت هي أن الكوركان رفض الفدية في استصغار، ولما سألوه عن السبب وهو من طلب هذا المبلغ. أخبرهم مندوبه أنهم فهموا الرسالة خطأ لذا لم يعرفوا مبلغ الفدية، فسعر العملة في عرفهم يساوي ألف ضعف مما قدروه.

ووقعت الواقعة، فلقد قسم الكبراء المبلغ على أهل المدينة كلهم، فقرائهم، وأوساطهم، وكبرائهم، هاجموا بيوت الفقراء وباعوا أثاثهم وطناجر طعامهم، وسجاد وصيني أوساطهم، وهبَّ الشيخ أحمد إلى المئذنة يدعو الناس إلى الجهاد، فلقد استكبشت النعاج، فما الذي جعلها تعود النعاج؟ ولكنه فوجئ بأصدقاء الأمس وإخوان الأمس وهم يقرأون عليه: فإن جنحوا للسلم فاجنح لها، ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة. فحدث ولا يعرف من أين هبطت عليه البلاغة، عن فريضة الجهاد ووجوب الدفاع عن النفس، ولكنهم أنزلوه عن المئذنة، ورفسوه عن المنبر، فلقد صار همُّ الجميع جمع الفدية من الجميع، الجميع. دافع بعض الحرافيش عن طناجرهم فضربهم الشِحنَة، واحتج بعض الدكانيين، فجلدهم من صار صاحب الخبر الجديد، وبدأ ما يشبه الحرب الأهلية بين الكبراء وأنصارهم والفقراء ومؤذنيهم وشعرائهم، ولكن الفدية جمعت، وكانت المفاجأة في أن الكوركان طالبهم بعد استلام الفدية، بجمع السلاح من حرافيش المدينة، فهو يخاف على جنده من أفّاق أو مجرم منهم يعيد الحرب شابة.

ووقعت الحرب الأهلية، وكان الكبراء وأنصارهم قساة على الحرافيش يجمعون سكاكين المطابخ ومذاري الحنطة وسواطير اللحامين، وكان الحرافيش ضعفاء في الدفاع أمام كبرائهم الذين

يعرفون الحقيقة خيراً منهم. وجُمع السلاح، وسُخر من الشيخ أحمد ومن المؤذنين والشعراء الذين آزروه في تحذير المدينة مما هي مقدمة عليه، ولكن السلاح حمل إلى الجفتائي الذي سأل من انضم إليه من المماليك إن بقي لدى أهل المدينة مال أو سلاح، فأجابوه بالنفي، فطلب زيارة قبور الأولياء والصحابة المدفونين في المدينة، ففتحوا له باباً صغيراً يدخل منه مع كبرائه للتبرك بزيارة قبور الصحابة، وما إن ملك رجال الجفتائي الباب حتى دخل الجميع، وكان.. الخراب... الكبير.

نظر إلى الوراء في أسى، حاول في البدء كثيراً ألا ينظر، ولكن اللهفة والخوف غلباه، فنظر.. كانت النيران وغيوم الدخان تغطي كل شيء.. كل شيء.. تمتم في انكسار. نظر من قفصه، فرآهم، وتذكر أنّه كان قد رآهم قبل الآن.

أعوذ بالله. إنه المنظر نفسه، آلاف وآلاف من أهل المدينة، الحفّارون والحدّادون والسيوفيون، الرخّامون والنحاتون، والنساجون.. صفوف طويلة مربوطة إلى بعضها البعض بالحبال والسلاسل تجمعها في مجموعات تتحرك مطأطئة محزونة منكسرة. كان يراهم كما رآهم فيما مضى في ذلك الحلم الكريه مقطّعين كما يراهم الآن بقضبان القفص، مقطّعين طولياً، شرائح طولية من مجموعات كثيرة من رجال ورجال ورجال. عرفهم، جميعاً، فلطالما رآهم في أسواقهم ودكاكينهم يسعون وراء رزقهم، يصنعون أفضل المناجل وسيوف الفولاذ، ينسجون أجمل الصوف وأنعم الحرير الذي طبقت شهرته الآفاق، ينقشون أحلامهم على دانتيلا الرخام، ويصوغون رؤاهم على شرائح الصدف وخيوط الفضة والذهب. عرفهم، فلطالما رآهم في أسواق الخضرة واللحم منحنين فوق أكداس الخضرة يحاولون انتقاء أفضلها بالسعر الأرخص، كانوا لا يكترثون للسلطان ولا من تسلطن، أو من سيتسلطن، ولكن. ها هم يدفعون ثمن هروب السلطان وتركهم للوحش يأكلهم، أو يحفظهم أحياء نضرين إلى أن يحين زمن أكلهم. قال: بكم سأبني المساجد

والجوامع والخانقاهات. بكم سأنقل الحضارة والتاريخ إلى قلب صحارى تركستان. قال: بكم سأجعل من جفتايا حرماً.. يحج إليه الناس كما يحجون إلى كل مكان جميل.

نظر إلى غيوم الدخان، وبصعوبة رأى أعناق المآذن المحطومة، وتساءل: أيها كانت المئذنة التي طالما اعتليتها قبل الفجر وقبل الضوء تغرّد وتفرّد، وتدعو: التائبون العابدون القانتون الصابرون الصادقون المستغفرون، ودموعهم تجري، وصوت دعائهم لك صاعد.

تنهد في أسى وينظر إلى السماء: أفلم يسمع نداءهم، أفلم يرقّ لشقائهم، أولئك الذين كانوا يبتسمون في فراشهم وهم يسمعون أول نشيد له فيتمتمون كما طالما حدثوه: فرّد، فرّد يا شيخ أحمد سبحان من وهبك صوت داوود.

أخذت ألسنة النيران تعلو، وسمع صوت الطقطقة: أعوذ بالله إنها الأسقف المزيفة، لوحات الخشب المزخرف الجميل، اللوحات المدهونة بالأخضر الغامق المكتوب عليها آيات الله بالخط الذهبي، لوحات الخشب المعشّق والمزيّن بالمربعات والمسدسات والمثمنات المتداخلات رقصاً وتغريداً وأذاناً. أعوذ بالله.. ورآها في خياله، رأى الألوان تسيح وتسيل، والخشب يلتوي تحت ألسنة النار، والأسقف المزيفة تنهار، وكل ما تعب الناس في صنعه جمالاً وزينة يتهاوى، ويتساقط ويتحول إلى رماد.. لماذا.. لماذا يتعب الإنسان ويجمّل ويزخرف. ويحسن هذا العالم القبيح إن كان هناك جفتائي ينتظر ليدمر كل شيء...؟

قال وقد جمعهم جميعاً، كل أولئك الذين اعتبرهم أعيان وزينة البلد: لا. لن أدمر وأمضي، ولكن جنوده دمروا فيما بعد كل شيء. لا.. لست ذلك الوحش الذي حدثوكم عني، لا.. كل ما سأفعل هو أني سأنقل هذه المدينة الجميلة إلى هناك. وأشار بجانب خده، إشارة

خفيفة إلى الشرق البعيد، وفهم الجميع ما عنى، فبكوا، وناحوا، توسلوا، ورجوه أن يقتلهم، فذلك خير من ذلك المنفى البعيد. ولكنه قهقه قهقهة ذكرتهم بتلك القهقهة الفظيعة سمعوها عبر الأسوار بعد نهر النار الذي صبه عليهم. قال: يا لكم من حمقى ترتبطون بهذا المكان الصغير وتظنونه الدنيا، وها أنذا أحملكم إلى العالم الكبير ترون منه الدنيا.. تسعدون بساقية، وتسمونها نهراً، وها أنذا آخذكم إلى أنهار لن تروا ضفتها الأخرى، تسعدون ببضع بساتين حول واحتكم، وتصدقون أنها الجنة، وما كل جنانكم إلا بستان صغير من بساتين صغار الراجات والمهراجات هناك في الهند والسند والصغد وملتان.

قال كلمته الأخيرة، وأشار بخنصره المثقل بخاتم فضي يحمل ياقوتة سمع الشيخ أحمد أنه انتزعها من يد ملك دهلي بعد قتله بنفسه، فانحنى عبدان عملاقان وتأبطاه يساعدانه على القيام، وما إن قام حتى نظر إليهم ساخراً: أترون ما أصغر هذا العالم على الله، هه؟ يعطيه لأعور أعرج عجوز مثلي، ثم أشار إليهم ساخراً، ويجعل من هؤلاء الشبان الوسيمين الأنيقين الأذكياء أبناء الأسر الكريمة عبيداً لديه.

اتجه إلى خيمته الداخلية يكادون يسمعون قهقهته الساخرة، ولكنه التفت إليهم فجأة، وقال: أين هذا المدعو أحمد بن محمد بن عبد الله؟

تبادلوا نظرات الدهشة، فعن أي أحمد بن محمد بن عبد الله يتحدث ولديهم العشرات من الأحمد بن محمد بن عبد الله، لديهم أحمد الحداد، وأحمد السيوفي، وأحمد الغرابيلي، وأحمد بن الشهبندر، ولما لاحظ ترددهم وتبادلهم نظرات الدهشة، قال: أين

ملك العرب! ولما لاحظ تخبطهم وترددهم وتبادلهم إشارات التساؤل صرخ في ضجر، أتحدث عن ذلك المؤذن الذي أذّن بديلاً من حيَّ على الصلاة، فصرخ: حيَّ على الجهاد. حي على الوقوف في وجه الجفتائي - وضحك - يعنيني أنا.

امتقع وجه الشيخ أحمد، وتحلقت من حوله العيون جاعلة منه المركز، ثم فجأة وكأنما صدرت إشارة ارتعبوا لها جميعاً، فقد ابتعد برهان الدين، وما لبث الآخرون أن ابتعدوا تاركين الشيخ أحمد يقف وحيداً عارياً في مواجهة الجفتائي الذي قال في هدوء: اقترب.

لم يجد الشيخ أحمد في ساقيه القوة ليقترب، ونظر إلى حاشية الجفتائي ورأى عيونهم الحمر المهددة وكادت ساقاه تتهاران، وأدرك الجفتائي ذلك، فكرّر في حزم: اقترب.

اندفع اثنان ممن ابتعدوا عنه يريدون دفعه ليركع أمام الجفتائي، ولكنّ الجفتائي صعقهم بنظرة، فتجمدوا، وتابع تحديقه الغاضب، فتراجعوا إلى مواقعهم التي ابتعدوا عنها تاركينه يعود ثانية إلى مركز الحلقة، وإلى قدره المشؤوم، فها هو الجفتائي السلطان الذي دعا الشيخ أحمد الناس إلى مقاومته انتصر، وها هو الشيخ الأحمق يقف أمامه ليحكم فيه. قال: لماذا دعوتني بالجفتائي.. ولم يجد الشيخ أحمد في حلقه إلا الفأفأة، فقال الجفتائي يداعب في مكر: كان بإمكانك أن تدعوني بالكوركان إذا لم ترد أن تدعوني بالسلطان، ولكن.. الجفتائي؟.. فقط؟ .. ودون لقب؟.

أطلق قهقهته التي ذكّرتهم ثانية بنهر القهقهة الذي طبّق جوانب المدينة وهو يستدير مستنداً إلى عبديه العملاقين ليغيب في خيمته الداخلية.

تقدم واحد من أمراء الجغتائيين يحمل سوطاً من عصب الثور، فأشار إليهم بقبضته، فانتفضوا واقفين، وشدَّ واحد من الحراس قيدهم الكبير ليسوقهم إلى الخيمة السجن، وهناك أداروا له جميعاً ظهورهم، كانوا يقولون وإن لم يقولوا: أنت من أصبتنا بهذه المصيبة، أنت من حكمت علينا بالعبودية، لو أنّا استجبنا لنداء الصلح بعد تخلي السلطان عنا لما صرنا العبيد، ولما انتقم من المدينة هذا الانتقام المروع.

أداروا ظهورهم له وقد عرفوا فيه العدو الذي أوردهم هذا المورد، فكيف يتجرأ وهو الإمَّعة البلدي الفقير خادم الجامع المسكين على التتطح لدور السلاح دار، والزردار، وأمراء المماليك، فيدعو الناس إلى الجهاد. وضدَّ مَن؟ ضدَّ سيد العالم الذي لم يهزمه سلطان. كيف تجرأ على دعوتهم إلى الوقوف في وجه الكوركان. لا.من قال الكوركان، لا، فهو الخاقان الأكبر سيد العالم.

أنصت إليهم محزوناً مضاعف الانكسار، فالزمن لم يكتف بهزيمته وهزيمة مدينته وضياع الفتيان والحرافيش ما بين سيوف كبراء المدينة ونخاسي الجغتائي، وكل أولئك الذين أصغوا إليه، فخسروا كل شيء.

أنصت إليهم محزوناً، فأي قدر ساقه إليه الجغتائي وحماقة المحيطين به؟ ألحوا في لومه، ولربما لو كانت أيديهم طليقة لقتلوه بأيديهم العارية يبرئون أنفسهم من إثمه، فلعل الجغتائي يغفر ويسامح، ولا يمضي في انتقامه حتى النهاية.

حلَّ الليل، وغطّى الظلام المكان والقيود التي تنهش أرساغهم، ولكنهم لم يتوقفوا عن شتمه ولومه حتى في الظلام، نسوا ضعفهم وهروب سلطانهم، نسوا جبنهم الذي جعلهم يتخلون عن السيف

ويلجأون إلى الدينار يشترون به السلام مع من لم يغفر لهم أبداً أنهم رفعوا السيف في وجهه، فوجب أن يكونوا الدرس للمدن الأخرى والأحلام الأخرى.

كانوا يغمضون عيونهم يحاولون النوم، فلا يرون إلا الحرائق تلتهم بيوتهم وقصورهم وما وهبوا له العمر، ثم لا يجدون من يلعنونه على هذه الكارثة التي حاقت بهم إلا هذا الأحمق المؤذن والمطرب السري، فقد كشفوا سره أخيراً، وآن أوان معايرته به. وقال أحدهم: إنه سيكشف سره غداً للجفتائي حتى يعرف أن هذا الذي دفعهم إلى هذا المأزق ليس إلا المجرم الفاسق يدعي التقى والدعوة إلى الصلاة والجهاد، ويخفي مطرب السكارى والمعربدين.

أخذ الشيخ أحمد يتضاءل وهو يسمع اللعنات والمعايرات. حاول التماسك والتصامم والازدراء المريح، ولكنهم كانوا كلما لاحظوا صمته ازدادوا غضباً، فكيف ورّطهم هذه الورطة؟ كانوا يغمضون عيونهم يهربون من الظلام المخيف وصرخات الحراس الجفتائيين فيرون أطفالهم يقتلون، وثرواتهم، تنهب، ونساءهم الحبيبات الحييات اللواتي لم ينكشفن لشمس وهن يغتصبن ويقتلن، وينهبن، ويمزقن، فتلتهب قلوبهم، ويصرخون: عليك اللعنة. ثم لا يجرؤون حتى في قلوبهم على لعن سيدهم الجديد الجفتائي الذي سيصحبهم إلى صحارى آسيا، فيلعنون هذا المنافق مؤذن الجامع، مطرب السكارى السري: من أنت أيها الأحمق الشحاذ لا تحصل على عشاء إلا من فضلات السكارى لتطمح إلى مناطحة ملك الملوك وقاهر السلاطين، تريد الجهاد؟ تفضل. أرأيت إلى أين وصل بنا جهادك الملعون؟ عبودية، وحرق، ونهب، واغتصاب، وقتل أطفال.. وصرخ أحدهم: هو مَنْ كان يريد بنا هذا منذ البداية، هو الحسود الذي

حسدنا على كل جميل ملكناه، الفقير المعدم، التافه، خادم الجامع ينظر إلى الثروات والعربات والخيول والعبيد والجواري ويتحسر.. كان لابد أن يحسدنا ـ ثم تنهد ـ وانظروا إلى أين وصل به حسده، لقد ضيّع مدينة وسلطنة، لقد تسبب في الحريق الكبير ـ ثم صرخ في كراهية لو تحرق فيها الكلمات لأحرقته- لعنة الله عليك يا مطرب السكارى.

كان يمكن له أن يختنق من الغيظ، كان يمكن له أن ينفجر قلبه من القهر وكان يمكن له أن يصاب بالفالج لو لم ينشقّ جدار الخيمة الغليظ من الجلد، ويتقدم الحارس ليهتف: الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله.

وصمت الجميع مرعوبين: إنهم يسوقونه إلى القتل، ولكن، واحداً تذكر أنّه دعاه باسم الشيخ.. لا.. هناك شيء ما يتغير، ولما لم يملك الشيخ أحمد القدرة حتى على النحنحة والجواب أكمل الحارس: أين مطرب السكارى.؟

وشهق المربوطون المقيّدون، فلقد عرف الكوركان بسر خادم الجامع إذن ولما لم يرد أكمل: ابن ملك العرب. أين ابن ملك العرب؟

ولما كان الشيخ أحمد يجلس وحيداً معزولاً عن المجموعة، فلقد عرفه الحارس وهو يوجه مشعله إلى الأسرى، فتقدم منه، وشده من كوعه: هيا، فالكوركان يريدك!.

بعد سنين، وبينما كان الشيخ أحمد يضع كلمته الأخيرة في الكتاب الذي خرج به من عالم التفاهة، فكتب: الحمد لله الذي أدّب عبده، فأحسن تأديبه، وخصّه إذ ربّاه يتيماً، وأنشأه غريباً بكل يتيمة وغريبة، وأظهر له في بيان بديع المعاني منهج كل فن وأسلوبه.. أحمده حمداً تفتقت في رياض آلائه أنوار فصاحته،

وأشكره شكراً انعبقت في رياض نعمائه أزهار بلاغته.

كان يكتب ويكتب والقلم يسلس بين يديه والخواطر تستجيب حين توقف قليلاً، وأسند خده إلى كفه، فقد هاجمته الذكرى.. كاملة. تمتم: كان لقاء لم يكن يتوقعه أحد. لقاء بين أعجب نقيضين يمكن أن يلتقيا، سيد القتل والحرق والغصب والدمار وإصلاح العالم الفاسد، و.. بين خادم الجامع المسكين، ومطرب الأصدقاء السري و.. من طمح يوماً إلى القيام بدور المحرض والمصلح والمتدخل في شؤون المدينة يحرض أهلها على الجهاد..

أشار الكوركان بحركة شبه خفية إلى خادم، فاندفع يقدم كأس عصير محلى بالعسل، فتناولها في لهفة، وبعد أول جرعة قال الجغتائي قرأت ما كتبت عن المدينة أثناء تحريضك لها على المقاومة. غصَّ الشيخ أحمد وكاد يختنق، وعرف الجغتائي ذلك، فتابع بسرعة: أريدك أن تكتب تاريخي.

أنزل الشيخ أحمد الكأس مذعوراً لا يصدق ما يسمع، وكاد يعترض، يعتذر، يصحح، و.. لكنَّ الكوركان. قال: أنا أعرف ما فعل رجال سلطانكم الصغير- ثم تنهد - وأعتقد أنها كانت وصية سلطانكم الميت.. لقد صحبوا معهم إلى مصر كلَّ المؤرخين، كلَّ رواة التاريخ، كلَّ قارئي التاريخ، وكل من يمكن أن يكتب ويصحح ما أمر السلطان العجوز بوضعه عني في كتب التاريخ.

أشار بإصبعه ذي الياقوتة الهندية إشارة صغيرة، وقال: أكمل شرابك! ولم يستطع الشيخ أحمد إلا الطاعة، فشرب.قال: وكأنما يكلم نفسه: كنت وكان السلطان نتصارع ليس على الأراضي والمدائن والعبيد فقط. وصمت، فنظر إليه الشيخ أحمد نظرة بيضاء لم يجرؤ على أن يحيلها نظرة حث على الإكمال، وكان

الكوركان يعيش رغبة البوح عادته القديمة، ولكنه كان يفعلها عادة مع من كان قد قرر أن يقتله بعد إنصاته إلى بوحه. كان الكوركان يعرف أن هذه نقطة ضعف أساسية فيه، كان يحب أن يتحدث عن نفسه، عن أحلامه ورغباته، وعن تسويغ أفعاله، ولكنه كان يشعر بعد البوح مباشرة بالندم، فهذا الذي أصغى إلى دخائلي صار يملك مفاتيح أسراري، وصار يمكن أن ينضمَّ إلى عدوي الأكبر بعد موتي.. التاريخ.. لذا كان المعتاد أن يقتله في صباح اليوم التالي مباشرة، وبهذا كان يرضي شهوة البوح القاتلة لديه، ويرضي شهوة الكتم القاتلة لديه أيضاً.

لم يكن الشيخ أحمد يعرف بهذه النزعة لدى الكوركان، وكيف كان له أن يعرفها وهو من لم يلق أمير مئة في حياته، وكيف كان له أن يعرف وهو من كان أهمَّ حدث في حياته كتاب الكتب الذي أوصله إلى الجيومطريقا والبويطيقا، و.. أذان الحض على الجهاد الذي أوصله إلى سيد القتل هذا..

قال: بل كنا نتصارع على التاريخ، على كاتبي التاريخ، على ما سيقول عنا التاريخ. كنَّا نعرف أنَّا غيمة تمرق في الصحراء، ولكنا أردنا كل على طريقته أن يربط هذه الغيمة في الصحراء ويجعلها ظلاً دائماً، وأنا أعرف أنَّ واحداً من رجاله المتخفين في بلاطي قد نقل إليه الكلمة الندم التي زلقت مني مرة ووصلت إليه، فعرف وجعي.

تمتم الشيخ أحمد: وما هي؟

تنهد الجغتائي وقال: قلت: التاريخ هو العدو الذي لا تستطيع قتله، فحين تدبُّ فيه الحياة تكون قد صرت تحت التراب حيث لا رهبة لك ولا رغبة فيك.

قلب الكوركان كأسه في حلقه، وقال: اسمع يا مطرب السكارى! لقد قررت أن أجعلك مؤرخي، أملي وتكتب. جهز نفسك.

وكإغماءة مرت به رآها، مدينة الكتب التي عرف فيها صَغَارَ همته، ورآهم، أولئك الشيوخ المتحلقين يحاكمونه، وسمع الشيخ الأول يقول: لا بد من محرقة كبيرة تطهِّر هذا الصَغَارَ وهذا الدنس. وسمع الثاني يقول: ولكن، أي نار يمكن أن تطهر هذا الصَغَارَ؟ ومن آخر الحلقة سمع وسمعوا صوتاً يقول: النارَ التي طهرت هومير الشحاذ الأعمى.

فقال الأول مستنكراً: حريق مدينة؟.

وقال العجوز حتى الرثاثة: لا شيء أقل.

التفتوا إليه جميعاً كأنما يستفتونه في قدره، ووجد لسانه ينطلق في خفة: فلتحترق المدينة، وأكسب الخلود في كتاب!!.

أحنى رأسه العجوز في ضعف فوق كتابه، وتساءل في سخرية حزينة: أكان احتراق المدينة ضرورياً لأكتب هذا الكتاب إذن؟.

وأكمل يتساءل، وقد صارت السخرية المرة سلاح العجوز لديه: ترى أكان أنا من أحرق المدينة بأمنياتي.

نفض راسه يطرد هذه الأفكار التي طالما أمضته، وطالما طردها، وأكمل يكتب:

إذا أحسست في لفظي قصوراً	وحظّي والبراعة والبيان
فلا ترتب لفهمي إنّ رقصي	على مقدار إيقاع الزمان

تنهد ثانية وكتب: الحمد لله حمداً يملأ أركان الأمكنة، ويعطّر خياشيم الأزمنة، وصلى الله على سيدنا محمد صلاة تبلغ قائلها مأمنه.

قال الكوركان: منذ الغد ستمضي معي إلى جغتايا ، ولكنك لن تمضي مع الماشين والعوام - وأكمل ساخراً - فنحن في حاجة إلى كل قوة لديك.

في الغد كان في القفص المعادل لقفص لطفو الذي عرف الكوركان بما قاله عن المقارنة بينه وبين السلطان في اجتماع الأخيَّة الأخير، كانا محمولين على ظهر جمل، وبينما كان الجمل التركي يحجل بهودج من قفصين كان الشيخ أحمد يتأمل البادية يخترقها جيش الجغتائي العائد بغنائمه وأسراه إلى جغتايا ويتساءل: أعن هذا كانت بلابل تتحدث حين قالت: في قفص تطير، فقال لطفو: ولكنها قالت: في أرض البياض تطير.

وهكذا كان عليهما أن ينتظرا حتى يصلا إلى صحارى الثلوج وأرض البياض، ويريا العالم من قفص.. يطير.. على جمل.

2002 -7 -30



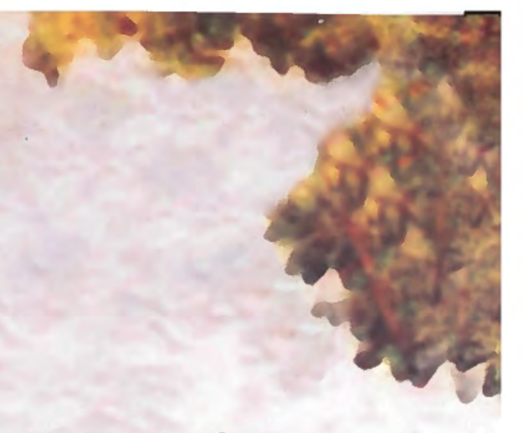
خيري الذهبي

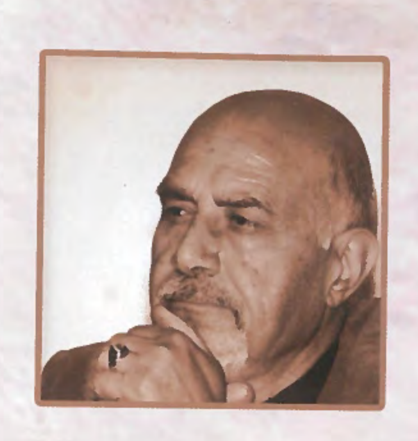
- مواليد دمشق 1946
- خريج القاهرة 1968

صدر له

- ملكوت البسطاء	رواية ـ دمشق 1975
- طائر الأيام العجيبة	رواية ـ دمشق 1977
- ليالٍ عربية	رواية ـ دار التكوين ـ ط2 ـ2008
- المدينة الأخرى	رواية ـ دمشق 1985
- **"التحولات"**	
- حسيبة	رواية ـ دار التكوين ـ ط 4 ـ2009
- فياض	رواية ـ دار التكوين ـ ط4 ـ2009
- هشام أو الدوران في المكان	رواية ـ دار التكوين ط4، 2009
- الجد المحمول	قصص ـ دمشق 1993
- فخ الأسماء	رواية ـ دار التكوين ط2 ـ 2009
- التدريب على الرعب	مقالات ـ دمشق 2003
- لو لم يكن أسمها فاطمة	رواية ـ دار التكوين ط2 2008
- صبوات ياسين	رواية ـ بيروت 2006
- رقصة البهلوان الأخيرة	رواية ـ دار التكوين ـ 2008







فخ الأسماء

والجغتاي هي أحقر قبائل المغول

مؤرخ فارسي

حين تشيخ، يصبح صدرك مقبرة لكل من عرفت.

الجغتائي

التاريخ هو العدو الذي لا تستطيع قتله
فحين تدب فيه الحياة تكون قد أصبحت
تحت التراب، حيث لا رهبة لك
ولا رغبة فيك.

الجغتائي الأخير